اميلي نصرالله

الجمر الغافي

نوفل

إملي نصرالله

الجمر الغافي

رواية

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت 2010 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة الخامسة، 2019

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2010
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com facebook.com/HachetteAntoine instagram.com/HachetteAntoine twitter.com/NaufalBooks
لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **مها نصرالله**
خطّ الغلاف: **سمير الحداد**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 1-368-469-614-978
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 8-369-469-614-978

إلى روح ليّا الحقيقية
وإلى أخواتها المقيمات
في ظلام القهر
وعجز البراءة...

ترقد الذكريات تحت دثار الأيام
مثلما يرقد الجمر تحت الرماد
إلى أن تتحرّك يدٌ
أو نسمة ريح عابرة،
فتنفخ الرماد
وتُعيد إلى الجمر الغافي توهّجه.

1

حين وصلت السيارة الأميركية الفخمة إلى ساحة «جورة السنديان»، كانت تتبعها زوبعة غبار لفّت أجسام الصبية الصغار، اللاهثين خلفها.

في الواقع، أنّ تلك الزوبعة الخارجية البادية للعيان، لم تكن بأهمية ما أثاره في نفوس السكان وصول سيارة «بويك» زرقاء اللون، من دون سابق علم أو خبر.

وقف الأولاد على جانِبَي الطريق في حالة ترقُّب ودهشة، بينما تجمّع الفتيان الأكبر منهم في وسط الساحة، يتشاوَرون.

قال زعيمهم، اسطفان، معلِّقا على ما يرى:

– بْزَمانو ما شِفْنا مثل هالسيارة... بِفضح حريشها، بِتْمِلّ مثل الحيّة.

قال اسطفان ذلك بصوت متأثِّر ومؤثّر، ثم سحب ساقه المعطوبة واستدار في اتجاه الخط الذي رسمته السيارة، بينما انهمكت يداه في شدّ الحزام للـ«قمباز» البلدي المتهدّل حول جسمه.

وافقه سامعوه، على ذلك الوصف المبتكر. بل إنّ غالبيتهم، أبدت دهشة واعجابًا بجرأة القائد؛ وتضاعفت الدهشة، عندما لاحظوا سيدةً غريبة عن «الجورة»، تجلس في المقعد الخلفي من السيارة، وقد ارتدت قُبَّعة تُبرِز هويتها: أميركانية.

توقّفت السيارة، وَلم يُطفئ السائق محرّكها، وفتحت السيدة زجاج النافذة، بتمهُّل، وتوجَّهَت إلى الوجوه المشرَئبَّة نحوها تسأل:

– وين بيت السلموني، يا وْلاد؟ بْتَعرفو تْدلُّوني على بيت جبران السلموني؟

رَدَّت عليها الأصوات مجتمعة:

– طبعًا... بيتو بآخر البلد. على كتف الساحة، ما فيه غيره... بيت القرميد الأحمر.

وهنا، تدخَّلَ اسطفان، واقترح أن يصعد أحد الفتيان، ليرافق السيدة، ويدلها على البيت:

– انت، يا ولد، يا راجي... اطلع مع الست.

وهي رحَّبت بالتطوّع، وأبدتِ ارتياحها للفكرة. وسارع راجي الزْغَيَّر ليقوم بالمهمّة.

2

جبران السلموني، بيته على كتف الساحة. يُقيم مع ألماظ، أخته، في دار القرميد الوحيدة في الجورة.

عازبًا عاش جبران. كان مغتربًا في أميركا، وعاد، وظلّ عازبًا. وبالتحديد كان في «تُوليدو أوهايو»؛ يلفظها مفخّمة عندما يُسأل عن مكان الاغتراب: «أو... ها... يو»... ويحسّ سامعه بأنها تشمخ وترتفع لتقف عند أعلى قمم حرمون: «توليدو... أو... ها... يو».

قضى جبران، في الاغتراب عشرين عامًا، ورجع، ولكن، لا كما اعتاد السكان هنا، أن يشهدوا رجوع الشباب المهاجرين... يجيء واحدهم، لبضعة أيام، يختار عروسًا... في معظم الأوقات يختار الأجمل بين الصبايا، ثم يسافر.

لا... جبران رجع واستقرّ في الجورة.

لم يفهم الناس، برغم كل تخميناتهم، لم يتوصلوا إلى معرفة السرّ الكامن وراء تلك العودة الغريبة. فالرجل لم يكن فقيرًا، مثلما كان مواطنه، مسعود بو جراب، الذي غاب عن الجورة ثلاثين سنة، لم يجمع خلالها ثمن الناولون... ولولا غيرة مواطنيه لمات شريدًا وحيدًا في صقيع الغربة...

لا... جبران جمع ثروة، رفعت قَدْرَهُ بين مواطنيه، ومَكَّنَته من هدم بيت الطوب الموروث عن والديه، ليقيم مكانه فيلّا فخمة، سطحها قرميد، وحجارتها منحوتة نحتًا (ثلاثة معلمين من الضهور، اشتغلوا في بنائها سنتين). ألماظ تذكر ذلك جيدًا، ولا يمكنها أن تنسى. وأجمل ما في البيت، الشرفة الشرقية، ذات القناطر الضاحكة، المُعرَّشَة بأغراس الكرمة والياسمين.

ويومها، توقَّع سكان الجورة أن يكون بناء الدار خطوةً أولى باتجاه المستقبل، تتبعها الخطوة التالية، أي اختيار ابنة حلال تُكمّل حياته.

قالوا له وكرّروا، بأنّ الدار لا تكتمل، من دون سيدة، تُديرها وتُعنى بها. وكان جوابه غامضًا ومُختصرًا:

– لمّا بْيُهجُم النصيب...

وفي الحقيقة، أنّ وجود ألماظ، شقيقته الأصغر منه بعشرة أعوام، وهي كذلك لم يَهجُم نصيبها، أنّ وجود تلك الشقيقة، ملأ المساحة الفارغة في الشؤون المنزلية. إنّها خير من أتقن تدبير المنزل من تنظيف وغسل وكوي وطبخ. ومن دون أن يشعر، وَجدها تملأ الفراغ الانساني باستعدادها لترعى حياته الاجتماعية، وتستقبل الضيوف. وألماظ لم تكن متحمّسة لمجيء امرأة أخرى، تنافسها على سيادة البيت. وكلما سمعت أحدهم يطرح العبارة التقليدية: «يوم فرحتك يا جبران»، كانت تعقد حاجبيها وتَزُمُّ شفتيها، وتكتفي بذلك، للتعبير عن عدم رضاها عن الموضوع. لكنها، لم تُعَبِّر، يومًا، عن موقفها بصراحة.

وحتى أم هاني، المرأة اللاذعة اللسان، والتي تحشُر أنفها في كل الثقوب المنسيّة من بيوت الجورة... أم هاني نفسها لم تتمكن من أن تأخذ من ألماظ «لا حَقَّ ولا باطل»:

– يَخْتي، ألماظ كتومة... ما بيِفْلَتْ من لسانها كلمة، ولا من إيدها لقمة...

كانت أم هاني تُوازن عبارتها، وتتلذّذ بلفظها. وفي الواقع، كان ذلك تلميحًا إلى بُخْل ألماظ. وفي بعض الأحيان، تُضيف وكأنّها غير معنّية بالأمر:

– وعَتَبَتْهُم ثقيلة... كمان. أولماظ ما بتضحك للرغيف السخن.

لكنّ أم هاني تجور، في معظم الأحيان تُبالغ، وهي تُضيف إلى كلامها الملح والبهار، فيطيب على اللسان، ويحلو للأسماع.

إنّما الحقيقة تقول شيئًا آخر؛ فألماظ وجبران لم يُقيما في عزلة تامّة عن المجتمع، أو يُقفلا الباب في وجه الضيوف، بل ظلّا متواصلين مع أحداث الجورة، يُشاركان الناس في مواسم الأَفراح والأحزان. حتى إذا سمعت ألماظ من ينتقد غيابها، في بعض الأحيان، كانت تردّ مبرّرة ذلك الغياب، بسبب انهماكها في العمل المنزليّ: «البيت كبير، وأنا وحدي»...

أحيانًا كانت تُفَضِّل العزلة على «الأَخْذ والعَطَا» مع الناس، كي تُبقي أُذنها مرتاحة: «الناس مصدر كل تعب».

كانت تردّد هذه العبارة على مسمع أخيها، ثم تُكرّرها، وكأنها تغرسها في وعيه، فيسمع، ولا يُعَلّق أو يعترض، بل يكتفي بالجلوس فوق الشرفة، يطالع الصحف أو يتأمل التلال والجبال المقابلة...

3

جبران، وحدَه، من بين سكان الجورة، كان يتراسل مع الخارج، ويتسلَّم مرّة كل أسبوع حزمة أنيقة، تحمل طوابع أميركية. كانت تلك جريدة «السمير». تعوَّدَ مطالعتها في المهجر، وكان صديقًا لصاحبها الشاعر إيليا أبو ماضي. وحين رجع إلى الجورة، داوم على الاشتراك في الصحيفة، تنقل إليه أخبار المهاجرين بأسلوب لطيف، خفيف.

إضافة إلى «السمير»، كانت تصله صحيفة أميركية، لا يفكّ رموز لغتها سواه. وبفضل اطلاعه الواسع ومعرفته لما يجري في الخارج من أحداث، تعوَّد الناس أن يقصدوه حالما تَبلغهم أخبار الحروب والثورات، وذلك قبل أن يصل أول جهاز راديو إلى الجورة، ويسألوه عن الأخبار، وعن رأيه فيها. ولا يبخل هو بالجواب. وكان يدعوهم إلى الجلوس فوق المصطبة، على كراسي القش الواطئة، ويستمتع بسماع تعليقاتهم، وبصدى آرائه في آن معًا. وكانت تمرّ، في خلال تلك الجلسات، الأخبار كلّها، فتُشرَح وتُفسَّر على قدر الحال.

4

حتى في الجورة، ذلك الجَيب البعيد والمنسي، عند سفوح جبل الشيخ، كان الناس يهتمّون بمواقف الدول. بل كانوا يَنحازون إلى هذه الدولة أو تلك؛ وأحيانًا يتعصَّبون، فيقف بعضهم مع الشرق، وآخرون مع الغرب... وفي إحدى المرّات، في إبَّان الحرب العالمية الثانية، انقسم الناس فريقين: الأول يساند «هتلر» وسياسته، والثاني وقف إلى جانب «ستالين»... وكان مَرج بو يوسف أشدّهم تعصّبًا للبولشفيك. يُعيدها ويكرّر: «البُلْشِفيك، يا عمي... ما لنا غيرهم... الله يُنصرهم...».

وذات يوم، بلغَت به الحماسة ذروتها، فنظم قصيدة حامية، وراح يُلَقِّنها للأولاد، ويردّدها معهم، مُنَغَّمة، في الأزقّة، وفي كل اجتماع:

«ستالين في برلينِ شَكّ المَطْرَقَة / وجوكوف في برلينِ عَلَّقْ مَنْجلُو»

هذا القول، لم يَرُق لجماعة هتلر؛ فخرجت الحماسة من الصمت، إلى إعلان حرب، ودار قتالٌ دَام عند الحدود الشرقية، في الجورة، استُخدمت فيه الحجارة والهراوات، وحتى الفؤوس. وخرجت الأحقاد من مكامنها، تسرح كالأفاعي.

كان القتال عنيفًا سالت فيه الدماء وتكسّرتِ الأُنوف، وكادت الجورة «تحترق عن بكرة أبيها» كما تشهد أم هاني، لو لم يلطف الباري، ويتدخل «الأجاويد» وكرام القوم.

انتهتِ الحرب، لكنّ الانقسام بقي كامنًا في النفوس، تتوارثه الأجيال. وحتى بعدما انتهت الحرب الكبرى، ظلّ الانقسام بين الجبهتين: تُساند إحداهما الأميركان، بينما تقف الثانية بجانب الرُّوس. ثم راحت عناصر جديدة، تزحف على الجورة، حاملة أسماء غريبة وجَذَّابة... أسماء الأحزاب المتعددة.

5

في تلك القرية الصغيرة الهادئة، تألّفت عدّة أحزاب، أبرزها كان الشيوعي والقومي السوري، والكتائبي، ثم الاشتراكي... هذا إضافة إلى أحزاب العائلات والطوائف.

ولكلّ حزب أتباعه وله سفراء، يَفِدون من العاصمة، بيروت، يحشدون الحماسة في الصدور، ويُعَلِّمون جماعاتهم الشعارات الجديدة، ثم يوزِّعون شارات تميِّز حزبًا عن الحزب الآخر. وهكذا، ومن دون كلام، يعلن العضو موقعه وانتماءَهُ الجديد.

وجبران حافظ على حياده: «نحن لا مع فلان، ولا مع علّان»، أكَّدَت ألماظ. وهذا ما جعله مرجعًا للجميع، لا ليشرح الأخبار فحسب، بل ليُحَرِّرَ الرسائل وباللغة الإنكليزية عند اللزوم. هَمُّهم من ذلك كلّه، ما كانت تسجّله ذاكرة الرجل من عناوين لمواطنيه في المهجر، عناوين الأماكن المجهولة النائية، والتي يعجز الناس حتى عن التلفّظ بها.

تلك المدن، وحتى القرى، كانت مسجّلة بدقة، في ثنايا ذلك العقل المنظّم والمتميِّز عن الجميع... عقل جبران السلموني. وبفضله صارت ترد الرسائل، من الأبناء والبنات في المهجر، بعدما أُعلنت الهدنة وفُتح البحر، حاملةً، إلى جانب الشوق والعواطف، الشيكات والدولارات.

6

والحرب، التي راقب أهل الجورة أحداثها من بعيد، لم تُوَفِّرهم، بل لامست أعماق حياتهم، وبدّلت أحوالهم، فبارتِ الأرزاق، وتوقَّفَتِ الأشغال، وغزا الفقر البيوت، مثلما غزا الجراد الحقول، فأكل الأخضر واليابس، كما قال شاهين البيري، شيخ المعمّرين؛ ثم أضاف مؤكِّدًا، ومن سابق خبرته، بأنّ الحرب تأتي بالجراد... ومثلها النكبات، تأتي مجتمعة.

وهذا ما حصل لجورة السنديان: انقطع الشريان الذي كان يصلها بالمهجر؛ وتوقفت المساعدات، واختفى السُّكَّر، والصابون... وأصاب الناسَ الجرب، خصوصًا الأطفال، وغزا القمل رؤوسهم... وحتى ضروع الأبقار والمواشي، ضربها الشحّ، وامتنعت عن العطاء، بل إنّ معظم إناثها أمسكت عن الخليفة وبات المَحْل في الزرع وفي الضَّرْع، على قول الأمثال: «هذه نهاية العالم». وأكّد شاهين بأنّها: «أيام ياجوج وماجوج».

وكان الناس يُصغون إليه، راضخين، موافقين، من دون أن يخطر لأحدهم أن يستفهم مَن يكون ذلك الثُّنائي الرهيب «ياجوج وماجوج»، فالجميع كانوا يعرفون شاهين، ويَثِقون بكلامه، ويُدركون أنّ الرجل، يُرَجِّع صوت الحق. ويَحْدسون، بأنّ اجتماع اسمين رهيبين وغامضين، على تلك الصورة، لا بدّ وأن يقرّب الكون من النهاية.

7

وفيما كان البؤس يبني عماراته في زوايا الجورة، كانت قيمة جبران ترتفع في تقدير مواطنيه، بفضل خدماته المنقذة. لذلك، غَضُّوا النظر عن مسائل شخصية، وعن أمور خاصة تتعلق بالرجل منها، بل وأهمّها، إحجامه عن الزواج، ثم بُخْله: «ماسِك إيدو ومْكَتِّر»، تُعَلِّق أم هاني... والحقيقة أنّ الرجل تعب في جمع ماله، وليس لديه دخلٌ سوى ما يدَّخره لليوم الأسود. والرجل تَغرَّبَ

وقضى سنوات شبابه، في بلادٍ تَحسب لكل شيء حسابًا؛ لذلك، اختلف عما تعوَّده سكان الجورة، من طرق الضيافة. «فَتْح البيوت» و«البركة في الشركة»... ذلك لم يكن أسلوبه.

هم يؤمنون بأنّ الرغيف يصبح إثنين إذا أطعموا منه الجيران، وهو كان حريصًا على خصوصية رغيفه.

أَما الزواج، فقد توقَّف الناس عن إثارة موضوعه منذ أن خيَّب جبران توقُّعاتهم. انتظروا أن يتزوّج حالما ينتهي من بناء الدار؛ وها قد مرت السنون، ربع قرن مضى، وغزا الشيب رأسه، وعَتِقت الدار، وحالَت ألوان الدهان، وكبرت الأشجار التي غرسها في الحديقة، وقت البناء، فتطاولت على السور، وحتى على السطوح، ولم يحدث ما كانوا ينتظرون. بل إنّ سلوك جبران قطع الطريق على الألسن التي تغزل القصص والحكايات وتحوكها. لم يقم مرّة بزيارة عائلة، بقصد التعرّف إلى البنات فيها. ولم ترشح عن لسانه كلمة، تُبدي رأيه في المرشّحات للزواج. وتولَّت ألماظ مهمة الدفاع عنه... وهكذا انطفأت حماسة الثرثرة، فوق المصطبات والشرفات، وعاد جبران مواطنًا، عاديًّا، مقبولًا كما هو، لا كما يريدونه هم أن يكون بينهم...

ومن حسناته المأثورة والتي «تُذكر فتُشكر»، كما تقول أم هاني، تواضعه وإحجامه عن ذكر اسمه في ذيل الرسائل التي يحرّرها للناس بالإنكليزية مثلما تعوّدوا أن يقرأوا في السابق: «حرّرها عنه أو عنها فلان وهو يهديكم السلام»...

تلك الفضيلة كشفتها هانية العمار، مصادفةً، عندما عرضت عليها عمتها رسالة حرّرها جبران لصهرها في «توليدو».

8

لم تكن هانية تُلِمّ بالإنكليزية وإنّما بوسعها أن تُميّز الحروف والأسماء القريبة من اللغة التي درستها على المعلمة روز. و«الست روز»، كما كانوا ينادونها، علَّمت بنات الجورة اللغة الفرنسية، وذلك في المدرسة الرسمية للإناث.

حتى ذلك التاريخ، لم تكن بعثات المُبَشرين الأميركيين أو الفرنسيين قد وصلت إلى الجورة؛ إنّما الفرنسية كانت الجديد الذي احتلّ مكان اللغة الموسكوبية التي نشرتها البعثة الروسية، راعية مصالح الأرثوذكس في

المنطقة. وقد أنشأت البعثة مدارس ابتدائية للبنين وللبنات. وبذلك، أتاحت لأولاد الجورة أن يدرسوا لغتين: العربية والروسية.

ومضت البعثة في رعايتها أبعد من ذلك، حين راحَت تختار الطلبة المتميّزين وترسلهم، بعد المرحلة الابتدائية، إلى معهدها الشهير، في الناصرة، فلسطين، حيث يتابعون دراستهم الثانوية على أمل أن يعودوا لِيُدرِّسوا في قراهم... ولكنّ الطلَّاب المختارين من الجورة، لم يرجعوا، بسبب حرب «الأَرْبَتَّعش»، وهربًا من التجنيد الإجباري، «أيام السفر برلك، تنذكر ما تنعاد» يقول أهالي الجورة... كانت أيام ظلم أسود، يعبق في الذاكرة.

والحرب كانت السبب في إغلاق المدرسة الموسكوبية في الجورة وقام، بدلًا منها، بعض الخدمات المتواضعة في التدريس، على أيدي فتاة وفتى تفوَّقا في دراستهما الابتدائية، ولم تتوفر لهما فرصة الهجرة.

يرجع إلى هذين «المعلّمَين»، الفضل في مدّ الجسر التربوي بين زمنين؛ إلى أن افتتحت الحكومة، في فترة الانتداب الفرنسي، معهدًا للبنين وآخر للبنات، تُعطى فيهما الدروس باللغتين: العربية والفرنسية.

ومن بين الذين أقبلوا على تعلم اللغة الجديدة، هانية العمّار، وقد برعت فيها أكثر من رفاقها الذين اعتبروا دراستها إضافة غير لازمة لحياتهم اليومية.

ومع مرور الزمن، نسي الناس الموسكوب وتعليمهم. لكنّ الشيء الأكيد الذي حفظته الجورة وذاكرتها، وقد لا يزال حتى الآن محفوظًا في صدر الهيكل من كنيسة مار جريس، هو صورة القيصر وزوجته. الصورة الرسمية بالتاج و«النياشين».

9

الصورة معلّقة في صدر الهيكل، تحجبها عن عيون المُصَلّين واجهة مرصّعة بالأيقونات؛ فوق أبوابها ستائر مخمل وحرير مقصّب، مُسْدَلَة، تحجب أسرار الداخل، حيث يجوز الدخول للكاهن وخادم الهيكل ووكيل الوقف، حين يَلِمّ الصينية، ثم لسلمى النخّال.

الأرملة الفقيرة سلمى.

اختارها أبونا الياس مع وكيل الوقف، لتقوم بخدمة المكان: تنظِّف الكنيسة، وداخل الهيكل، مرّة كل أسبوع، وغالبًا، نهار السبت.

وكانت سلمى تصطحب ابنتها الوحيدة، رمزيّة لتساعدها؛ وبذلك تنال بركة الهيكل ورضى القديسين...

سلمى تؤدي عملها خاشعة، جاثية على ركبتيها، ونظرها يكاد يلامس البلاط. وهنا، لا بدّ من ذكر إيمان هذه المرأة، وهو قوي، إذ كثيرًا ما كانت، لفرط خشوعها، تُكَنِّس بلاط الكنيسة برموش عينيها. وكانت تفعل ذلك، ولا تفهم شعورًا يستولي عليها، ويشدُّها من كتفيها، لتهبط، وتجثو على الأرض، صيفًا شتاءً؛ وأحيانًا، كانت نوبة الحماسة تحملها على تمريغ وجهها، فوق البلاط المقدّس، أو قرع الأرض بجبينها إلى حدّ استنفار الدماء؛ وذلك حين يبلغ بها الإيمان أرفع ذراه...

تلك هي سلمى.

إنّما يختلف الوضع بالنسبة إلى رمزيّة، ابنتها، وهي لم تجاوز العاشرة من عمرها، وعلى جانب كبير من الفضول... لذا، كان نظر رمزية يتحكّم بها، أو يهرب منها، ويمضي يرفّ في المكان، رفيف الفراش. وهي التي اكتشفت الصورة، وأبلغت عنها صاحباتها. وفي يوم، تَجَرَّأَت فسأَلت أمها: «من يكون القديسان في تلك الصورة؟»... يومها، نهرتها سلمى بشدّة، وبالطبع، لم تَرُدَّ على أسئلتها، بل أَمرتها بأَن تتابع العمل، كما يجب، ساجدة على ركبتيها ونظرها لاصق بالأرض، وإِلَّا: «بْيُخْنْقك مار جريس»... قالت الأم ذلك مرارًا، ولكنّ رمزية لم تأبه لهذا التهديد، ولم تحمل كلام أمها على محمل الجدّ، فهي تعرفُ تلك الأم، وتحسّ برقّة قلبها، بل بضعفها حيالها هي، هي وحيدتها، وكل ما لها في الدنيا... وتعرف أَنَّ عبوس أمها، لا يلبث أن ينجلي، مثل سحابة صيف عابرة، تراقبها بطرف عينها. لذا، لم تُصَدِّق تهديدها مرّة واحدة؛ بل كانت تغافلها، وتقف منتصبة أمام أيقونة «مار جريس»، أكبر أيقونة وسط الهيكل، وحدودها ضاربة في السقف. كانت تقضي وقتًا طيّبًا أمام الأيقونة، تتأَمل القديس الفارس، وتعجب بوسامة وجهه، وأناقة خوذته التي لم تَرَ لها مثيلًا فوق رؤوس قديسين تنتشر أيقوناتهم على جدران الكنيسة. وشدّ ما كانت تعجبها وتُدهشها عباءته الحمراء! وفي بعض الأحيان، كانت تحلم أن تطير على أطرافها وتتعرّف، مثله، إلى الأميرة الجميلة المنتظرة عند حدود الموج...

تعرفه جيدًا، هذا القديس، «الخُضْر»، شفيع الكنيسة: «بُو رِمْح، على إسمو السلام»، تردّد أمها، وهي التي علّمتها كيف تسجد، وتضرع إليه، في وقت الشدّة، فيُعينها ويُنَجِّيها، مثلما أنقذ الأميرة ونجَّاها، قبل قرون...

مسؤوليات كثيرة كان الناس يطرحونها على مَنْكبي «بُو رِمْح»، فهو لهم الأب والخلاص، ولهم، في قوته واستجابته، كل الثقة والإيمان...

وظلّت الطفلة، تُصَلي، وتتضرع إليه، إنّما من خلف ظهر والدتها. وكانت تؤمن بأنّه يستجيب صلاتها، لذلك لم تكن تصدّق تهديد أمها... وفي إحدى المواجهات، كادت تقول لأمها بأنّ مار جريس صديقُها، وهو لا يَخنُق الصغار، بل يساعدهم، وحين لا يكون لهم أب، يكون هو أباهم.

نعم، كادت تقول ذلك كله لأمّها، في فورة غضب... ولكنّها فضّلت الصمت، كي تبقى لها حريتها، في التعامل مع الأيقونات والقديسين، كلّما وطأت أرض الكنيسة.

وكانت للطفلة، طاقةٌ كبرى على الملاحظة، حتى من خلال الجفون المطبقة. وقد سجَّلت ما أبصرته من خشوع الناس، وهم يقتربون من الأيقونات: «قُونِة العذرا، عليها السلام، وقُونِة المسيح، المجد لإسمو...»، وكانت تلاحظ إيمانهم، يرشح من خلال أطراف الأنامل وهي تمرّ فوق وجوه القديسين؛ وكانوا يرفعون أناملهم إلى شفاههم، يُقبّلونها خاشعين، وهم يُتَمتِمون الأدعية والابتهالات.

10

لكنّ أمر الصورة في صدر الهيكل كان مختلفًا، ومن عدّة وجوه: فهي ليست ملوَّنة مثل سائر الأيقونات، والمرأَة والرجل، فيها، مُتَوَّجان، ولا تحيط برأسيهما الهالة الذهبيَّة الوهَّاجة المحيطة بالرؤوس المقدّسة... ثم إنّ صاحبي الصورة يرتديان ثيابًا فخمة، وحقيقية، ولا تُشبه الأَوشحَة المُلتفَّة، بغموض، حول أجساد القديسين، أو المُتَهدّلة تكاد تكنس الأرض، حولهم...

حملت رمزيّة حيرتها أسابيع؛ ثم عندما لم تعد تقوى على كتمان السرّ، باحت به للرفيقات:

– شِفْت قُونِة... قُونِة عجيبة في صدر الهيكل! فيها قديس وقديسة ومتزوجين...

ولم تُخفِ الرفيقات إعجابهن بالحكاية الغريبة، أو تقديرهن المكانة المميَّزة التي تتيح لرمزية اجتياز عتبة الهيكل. لكنهنّ طلبن منها أن لا تتحدث عن ذلك للناس، لأنّه حرام... وأضافت حفيدة المختار نصيحة، لتلزم الفتاة الصمت، فلا يدري أبونا الياس بالأمر، فيطردها وأمها من خدمة الكنيسة جزاء إفشائها أسرارًا هامة... وبذلك نبّهتها إلى الواقع. وأعادتها إلى مكانتها الحقيقية.

11

لكنّ السرّ راح ينتشر، وحملته كلّ فتاة إلى أمها، ومعه الأسئلة، لمعرفة سرّ هذين القديسين المجهولين.

ومع أنّ أم هاني نهرت الفتيات، حين بلغها الخبر، وأوصتهنّ بأَن لا يَحشرن أُنوفهن الصغيرة في شؤون الكبار؛ بالأخص حين يكون الأمر متعلّقًا بالكنيسة وقديسيها... لكنها ذُهلت، مثل سواها، ولم يعد يهدأ لها بال، فقرّرت أن تكتشف هي السرّ، فقامت بجولة، لجسّ النبض، مثلما قالت، لكنّها لم تتوصّل إلى النتيجة المرجوّة... عندها، توجَّهت إلى الشمّاس، «شحادي اللقش، ما غَيرُه، درويش وابن حلال وما عليه شيء مْخبأ»، كما أكّدت لنفسها، وهي تردّ الشال فوق كتفها وتردّ الباب خلفها...

والشمَّاس أهلٌ للثقة. قصدته دَغْشَة. لن يغمض لها جفن قبل انتزاع السرّ.

رحّب بها الشمَّاس، ودَعَتها زوجته لتشارك العائلة في طعام العشاء:

– ما في شي من الواجب، يامّ هاني، تفضلي لفضلك... باركي.

واعتذرت أم هاني:

– سُفْرة دايمه... بالهنا والأفراح...

وحين أصرّوا، وكرّروا الدعوة، مدّت يدها إلى جاط الفاكهة، وتناولت خصلة عنب، وراحت تتلذّذ بمضغ حباتها، وهي تجتَرُّ مقدمة الكلام وتُعدُّ نفسها للبدء بالأسئلة:

– يا شمّاس، هالبنات العفاريت، مدري مْنَيْن جايْبين هالقصة...

تنبّه الشمّاس. وكادت اللقمة تعلق في زلعومه، فقاطعها بالسؤال:

– خَير انشالله... أيّ قصة؟

ابتسمت وهي تُحكم سيطرتها على الجو، ثم تابعت:

– قال أبونا الياس عنده صورة قديسة وقديس داخل الهيكل... وقال مزوجين كمان... معقول؟!

هنا، انفتحت عينا الشمَّاس على وسعهما؛ لكنه انتظرها حتى تتابع روايتها، ولم تُخَيِّبه... أعادت سردها للحكاية، بكل التفاصيل، ثم أَضافَت:

– أنا قلت ما في غيرك، بيعرف السرّ... لازم حَدَا يطفي هالقصة...

ابتسم شحادي وهو يهزّ رأسه، وقد أدرك سُوءَ الفهم، بدءًا بحديث الصغار، وصولًا إلى حماسة أم هاني، ثم قال مطمئنًا:

– يامْ هاني... لا تشغَلي بالك، القصة مش حرزانة، يمكن الصغار بَصْبَصوا من ورا ستار الهيكل، وشافو الصورة... لا قُونِي ولا طَلّ الخبر. هالصورة للقيصر والقيصرة، وصار لها معلقة من أيام الموسكوب... يمكن أبونا الياس ما عاد يلاحظها.

ارتاحت أم هاني، وانفرجتِ العقدة بين عينيها، لتتحوّل، تدريجيًّا، إلى ابتسامة غير قانعة، وتابعت:

– بسلامة معرفتك يا شماس، إذا كانت الصورة لغير القديسين، ليش معلقة جوّاة الهيكل؟

ولم يكن لدى الشمّاس جواب وَافٍ؛ ولم يعد مهتمًّا للبحث عن مزيد من الشرح. وبدا على أم هاني أنّها اكتفت مُوَقّتًا بما سمعت، فنهضت تُسوّي المنديل حول شعرها وتودّع شاكرة. ثم انطلقت، كالعاصفة، إلى المحطة التالية: إلى بيت الأرملة سلمى... يجب أن تُطفئ الإشاعة من أساسها... لأَن أصابع التهمة كلّها تدل على بيتها، وعلى الطفلة الشقية: رمزية.

12

– شوفي، يا سلمى، شوفي. هالبنت رَحْ تْوَرّطك بالمشاكل...

نشرت عبارتها مثل أجنحة عاصفة وهي تخطو العتبة، وقبل أن تُلقي على المرأة السلام؛ فبادرتها سلمى بمثل سؤالها:

– خير انشالله يام هاني؟ خير؟ شو عِمْلِت مقصوفة العمر؟

– شو عِمْلِت؟ عم تْنْبُش أسرار الكنيسة. إسأليها، مِشْ هِيِّي خَبّرت البنات العفاريت عن صورة الهيكل؟

– أي هيكل؟ وصورة مين من غير شرّ؟

كانت الدموع تسابق كلمات المرأة؛ وقبل أن تفهم الحكاية، راحت تنادي ابنتها بغضب:

– رمزية، يا رمزية... وينك، يا مقصوفة الرقبة؟ وين؟

13

لم تردّ رمزية. كانت تسمع الحوار ولم تردّ. هربت إلى «اليُوك»، المَخْبأ الوحيد الذي لم تكتشفه أمها، واندسّت بين الفرش والوسائد، ولم تخرج للنداء.

وأَمسكت سلمى قنديل الكاز بيدها، وراحت تهتدي بنوره، في جنبات البيت الصغير، حيث تنحشر الصناديق والأوعية، بلا ترتيب، فتزيد مساحته ضيقًا، وترفع السدود بين الخطوة وتاليتها. وحين لم تردّ عليها، ارتفع صوتها بالتهديد:

– بَدِّي كَسّرك... انتظري حتى حُطّ عيني عليك، يا خِلْفة الشؤم...

أحسَّت أم هاني، فيما هي تشهد وتسمع، بأنّها أثارت العاصفة، أكثر مما تقصد، وأرفع من المناسبة، فلجأت إلى سياسة التهدئة:

– بيكفي يا سلمى... اتْركيها... وينْ بدها تروح؟ ما صَبَحْ إلَّا فَتَحْ. المهم صار عندك خبر، لازم تعرفي؛ إنتِ أمها، ولازم تنبّهيها ما تتدخّل في قصص أكبر منها.

لكنّ سلمى كانت عند شاطئ الغضب البعيد، تفرك يديها بأسى وتردّد قولها السابق:

– مقصوفة العمر! لا بدّ ما يطلع الضَوْ، وبْفَرجيها. شايفتني على قدّ الحال... بمشي الحَيْطْ، الحَيْط، وبقول «يا رب السترة». ألف مرّة، فهّمتها، ألف مرّة قلت لها: «خلّي عينيك بالأرض، لما تفوتي عالهيكل، ما ترفعي نظرك لفوق»...

مدّت أم هاني يدها، تُسَلّم على الأرملة، مودّعة وهي تقول:

– بعدها ولد، يا سلمى، بُكْرَة بتكبر وبْتُوعَى...

قالت ذلك، ثم انسحبت، وهي تشعر براحة عظيمة، لقيامها بالواجب، وبقلقٍ، لأن الكلام يدور حَولَ صورةٍ لم تُبصرها...

14

يجلس جبران، فوق المصطبة الشرقية المواجهة قمم «حرمون». مثل عادته، كل يوم، يجلس ملكًا على هذه الرعية الممتدة من أعماق الوادي حتى أرفع الذرى. تتملّى عيناه من مناظر الطبيعة الخلّابة: تلال الصنوبر الحالمة، كروم العنب السخية، حقول الزيتون اليانعة وبساتين التين والخوخ والتفاح. وفي العلاء ينهض شيخ الجبال: حرمون.

المشهد مطبوعٌ في أعماق وجدانه. ينتقل معه حيثما نقّل خطاه. كل صباح وكل مساء، يحرص على تلك الجلسة؛ ولولا الحرارة اللاهبة، وقت الظهيرة، لظلّ فوق المصطبة، نهاره بطوله. لكنّ «شمس تمّوز تغلي المي في الكوز»، كما يقول المثل... وآب، في الجورة لَهَّاب. أما الإصباح والعشايا، فلها طعم مختلف؛ تتسرب نسماتها عبر خياشيمه، مع أنفاسه، تُبَرّد جوفه، تداعبه كأنامل حبيبة، ثم تتغلغل حتى أعماقه، في كل المسام والخلايا.

ويكاد، في بعض الأحيان، يسمعها تتحوّل إلى هدير جارف في مجاري دمه، يردفه بالحيوية والنشاط ويجدد شبابه، كل صباح، وكل مساء.

15

وها هو الآن، في عشية يوم تَمّوزيّ، غربت شمسه من فوق السهول، وبقيت ملاءة منها مفروشة على التلال الشرقية وذرى حرمون.

نَظَرُه يتنقَّل. يكرّر التأمل. يكتشف قِمَمًا جديدة. ينحدر من العلوّ الشاهق. ينحدر متّئدًا، متلذِّذًا بنكهة المناظر الخلّابة. يمضغها. لا يجرُؤ على ابتلاع ريقه، خشية أن يفقد طعمها.

يتساءَل جبران عَمَّا إذا كانت للطبيعة نكهةٌ وطعم في مكان آخر من الوجود، بعيدًا عن مدى مصطبته الشرقية، وإذا كان لها ذلك العطر وتلك الألوان.

ثم يستسلم، بكل أحاسيسه، لشعور يُقَرّبه من النعاس، ويحمله على جناح الذكريات إلى أحضان طبيعة أُخرى، لم يَقوَ على الالتحام بها، أو فهم رموزها. طبيعة بلاد الاغتراب، حيث قضى عقدين من سِني عمره.

16

انزلقت الصحيفة من بين يديه، فأيقظته. ردّته إلى مكانه وزمانه، وإلى الهدوء المخيم على الأجواء من حوله. هدوء يكاد يتجسّد فيبدو له وجه... يخترقه، من حين إلى آخر حفيف أوراق الصحيفة، وهو يقلّبها بين يديه، أو صرخات طيور الوروار وقد بكّرت في العبور، لتنقر أكواز التين في «الحاكورة» المجاورة... فقد حمل البريد، صباح ذلك اليوم، الرزمة الأسبوعية من الصحف؛ وهو جالس، منذ ساعات، يطالعها.

17

لكنّ اختراقًا آخر للهدوء المخيم حوله، استنفر وعيه وجذب انتباهه، فوضع الصحيفة فوق الطاولة، وأصاخ السمع: لم يخطئ. نعم، هدير سيارة، وهو الهدير المألوف، حين تكون السيارة صاعدة باتجاه داره.

دارُه بسطحها القرميد الأحمر، تُشرف، من فوق ربوة، على الجورة المنبسطة عند السفح. في الطريق الصاعدة إليها، كانت سيارة «بويك» زرقاء «تشبّ» مثلما وصفها اسطفان وهو يتابع سلوكها على طريقٍ كثرت فيه الحُفر والمطبّات.

أطل جبران، من فوق الشرفة، وأبصرها، فسارع إلى الداخل، ونادى أخته:

– ألماظ... الهيئة عندنا ضيوف.

قالها بلهجة لم تترك أي شك في أنّ الضيوف على جانب من الأهمية، وبالطبع، أغراب عن الجورة.

هرعت ألماظ إلى الشرفة، ورأت السيارة تتوقف أمام مدخل الحديقة، ثم أبصرت سيدة تَتَرجَّل... سيدة «أنيقة ومبرنطة» قالت في نفسها... ثم تابعت مدّ الوعي: «لازم تْكون أميركانية».

بسرعة توجّهت إلى الباب وفتحته. ثم وقفت تنتظر. وجبران، الذي تعوّد الاسترخاء بالبيجاما بعد قيلولة الغداء، هرع إلى غرفته ليرتدي ثيابًا تليق باستقبال الضيوف. ولم يكن قد انتهى، حين وصل الولد، راجي الزغيّر، يلهث ويُتَأتئ كلماته: – خا... خالتي أولماظ... البشارة إِلي. ضيفة أميركانية سألت عنكن... وأنا دلّيتها على البيت...

واستدار، يشير إلى سيدة، على بعد أمتار منه، تسير مُتَّئدة، برشاقة ملحوظة، يتبعها السائق، حاملًا حقيبة السفر في يد، وجملة أكياس في يده الثانية.

حَدَّقت ألماظ جيدًا لتتعرَّف إلى شخصية الضيفة، لكنها ارتدّت خائبة. لم يسبق لها أن رأت ذلك الوجه في الجورة، لا في أيام الطفولة، ولا في أيام الشباب. وهذا ما جعل مهمة التخمين صعبة، وجعلها تقع في الحيرة والقلق: ماذا تقول؟ ماذا تفعل؟ فتناولت أقرب التعابير التقليدية وراحت ترددها: – أهلا... أهلا وسهلا... شرفتينا.

18

هناك عبارات كثيرة يستقبل بها سكان الجورة ضيوفهم، وخصوصًا الأغراب الذين يجتازون المسافات البعيدة، والطرق العسيرة، متكبّدين الجهد، مُضَحّين بالراحة والرفاهية في مدنهم العامرة، ليقوموا بزيارة تلك البقعة النائية من الوجود، المستريحة عند أقدام «حرمون»، والعاقدة معاهدة حسن جوار مع أحراج الصنوبر والكروم المعلّقة حولها.

لكنّ الكلام لا يطاوع ألماظ، المفاجأة «سَرْبَلَتْهَا»، لذا اكتفت بالترحيب التقليدي، وأبسط كلام يُقال، حتى لا تقع في الخطأ، فماذا يمكنها أن تقول لسيدة غريبة، لم تسجِّل صورتها على شريط الذاكرة، ولا سمعت منها خبرًا يُعلِم بقدومها.

رحّبت وانتظرت.

والسيدة اقتربت منها، مرحة متهللة، تسبقها ابتسامة عريضة تُمَهِّد لها الطريق:

– أولماظ، أو غلطانة؟

ولم تنتظر جوابها، غمرتها بذراعيها، وراحت تُمطرها بالقُبَل:

– اشتقنا، يا هني... اشتقنا...

ثم تراجعت قليلًا، وظلت تتفرّس في وجهها وكأنها تعطيها الفرصة، لاسترجاع ذاكرة مفقودة:

– بعدك ما عرفتيني، يا هني... أنا نَزهَة. مَرْة عبدالله بو مرعي... مَرة ابن خالك، يا هني... بس أنا عرفتك عالليحَة... وبالطبع، من الصوَر...

– يا مية ألف أهلا وسهلا بهالطلة، يا ست نزهة... تفضلي... تفضلي.

قالتها ألماظ، وكررت. وقد عقدت المفاجأة لسانها، وأوقفتها عند حدود تلك العبارة.

نزهة، بالطبع، تلك جرأتها، وأناقتها. سمعت عنها كثيرًا. لكنّ الوجه ليس مطبوعًا فوق صفحة الذاكرة، فنزهة ليست من أهالي الجورة، ولا داست أرضها من قبل.

فتحت ألماظ الباب على مصراعيه زيادة في الترحيب، ودخلت الضيفة، يتبعها السائق حاملًا الحقيبة، وأكياسًا منتفخة بما حَوَت، وَضَعَ حمله في صحن الدار ثم استدار كي يعود من حيث أتى، فاعترضته ألماظ اليقظة دائمًا للقيام بالواجبات: – تفضّل ارتاح، حتى تشرب فنجان قهوة، حُلْوَيْنة الضيوف، على الأقل.

سارت الضيفة باتجاه المرآة التي تتصدر القاعة ووقفت أمامها لحظات، تتفقد زينتها وتعيد ترتيب شعرها، بعدما خلعت عنه القبّعة، ثم جلست على الكرسيّ القريب، بينما هرولت ألماظ إلى غرفة أخيها تزفّه الخبر: – نزهة، يا جبران... هيدي نزهة...

وفي الوقت نفسه كانت تفكّر في أن نزهة فاجأتها: صحيح أنّ الجورة بعيدة عن خطوط الهاتف، لكنّ فيها مركزًا للبريد و«البوسطة بتوصل مرة كل أسبوع... ليش ما كتبت؟!».

أعادت السؤال على أخيها، بصورة أخرى، مع علامة استغراب:

– غريبة زيارة نزهة... لا علم ولا خبر...

وفي الحقيقة أنّ حيرة ألماظ تجاوزت الرسالة والعلم والخبر، إلى السبب:

– ما الذي يحمل نزهة على تلك العودة المفاجئة؟

19

تعرف أنّ عبدالله توفي قبل عام. أقاموا له جنَّازًا غيابيًا. لم يحضره أحد من أقارب نزهة؛ وكانت ألماظ مع أخيها كل العائلة، إذ ليس لعبدالله أقارب في الجورة سواهما.

وأقاموا له جنَّازًا، والناس شاركوهم «مؤاجَرَةً».

أهل الجورة يؤاجرون في العزاء. والكلمة مرتبطة بالحزن، بل صار معناها الوداع الأخير... «الأَجر»، في مناسبته، ترتفع أصوات النادبين، يطوفون الساحات والطرق، يُردّدون الندب؛ بينما تقيم النساء في قاعة، يتوسطها النعش المسجّى أو صورة مُكبّرة إذا كان الراحل في المهجر. ويشارك شعراء الزجل في «القول»، ويسمونهم «قوّالة»، ويردّد الجمهور من بعدهم، وتُردّد الأودية والأحراج، أصداء الندب والنواح، متشابكة مع دقات حزينة يرسلها جرس الكنيسة، وتحفر في الأسماع، تخترقها حتى أعماق القلب والوجدان.

وفي جنَّاز عبدالله، لم ترتفع أصوات الندب، ولا ناحت النساء. توفي في الغربة وعن عمر يناهز الثمانين.

«الله يرحمه، ورّثها الملايين...»، قالت ألماظ لنفسها، ثم ردّدتها على مسمع أخيها ملحقة بملاحظة تقليدية:

– ربنا، سبحانه وتعالى، ما بيكملها مع مخلوق. لَو، بس لَو، عنده شي نصنوص ولد، حتى يورث من بعده... يا حسرة!...

وها هي الوارثة السعيدة في دارهم، وعليها أن تقوم بالواجب.

20

اندفعت بحركة غريزية صوب المطبخ، وراحت تفتح الخزائن والنمليات... الوقت مساء والضيفة باقية عندهم، بالتأكيد، بعدما صرفت العربة وسائقها. وعليها أن تسرع بإعداد العشاء.

«ضيف المسا ما له عشا»، قولٌ مأثور في الجورة يردّدونه بين الجدّ والدعابة. ولكنّ التقاليد، وواجبات الضيافة تقول العكس، الضيف عزيز و«يا ضَيْفَنَا لو زُرتنا لوجَدْتَنا، نحن الضيوفُ وأنت ربُّ المنزل»... بعض الأقوال محفور عميقًا في الذاكرة، كما في الفعل... أَقوال لا تقبل التعديل أو التأويل؛ وأحيانًا، تظل بفصاحتها، وإن طوّعتها الألسن في بعض الحالات، لتناسب مجرى الكلام السائد بين الناس: «يَا ضَيْفَنَا لَوْ زُرْتَنَا»...

كل بيت في الجورة، مضافة. ليس في الجورة فندق أو خان. وحالما يصلها الضيف تنفتح له الأبواب والقلوب، ويتناوب الناس استضافته. فهو لا يخصّ أهله وأقاربه وحدهم، بل هو ضيف المكان وكل الناس فيه.

وهذه الضيفة تختلف. إنها قادمة من خلف البحار السبعة، لتزور أقارب زوجها عبدالله.

– الله يرحمك يا عبدالله...

قالتها ألماظ لنفسها، وكررت القول مرارًا. ولم يكن هناك ما يربط الكلمات بالحركة؛ خصوصًا حركة يديها، تتفقدان المؤونة، وحركة فكرها المُستَنْفَر لإعداد عشاء يليق بالست نزهة...

وظلّ سمعها مشدودًا إلى غرفة الضيوف. لن ترتاح حتى يخرج جبران، ويأخذ عنها مَهَمَّة الحفاوة بالضيفة حتى يتسنّى لها هي أن تُركّز على عملها... ولم يلبث قلقها أن تلاشى، حين سمعت أصوات السلام والترحيب من خلال الباب المفتوح.

21

ألف سنة ضوئية تفصل بين جلسة جبران، فوق المصطبة الشرقية، قبل دقائق، وبين جلسته الحاضرة، في مواجهة نزهة، في ردهة الاستقبال...

عقَدت المفاجأة لسانه، وجمّدت فكره، فهربت منه الكلمات، وراحت الأفكار تتصارع، وتتزاحم، وهو لا يدري كيف يسلسلها. وفي حين كان في أمَسّ الحاجة إلى سرعة خاطره وتألّق دماغه، عاوده ذلك الشعور المُرْبِك والذي حسب أنّه مدفون في رماد الأيام الماضية.

مضت الدقائق الأولى، بعد السلام التقليدي بصمت. كان يحس أنّ الابتسامة التي أرسلها إشارة ترحيب، تجمّدت فوق قسمات وجهه، كأنها قناع من الجبس، فسارع إلى البحث عن كلمات تتناسب مع الوضع الحاضر، وتنقذه مما هو فيه من حيرة، وهو لا يصدّق أَنَّها هنا... نزهة هنا، وتزوره؟!

22

وتخترق هي، بغريزتها الثاقبة، المسافات المنتشرة بينهما، فتحاول أن تمسح ذهوله وارتباكه بابتسامة هادئة، طالما سحرته في زمن مضى، وطالما شغلته عن حاله وأعماله. عاد يسمعها تتكلم بغنج يمحو ربع قرن من أزمنة الفراق بينهما: – بدّك الحقيقة؟ أنا مش مصدقة يا غابي. صحيح الأحلام بتتحقق بهالشكل؟

ثم جنحت إلى نبرة أرقّ كانت لها في الماضي:

– لا تؤاخذني، يا غابي... فاجأتك. حاولت أكتب، وأخبرك، لكن كل مرة كنت خزّق الرسالة. ما بعرف شو بدي قول. من سنة وأنا أستعدّ لهذه الزيارة... لكنّ المسؤوليات أَخرّتني. عبدالله راح، وترك الحمل عليّ...

ورفعت يدها بالمنديل، تمسح دموعًا لم يستطع رؤيتها.

ظلّ صامتًا، وكلامها ينهمر عليه، مثل زخّات مطر مفاجئ، والأفكار تتماوج في وعيه واللاوعي. الموجة الأولى تروي الدهشة، والثانية ترفع علامات التعجّب، وتلوّح الثالثة بأعلام التنبيه: «أوه! أوه! انتبه يا صبي، ولا تنسَ الماضي. نزهة رجعت مليونيرة. رجعت بكل العدّة والعتاد. انتبه.».

لن يدعها تقترب أكثر مما يشاء لها. لن يُفسح في المجال، كي يطغى سحرها عليه من جديد؛ ففي تضاريس القلب بقايا ندوب. وهو تعوَّد حياته الحاضرة، يرتديها حوله، بكل التلافيف وتراكُم السنين. تعوَّد وحدته اللذيذة، ولن يسمح لها بأن تفتح ثغرة في جدار المَحَارة.

مثل قدح البرق تشظَّت حقيقتها أمامه. وأبصر الأقنعة المتراكمة فوق وجهها، تتشقق أمام عينيه، ثم تتساقط، القناع تلو الآخر... لم يرفع إصبعًا كي يلمّ الأقنعة، بل تركها تتكدّس كومةً رثّةً تحت قدميه... ففي تضاريس قلبه بقايا نُدوب.

عاد يُبصر عينيها تحاولان اختراق المسافة الشاسعة بينهما. لم تتغير كثيرًا. لا تزال لنظراتها تلك الحدّة والسطوة؛ ولا يزال في عينيها اللوزيتين ذلك البرق السحري، الغامض والفتّان. ولا تزال في خلايا ذاكرته، وثناياها أصداء تترجّع منذ ربع قرن.

23

يد خفية، تمتدّ فتعبر المكان والزمان. تعبر مثل لمح البصر، وتُفَتِّق الأغشية. وهو يتبعها من محطة إلى محطة: «آه من محطات الزمان الخالي»...

أعادته إليها حركة يدها، تسعى بعصبية إلى الحقيبة، فتحتها وأخرجت علبة السجائر الذهبية: «نزهة لا تُبَدّل عاداتها»... فكّر، وهو ينهض بصورة آلية، فيتناول الولاعة عن طاولة صغيرة بقربه، ثم ينحني أمامها ليُشعل السيجارة، مثلما كان يفعل دائمًا، أيام زمان... أيام كان في توليدو... أوهايو.

24

وها هي الآن أمامك، قادمة كي تسترجعك، مثلما وَعدَت تمامًا. هي لا تخلف بوعد ولا تنسى خطة رسمتها، مهما مرّ عليها الوقت: «إلزم الحذر، يا صبي، وأبقِ أقنية وعيك مفتوحة على كل الاحتمالات...، تقول لك: عبدالله رحل، وترك الحمل عليها»...

صحيح، حِملك ثقيل يا نزهة، أكثر من مليون دولار نقدي، وأملاك وبنايات. لا ولد ولا تلد... الحمل ثقيل، معك حق، وعبدالله عاش ومات مثل الكلب...

25

كان هو صاحب المخزن. جبران السلموني بدأ العمل، مثل سواه من المهاجرين والهاربين من الحرب العالمية الأولى. حمل «الكشّة» فوق ظهره، وطاف بها بين القرى والمزارع النائية. ولمّا جمع بعض المال، فتح دكّانًا على قدّ حاله. وصار صاحب «سْتار» يعني صاحب مخزن قابل للتوسع.

استدان من المصرف، وكبّر الشغل، وكان اسمه دائمًا رأسماله الأول. أمانة واستقامة ونسبة عالية من الذكاء والنشاط. لكنّه، حتى الآن، لا يفهم ما الذي حدث، وتسبّب في تأخر عمله... استفاق ذات يوم ليكتشف أنّ الخسارة تطغى على الأرباح، وأنّه، إذا لم يتخلص من المخزن، فهو سائر إلى الانهيار التام...

في تلك المرحلة، تدخّل ابن خاله، عبدالله، في حياته: «إنت مش غريب عَنّا، يا خال. نحن إخوة، ولازم نتعاون على الدهر»... وكان عبدالله سابقًا له، في عمره، وفي تاريخ اغترابه. فارق عشرين سنة يفصل بينهما.

انتشله من ضائقته المالية، لا عن طريق القَرْض، والتعاون، بل الشراء. اشترى المخزن واستبقاه فيه، مديرًا لشؤون الموظفين: «إنت قريبي وأكثر انسان بأمّن له».

وهكذا تسلّم عمله الجديد، موظفًا يقبض مرتبًا شهريًا يكفي عَوَزه. لا يذكر أنّ عبدالله أجرى تعديلات على المخزن، فكيف انقلبت الصفحة من أسود إلى أبيض؟ وما هو سرّ الرجل؟! كأنما يد ساحر امتدت وراحت تضاعف الأرباح. ولم يَدرِ كيف يُعَلل ذلك، بل عاد يتذكر أقوال الناس في الجورة، وتأكيدهم أنّ «الدنيا وجوه وعتاب»، فكان عليه أن يتقبل قول المثل، شرحًا وحيدًا للحال، حين أبصر المخزن يتحَوّل وينمو، فيصبح من أهم المخازن في المدينة.

وهو لا يُنكر تقدير عبدالله واحترامه له: «انت متعلم وفهمان يا خال. شوف اللي يناسب واعمله»، كان يقول له.

وشاف وعمل بإخلاص تُمليه أخلاقه السوية. وحين سافر عبدالله إلى «البلاد» طرح المسؤولية على عاتقه، وسلّمه كل شيء: «هيك بروح، وإيدي بِمَيّ باردة يا خال»...

قال عبدالله، وهو يودعه، ثم أضاف: «هالمرّة دَوْري. ولما برجع، بتسافر أنت. صار لازم لك مرا يا خال».

كان في الثلاثين من عمره، لا يبالي بالزواج، همه أن يجمع من المال ما يسمح له بفتح مخزن خاص به، مهما كان صغيرًا؛ كي ينفض شعور العجز الذي أصابه بعد انهيار عمله... لكنّ ذلك لم يحدث. وبقي على مُرَتّبه الشهري، وراحة البال.

كان خطّ سيره مستقيمًا، «لا طلعة ولا نزلة»، وظل باله مرتاحًا حتى عاد عبدالله. وعاد، متأبّطا ذراع نزهة، عروسه المختارة. حلوة، ومتعلمه، وأَصغر من عبدالله بخمس وعشرين سنة... كانت تلك صورتها الأولى في عينيه. وإن تعجب من فارق السن بين العروسين، فإنّه لم يُلَمِّح بكلمة لعبدالله، هو حُرّ في حياته واختياره. حتى القصة التي سمعها جبران من أبناء الجورة في توليدو، قصة زواج عبدالله ثم طلاقه قبل مرور شهر على تاريخ الزواج، حتى تلك القصة لم يسأله عنها، وعبدالله لم يفتح له سيرة، فظلت خبرًا غامضًا ومتواريًا في تجاويف الذاكرة...

جرى ذلك في الجورة. وجبران بعيد، في بلاد لا تحفل «بالقيل والقال»، في البلاد البعيدة، حيث همّ الناس، يتركز على العمل.

26

لكنّ جبران لاحظ، ومنذ الأيام الأولى لعودة العروسين، أنّ نزهة تختلف عن سواها من صبايا، حلوات إنّما في معظم الحالات ساذجات، سبقنها إلى المهجر، إمّا برفقة عريس، أو برفقة صورة حملها والد العريس، حين رجع يتفقد أهله في «الأولد كونتري»، يعني البلاد القديمة، وهو الاسم الذي يعرفون به أصلهم وجذورهم: «أولد كونتري»...

لم يكن الجمال أهم صفات نزهة؛ فهي صاحبة شخصية وحضور، ولا تحاول أن تخفي طموحًا يتفجّر في حديثها، ويقفز من خلال عينيها. نظراتها تلتهم كل ما ومَن حولها. وكأنما الكائنات سلالم تتسلقها تلك النظرات، بَحثًا عن عوالم خفيَّة، لا تزال مجهولة، وهي تتوق إلى معرفتها.

لم تُظهِر حزنًا لفراق الأَهل، ولا حنينًا إلى الوطن، وهو الشعور الذي تعاني منه المهاجرات، خصوصًا في الأشهر الأولى من الاغتراب. كان لديها من الثقة بالنفس والسلوك ما يضع الآخرين في حالة من التساؤل عَمَّا إذا كانت تلك طبيعتها، أم أنها تُكابر.

منذ وصولها بحثت عن معهد ليلي التحقت به، ودرست لغة البلاد (الإنكليزية) وبعض مبادئ التجارة والأعمال. ثم راحت تتدرب على العمل في المخزن على يدَي جبران، وذلك قبل أن تنضمّ إلى الموظفين، بائعة في أدنى درجات السلم. ثم راحت ترتقي وتصعد. لم يُخْفِ عبدالله رضاه وإعجابه، بل كان يفاخر بها: «نزهة خلقت معلمة يا خال»... يردد قوله هذا على سمع جبران، كل يوم، برضى واقتناع، بينما يتفقد معه أجنحة المخزن، ثم يُجَرْجر قدميه، وتَرَهّل بَدَنه، ويعود إلى مكتبه، حيث يغرق في الجداول والتقارير.

لم يفت جبران أن يلاحظ التحوُّل الذي بدا في سلوك عبدالله، في شخصيته وعلاقته بالمرأة، بعد زواجه بنزهة... كان يعرفه شديد المحافظة، بل متعصبًا وتقليديًّا. لذلك، كان يتوقع منه أن يفعل مثل سواه من المغتربين: يسجن زوجته في قفصها الذهبي ويُغلق دونها الأبواب والنوافذ.

لكن هذه المرأة تختلف عن سواها. إنّها قادرة وقوية. مثلها تُعين زوجها على دهره... هكذا فكّر في تلك الأيام الأولى. وهكذا تصوّرها وكرّر القول على مسمع عبدالله: «امرأة فاضلة من يجدها، فإِن ثمنها يفوق اللآلئ» وكان يشعر بإخلاص، بأنّ القول ثوب مفصل على قدر قوامها الرشيق.

كم كان ساذجًا وغبيًّا، في ذلك الزمان!

في البدء، انحصر تعامله معها في نطاق العمل. ثم راحت تخطو باتجاهه تدريجيًّا وتحفر نَفَقًا لبلوغ كيانه الداخلي. لم يشعر كيف، ومتى؟ ولم يتوقف ليسأل نفسه: لماذا؟ بدأ اهتمامه بها إشارةً ذهنية عابرة. لمحةً خاطفة كالبرق.

ثم صار وجودها ضرورةً ملِحَّة، يحسّ بالنقص حين تغيب، وبالرضى والاكتفاء حين تحضر.

غريب هو الشعور الذي استولى عليه، وصار يوقظه من نومه، يتشبث به في أثناء العمل، فيرميه في أحلام اليقظة؛ حتى إذا عاد إلى نفسه، صدمه فراغ رهيب، يحيط به من كل صوب. ومع كل عودة إلى الذات الواعية، كان يُؤنب نفسه ويدفعها إلى طلب الصفح والغفران، فرزقُ الآخرين حرام... ولكنّ «العشب يبدو أشد خضرة في بساتين الجيران»، مثلٌ سمعه على لسان إحدى الموظفات. لم يُدرك معناه في حينه. أما الآن فهو يعيش ذلك المثل، وعيناه تغزوان بستان الجيران، بل بستان قريبه وابن خاله عبدالله...

لن يسمح لعينه بأن تُسقطه من مقامه أو تُوقعه في الخطيئة. يُفضّل أن يقتلع عينه تلك، إذا هي انحدرت به، وأفقدته شهامته الجبلية وأصالته.

27

لكنّ سطوة نزهة تقترب منه. ويلامسه سحرها، فيشعر بدفء يغمره. يُطَوّقه جسدًا وفكرًا ويُفقده القدرة على التحكم بعواطفه... تقصده لطلب حاجة، لجواب عن سؤال عصيَ عليها. هكذا دائمًا حجّتها، وذلك هو عذرها الظاهر.

«نعم. حجة. لا تُكذّب حدسك. إنّها تحاول التقرب منك، عن طريق العمل، وتبقى في مأمن خلف جدار الظنون فاحذر الانزلاق في الخطر»...

كان ينبّهُهُ عقله الواعي، والحامل دفتر المحاسبة، فيدقّ قلبه. ويسمع هو إيقاع تلك الدقات. وكل ضربة تنفي ما سبق أن فرضه عقله الواعي.

عاش أشهرًا، بل سنوات، وهو يتقلب على نار القلق. أفكار تأخذه، وأُخرى تردُّه، والعواطف أنهر فيّاضة يُسمع هديرها في مجاري دمه: «أنا ورقة في مهبّ رياحها»، قال لنفسه، وهو يحسّ بها تنزلق نهائيًا، ويَفقد السيطرة على إرادته ومشاعره.

في تلك الفترة، عاد يكتب شعره الزجلي. وكان قد انصرف عنه لسنوات. وعاد يغرق عاطفته في بحار الكلام. لكنّ الكلمات نفسها تآمرت عليه، وانتصبت تماثيلَ ساجدة في محرابها، ولم تعد قادرة على أن تخلّصه من ضعفه، ومن تلك الرعشة التي تنتابه كلما اقترب وهجها من كيانه. وفي يوم

ضبطته في تلك الحالة، من الضعف والاستسلام. اقتربت من مكتبه، بعدما انصرف آخر موظف، وعبدالله خرج للقاء عَمَل. اقتربت منه، وفي يدها سيجارة: – معك وَلْعَة يا غابي؟

كانت تلك أول مرة تناديه بذلك الاسم، الذي اختاره معارفه الأميركيون على سبيل الاختصار!... وقد خرج من بين شفتيها مختلفًا، فانتفض واقفًا، كمن مسّه سلكٌ مكهرَب. حاول أن يمسح ارتباكه بابتسامة، وحَوّل عنها نظره، ثم راح يبحث في أدراج مكتبه عن ولّاعة.

لم يكن التدخين من بين عاداته. لذا لم يجد سببًا لاقتناء ولّاعة. تَلَفَّتَ حوله فأبصر علبة كبريت فوق رف بقربه، سحبها وأخرج منها عودًا، أشعله واقترب منها.

كانت يده ترتعش مثل ورقة خريف تُواجه العاصفة. سمع طنينًا في أذنيه... انهيارَ جدران... هبوب رياح عتيّة وهدير أنهار... حدثَ ذلك كله في لحظة عابرة، تَحَوَّلَت إلى مساحة زمنية سجّلها وعيه، بأَدقّ تفاصيلها: – ما لك يا غابي؟ تَسأَله...

لم يُخف ارتباكه عليها. نظراتها تتشبث بكيانه ولا تحيد عنه، وهو أسير النجم الساقط من شاهق فضائه.

ليست من الغباء، بحيث تترك الفرصة تضيع منها. ضَبَطَته في تلك الحالة من الضعف البشري، مجرَّدًا من كل الأسلحة للدفاع والمقاومة. وتابعت الاستفسار:

– إيدك عم ترجف...

ضَحك صوتها، ثم انخفض إلى مستوى الهمس:

– بَرْدان؟ بَرْدان يا غابي؟!

تأتأ كلمات غير مفهومة، محاولًا الهرب بها من عينيها. إنّه لن يغفر لنفسه لو سقط في الخطيئة... وقال، محاولًا تمويه الحقيقة:

– يمكن برد. صار لي ساعات قاعد خلف المكتب. الجسم، إذا ما تحرك، يبرد.

خرجت الكلمات وحدها، منفصلة عن وعيه. وظلّت عيناها خيمة تلفّه ولا تترك له منفذًا للهرب.

عيناها، بأعماقهما الليلية، وابتسامتهما الغامضة، تتشبثان بعينيه، وقد امتزجت فيهما الشهوة الوحشية بالسخرية والعبث.

من أين لها ذلك السحر كله؟ وكيف، كيف تسنّى لها أن تتقن تلك الفنون، ابنة القرية الساذجة؟!

سَمِعَ صوت أمه يهتف من أعماق وعيه: «حوّا، يا ابني... من بطن أمها بتتعلم المكر والدهاء...».

في تلك الحالة من الضياع تركته، وانسحبت، هو يتابعها بنظره وهي متجهة صوب الباب الخارجي.

28

فيما مضى، وقبل تلك الليلة، كان ينتظر فرصة الهدوء المسائي، حين يخرج جميع الموظفين، كي ينصرف إلى التركيز على أوراقه ويُراجع حسابات النهار. كان يعمل قرابة ساعتين بهدوء. وحين يغادر المكتب، يرافقه شعور الرضى المتسرّب من قمة الطاقة العقلية المنظّمة: أنهى واجبات يوم آخر، وبات مستحقًّا راحة ليله.

وظلَّ العمل، بالنسبة إليه، المهرب والخَلاص. يهرب إليه من وحدته، من وحشة بيته، من الظلام المخيّم على عمره...

ولكن هذه الليلة بَدَّلَت كل شيء... كل شيء تقريبًا... وفتحت عينيه ليبصر خَوَاء عمره.

سرت قشعريرة باردة في مسارب دمه. فجأة، أحس أنّ المكتب يتحول إلى مساحة باردة، بل موحشة... لقد سحبت، بخروجها، آخر ذرّات الدفء والطمأنينة.

جَلَسَ دقائق، يتأمل المسافة الفارغة، بين مكتبه والباب الخارجي، ثم طوى ملف أوراقه، ونهض مدفوعًا بقوة خفيَّة تحثه على اللحاق بها. ارتدى معطفه، وأَطفأَ النور وخرج.

رغبة جامحة تدعوه إلى اقتفاء أثرها. وينتصب فكره الواعي معترضًا: ذلك لن يحدث. الفعل غير الفكر. وأحلام اليقظة غير الواقع. في استطاعته أن يتصرّف على هواه، في عالم أحلامه وخياله، يصوّرها مثلما يريد، ويكتب فيها شعرًا...

وهذا ما داوم عليه، كلما اصطدم بجدار الحقيقة.

أبصر نفسه على باب منزله. لا يذكر كيف وصل. صحيح أنّ المسافة بين بيته والعمل ليست بعيدة، ولكنه، في تلك الليلة بالذات، لم يَرَ كيف اجتازها. لم يلاحظ الطريق، ولا الأضواء المنثورة على جانبيه، ولا انتبه للعربات القليلة، المتخلّفة مثله، في عودة المساء. وحتى تلك الرياح الباردة، رياح تشرين الثاني، حاملة وعود الشتاء وبعض تهديده، لم يأبَه لها. كان خط من نور ونار، يشده من أنفه. يدفعه من كل الجهات... يسير به... أحيانًا يطير... يحمله فوق أجنحة غير مرئية، ويبتعد.

سمع صرير المفتاح، فجمدت أصابعه على مقبض الباب: بعد قليل، تنفصلُ الدفّة عن الدفّة، وتنفتح الثغرة لتبتلعه، تُدخله إلى بيته، قبره، حيث يموت كل مساء، ثم يُبعث في الصباح، ليستأنف نشاطه، ويُضيف إلى تراكمات عمره، يومًا جديدًا.

أغلق الباب، وأنار المصباح بقرب سريره، ثم جلس على أول مقعد استقبله، فاقدًا قدرته على التفكير أو الحركة، وغارقًا في ظلام التساؤل:

«ماذا فعلَت به تلك المرأة؟ كيف غيّرت حاله في لحظات؟ كيف مدَّت يدها ودحرجت الحجر عن باب المغارة، لتُريَهُ السحر المُحَرّم في الداخل؟... وكيف؟ كيف تركته وانسلَّت من دون أن تلتفت خلفها، لترى ما فعلته نظراتها؟؟!»

مدّ يده إلى درج مكتب بقربه، سحب منه دفتره العتيق، وراح يُقَلّب صفحاته ويقرأ. أحس الكلمات فارغة. والحروف تقف شاحبة، فاقدة جذوة الحيوية والحنان. وهي كلمات تخصّ أزمنةً مضت، ولا يربطها بحاضره أيّ رابط.

تناول القلم، وراح يصبّ نيران حرقته في قصيدته الأولى إليها... وعندما فرغ من الكتابة، أحسّ بالراحة تغمر كيانه فقد سيطر على الوضع، وبات قادرًا على احتوائها في كلماته.

29

كان الشعر الزجليّ مهربه منذ سنوات يفاعه. يهرب إلى الشعر (المعنّى والقرّادي والفراقيات)، يهرب إليه من جَوْر الوحدة. بواسطة تلك الكلمات، التي تجيئه عفو الخاطر، استطاع أن يتجاوز الكثير من مشاكل مراهقته، وبها

بنى القصور، ومدّ جسور الخلاص. وهو لم يكن الشاعر الوحيد في الجورة. رفاقه، كانوا يتذوّقون الشعر. يحفظونه مقفّى، مسجعًا. النساء والرجال، يردّدون القصائد والأمثال، في خطابهم البسيط. وبينهم «القوّالون» الذين يزهون بمواهبهم، ويستعرضونها في مناسبات الفرح والحزن.

مذ كان فتى، في الرابعة عشرة من عمره، بدأ الرفاق يتحلّقون حوله، في الساحات، وفوق مِصْطبات الصيف: «رَدة جديدة يا جبران».

ولم يكن يبخل عليهم. وأول ما كتب كان في الحب والغرام، وكان حبّه خياليًّا، يحضره كالطيف، ويعجز عن تجسيده في امرأة واحدة. وكان حبُّه آنذاك، مستوحى من عبور الصبايا، بنات الجورة الجميلات، في طريق غدوهنّ أو رواحِهنَّ إلى الحقول؛ فيكتفي بالتلميح والإشارة، ويشعر بأن قصائده تلك تشبه فقاقيع هواء ملونة. مثل «بالونات» العيد، يطلقها، ثم يفقأها...

وبعدما هاجر، قويت عليه ملكة الشعر، فكتب قصائد في الغربة، الوحشة، الشوق والحنين... وبقي عطاؤه غزيرًا، خلال السنوات الأولى، خصوصًا حين كان يتجول بين القرى والمزارع في الأرض الغريبة، فوق ظهره «الكشّة» وفي جيبه دفتر الشعر... والمغتربون يظنونه دفتر الحسابات.

ثم راحت جذوة حماسته تخمد وتخبو. وزاد في ذبول العاطفة امتلاءُ فكره ودقائق حياته بالأرقام والحسابات... ثم لم يلبث أن انساق مع الرتابة، وراح يتبع الخط المسطح، يوقظه صباحًا، يسير به إلى العمل، يسلِّمه إلى نهاره الجديد، ثم يعيده مساءً إلى سريره، وإلى الارتماء في موت آخر.

وها إنّ حماسته الشعرية تستيقظ من جديد، فيمسك القلم ويكتب.

لمح وجهها الأسمر، بين الكلمات، يشعّ بكل ملامحه الذكية العذبة، فينعشها... وأبصر عينيها ترفان على أطراف القلم، تسكبان فيه نُسْغا حيًّا، يسري في مسارب الحروف.

أهداب عينيها تتشبث به، تتحول إلى أسلاك مغناطيسية، تجذبه... ويعرف أن ما يشدّه إليها هو حضور دنياه القديمة، أرضه وأمه، من خلال حضورها... إنّ لها قدرة هائلة على التفجّر في كيانه، وإخضاعه لسطوتها... وهو، حيالها، عبدٌ مطيع: قلمه يجري ويحاول اللحاق به حتى السطر الأخير.

كان الوقت قد جاوز منتصف الليل، حين أفاق من شروده، فراح يلملم الأوراق، يضمها الواحدة إلى الأخرى، وقد غمره شعورٌ بالرضى والراحة.

فتح الدرج. دفن الأوراق في قاعه، ثم أقفله بالمفتاح...

في تلك الليلة، عرف طريقه إليها. وعرف السَّبيل إلى احتوائها في شغاف القلب، ووهج الكلمات...

30

لم يَنَمِ الناس في الجورة تلك الليلة. بقعة الزيت تفشَّت في المسامّ الخفيّة، وراحت تغلغل حتى الأعماق. انشطار الذرّة، يتضاعف، يتنامى ثم يخيّم الدخان فوق البيوت، وهي تستعد لاستقبال المساء: – أميركانية عند بيت السلموني.

حمل الأولاد الخبر إلى بيوتهم. وتناولته الألسن، ثم راحت تنقله بسرعة برقيّة. والخبر ينتشر في أكثر من صيغة كلما تلقّفه لسان:

– ضيفة غريبة... وبيقولوا أميركانية، وصلت عند بيت السلموني.

31

أصغت أم هاني بكل حواسها، ثم أجرت حسابًا سريعًا، لعلّها تتذكر، ومن خلال ما ورد على الجورة من رسائل، تلميحًا إلى الحدث المفاجئ... ولكن، عبثًا حاولت... لم يكن هناك خبر واحد يطابق وصول السيدة الغامضة.

– وبيقولوا هيأتها غنية. نعم وصلت بسيارة «بويك»، لابسة على آخر موضة، ومْدَنْدَشة بالصيغة. راجي ركب معها ودلّها عالبيت... اسألي راجي.

كان هذا الجواب إضافة من اسطفان، حين سألته أم هاني عن الموضوع... وكانت قد فكرت فيه، وهي تضرب حسابها وتتساءل: «من ينبئ عن السيدة؟».

«مين غير اسطفان وعصابته ناطرين على الطرقات؟»، تمتمت ذلك وهي تلفّ المنديل «بو أويا» حول رأسها وتضع قدمها خارج العتبة، في بداية مشوار، حاولت أن تجعله عفويًّا قدر الامكان... «بدّك تعرف اسرارهم اسأل صغارهم»، فكرة تالية، لم تُفصح عنها بكلمات. وكانت قد تسلّمت طرف الخيط، من خلال جواب اسطفان، ثم تابعت سيرها... وحين أبصرت راجي يجري باتجاهها بسرعة البرق، أطلقت سؤالها مثل رصاصة: – ولكْ، يا راجي، وين نزلت الضيفة؟

– عند بيت السلموني.

ردّ عليها ولم يخفّف من سرعة الجري... كان قاصدًا رئيسه، كي يُعلمه بتنفيذ المهمّة.

32

واسطفان عضو، في «شلة الساحة». والاسم أطلقه الناس على مجموعة من الفتيان في مطلع سني المراهقة، يقضون وقتهم في مراقبة الطرق والعابرين، حتى إذا جاء زائر من خارج الجورة، أثار فيهم الحماسة، ودفعهم إلى حركة غير عادية.

وكان اسطفان أكبرهم سنًّا، وأقواهم سيطرة. يحمل عاهته، علامة مميّزة، ويحاول، في كل لحظة، أن يتجاوزها، بالسخرية وابتكار الحيل.

والعاهة خلَّفتها حمّى عجيبة، لم يكن اسمها معروفًا في الجورة. أصابته مثلما أصابت عددًا من الأطفال، وقضت عليهم... وهو، كما تشهد أم هاني: «طلعت وقعته سليمة... بقي خمستعشر يوم ملقوح، لا من إيدو ولا من إجرو... غاب عن الوعي، والكل قالوا: العوض بالسلامة... لكن بو رمح، عليه السلام، لَطَف... أمه نذرت تمشي حافية، مع كيس بخور ودزينة شمع، إذا شفي... والسلام عا إسمو استجاب. ولما رجعت عالبيت كان الصبي صاحي، وطلب منها شربة مي»...

نعم، عاد اسطفان إلى الحياة. ونهض من وقعته. إِلَّا أَنَّ العلّة أصابت ساقه اليسرى من الورك، وعطلتها... فَبَاتَ يجرّها، وكأنها جسم خارجيّ معلّق بجسمه. لكنّ أمه أخرجته من ضعفه حين شجعته على الجري، وممارسة الرياضة، ثم مواجهة الواقع بلا شعور بالنقص. والصبي يحاول الاستجابة، وتَجاوُزَ الضعف... وقد حوّل النقص الذي يحسّه إلى طاقة للمواجهة والتجاوز، قوَّت موهبة خاصة لديه في سرد الوقائع، ثم في التعليق الساخر على الأحداث... وهذا ما جذب الرفاق وجعلهم يتخذونه قائدًا ومرشدًا. يطيعون أوامره بطيبة خاطر.

لذا، لم يكن مستغرَبًا أن يسارع راجي إلى مرافقة الضيفة، بلا نقاش، ثم يعود بتلك السرعة، ليقدّم التقرير:

– وْلُووو...هْ! بيركب الواحد بهالسيارة، وبيفتكر حاله طاير مع الريح.

لكنّ اسطفان كان يريد معلومات، حاول أن ينتزعها منه، فهزّ راجي رأسه، مُقَلِّدًا الكبار في مثل موقفه:

– ليش بقي عندي عقل، حتى فكّر بالمعلومات؟

– مسطول...

قال اسطفان، بنزق وكرّر:

– واحد مسطول... كان لازم نبعث غيرك.

33

لكنّ جواب اسطفان لأُم هاني جاء مبطَّنًا بالمكر، إذ إنّه، مثل رفاقه، وسائر الناس، يعرفون فضول المرأة: تعيش على موائد «القيل والقال» ولا يهدأ لها بال ما دام هناك سرّ لم يُكشف لها. وبدا أنّ أم هاني لم تنجح في زيارتها. فقد شعر بذلك الأولاد، وهم يتأملونها، قادمة من جانب الساحة: – شُوفُوا كيف قَالِبِه خلقتها...

قال اسطفان ذلك، بمرح ساخر، وهو يتلذَّذ بوضع المرأة في حال من أحوال القلق، وينتصر عليها وَلَو إلى حين. وأحسّت أم هاني من بعيد بالموقف، فحوَّلت مسارها، وراحت تسعى في الزاروب الضيق، باتجاه بيتها.

وفي خلال تلك المسافة القصيرة إلى دارها، كانت تستعيد الحوار الذي جرى بينها وبين ألماظ:

– يمسّيكِ بالخير ياختي أولماظ...

هكذا بدأت معها.

– الله يسعد مساكِ...

ردَّت من دون أن ترفع نظرها عن القدر أمامها أو تدعوها، كما جرت العادة، لتتفضل فتدخل وتستريح. لكنّ أم هاني مصمِّمَة على المضيّ حتى آخر الخطّة:

– سمعت إنو عندكم ضيوف... قلت إجي ساعدك...

– الله يسعدك...

سمعت ألماظ صوتها الخارجي، بينَما، في الداخل كانت تفكر: «مَرا ما بتنعطى ريق حلو... واحدة محتالة. كان بدّي تمدّ إيدها وتساعدني بالأيام العادية».

وتابعت أم هاني تأملها، باحثة عن ثغرة جديدة لتنفذ منها، لكنّ ألماظ سدّت كل المنافذ... وبقي نظرها يتابع يدها تحرّك التقلية:

«مش بس عتبتهم ثقيلة... وخلقتهم مقلوبة كمان»، كان هذا التفكير الصامت ردًّا على وضع حيَّر المرأة. لكن أم هاني عنيدة، إذا صمّمت على خوض معركة، تتابعها حتى النهاية:

– سمعنا انو ضيوفكم أميركان...

لم ترد عليها ألماظ فورًا. ثم، وكأنها غَيّرَت رأيها فجأة، التفتت إلى المرأة المنتصبة أمامها، وقالت بلهجة لا تخلو من التحدّي:

– وأنتي الصادقة، ضيفة واحدة، ومن عظام الرقبة.

ثم أضافت بعد لحظات:

– ما حدا غريب. ضيفتنا نزهة، مْرَاة عبدالله، ابن خالي سمعان.

ثم صمتت وكأنّها تعلن نهاية الحوار، وكانت لهجتها تقول للزائرة: «إنّ الوقت ليس ملائمًا للاستقبال أو الزيارة».

وأم هاني اكتفت بهذا الخبر، وانصرفت مودّعة:

– أكيد ضيفتكم تعبانة... مْنِبْقى نجي غير وقت...

وكان شريط وعيها يسجل نغمة مختلفة: «نزهة راجعة؟ هلَّا، هلَّا يا دني! رَجْعِتْها مش ولا بدّ...».

الخبر خارج عن كل مألوف، أصداؤُه تطن في سمع أم هاني وتثير الأسئلة: «نزهة شو راجعة تعمل؟ ومِن بَعد عبدالله، شو إلها بالجورة؟؟».

وفي طريق عودتها إلى البيت، كان السؤال يفجّر أسئلة جديدة، ويوقظ الطاقات الكامنة.

34

إنّه المساء...

الدنيا صيف. النوافذ مشرعة، والشرفات صدور رحبة. باب الصيف واسع، كذلك المصطبات والسقائف والقلوب، مفتوحة، مرتاحة، مُرَحّبة.

هذا هو الوقت الجميل في جورة السنديان، جارة حرمون، وتلال الصنوبر، تواجهها قمم السلسلة الشرقية: ناعمة بيضاء في الشتاء، مبقّعة بالأحلام في الربيع، رازحة تحت ثقل الغمام في الخريف، ومشرقة، صريحة، ضاحكة في

الصيف... وفي تلك الحالات، جميعها، يبقى بلوغ تلك القمم مستحيلًا إلّا على العيون والأحلام، وبعض المكارية المغامرين، يقصدون شيخ الجبال، صيفًا، يحمّلون البغال بالثلج، فيلفّون الأبيض النقي في أكياس خيش، ويبيعونه بالقروش للحلوق الظمأى في عزّ قيظ تموز.

وتلال الصنوبر تُطِلّ، بحنان وأَثَرَة، على الكروم ودواليها السخية، وبساتين التين، البياضي والبوقراطي والسوّادي... العسل الشهي. وَعْد الصيف لحرمان الشتاء.

هذا واحد من حدود الجورة. ومن الجنوب، يجري نهر الحِمى، خاضعًا متواضعًا، شحيحًا في الصيف، وهادرًا، متوعدًا في الشتاء... يخترق الوادي، مثلما كان ألوف السنين، ولا يجود بقطرة من مائه على الكروم وبساتين الزيتون والتفاح المعلّقة فوق ظهره، أعلى من أحلامه.

وغرب الجورة، تمتد بساتين الزيتون، متعانقة، متكاتفة إلى أَبعد حدود النظر... بل إنّ النظر يكاد لا يبلغ الحدّ الأخير لخراج الجورة، حيث يغرس الفلاحون الحنطة، والقطاني.

أمّا الحدود الشمالية، فحدبة فوق الظهر، يسمونها «قفا الشحل»! اسم غريب وربما بسببه انصرف الناس عن بناء السقائف والشرفات بذلك الاتجاه، فالعيون تستأنس بالوجوه لا بالأقفية، والمصاطب تستدير باتجاه شروق الشمس.

هذا هو الغلاف الخارجي للجورة. أما الداخل، فتربطه بالكون أحلام وطرق مهدتها البغال والحمير والخيول.

وكانت فرس «أبو عدنان»، البوسطجي، أشهر الخيول. يعرفونها من المطلّ، ومن تلويح كوفيته البيضاء المميّزة. فيتسابق الأَولاد للقائه عند مدخل الجورة.

وثمة فرس أصيلة، كانت تطلّ مرة كل بضع سنوات، يمتطيها أبو اسكندر، نائب المنطقة، والناطق بأسماء السكان.

أما سائر الناس فيكتفون بالدواب (والحمير خيل الفقراء) صورة على قَدِّ الحال. تحمّلها ما تشاء وتشغّلها بعليقها. صيفًا شتاءً تنقل الناس والبضائع،

المُؤَن والأحمال الثقيلة في الطرق الوعرة. وحتى زمن العجلات، لم يُلْغِها نهائيًّا.

تاريخ دخول العربة الأولى مُسَجَّل في ذاكرة الناس بحروف من ذهب، منذ بَعْثِ المغتربين مالًا لشق الطريق. لكنّ التزفيت تأخر سنوات.

وكان ألفريد حداد الرائد الأول، دشّن الطريق الترابي بسيارته «فورد بو دعسِه»، ولن ينسى الناس إطلالتها ما عاشوا.

استقبلها الشباب عند المطل، مثلما يليق بتلك المناسبة: بالزغاريد والحداء... وأنزلوا السائق من سيارته، ثم رفعوه فوق أكتافهم وهم يهتفون:

– يا ألفريد، يا عنتر... يا راكبِ الجواد.

وظلت السيارة، في تلك الأثناء، تنتظر، صامتة، تكريم سائقها. وبقيت الأهزوجة تتردَّد في أزقة الجورة جيلًا بعد جيل:

– يا ألفريد، يا عنتر...

وكانت «جواد» ألفريد تعرف قيمتها، فَتُطلق زمّورها القوي، من المطل، وتذرُّ حماسة غير عادية في أجواء المكان، مثلما تشعل النار في أقدام الصِبية الحُفاة، فيتسابقون لاستقبالها كي يتعلقوا بها، ويكسبوا الركوب ولو لبضع خطوات.

في البدء، اقتصر ركوب السيارة على وجوه الجورة وأثريائها القادرين على الانتقال من الجورة إلى بيروت أو الشام. ومن قبل، كان الناس مثل الشجر في الأحراج والبساتين، يولدون ويموتون في مكانهم، إلَّا إذا حملتهم رياح الاغتراب.

لكن، وعندما وصلت «بوسطة حمّادي» إلى الجورة، كانت الحماسة الأولى قد همدت، والناس تعَوَّدوا ركوب العجلات. لكنها سجَّلت نقطة تحول في الحياة العامة، حين ساعدت في نقل المسافرين والأمتعة الثقيلة: الصناديق والسلال، والفرش في بعض الأحوال.

وهكذا، باتت القرى والمدن، أماكن حقيقية، بعدما عاشت في خلال تاريخها السابق، أسماء بعيدة بُعد النجوم في السماء.

وصار المصطافون، من المدن، وخصوصًا من بيروت والشام، يقصدون الجورة. وجلّهم من أهلها، الذين غادروها منذ سنوات. وعرفت الطرق خطرات

الصبايا الأنيقات، والشباب المرفّهين... وغزت أحلام الفتيان والفتيات وعودٌ جديدة.

كانوا يأتون من المدينة، للاصطياف في الجورة، طمعًا بالهواء النظيف، والماء العذب، والفاكهة الشهية... وكانوا يختلفون عن أهل الجورة: وجوههم بيضاء، شاحبة، ثيابهم نظيفة، مُنَشّاة، مكويّة، أحذيتهم لمّاعة، يُبدّلونها كلما بدّلوا ثيابهم... وأولادهم المرفّهون، لا يحسنون الجري، ويتخلّفون في سباقات الأولاد بين الأزقة والساحات. لكنّ أيديهم طريّة بضّة غضّة، لا تلامس التراب، ولا تعرف كيف تجني ثمار الكروم والحقول، وتجهل لغة الأرض والفصول...

وخير الأَرض في الجورة لا يُباع في الدكان. يقصد الفلاح كرمه مع الفجر. يملأ السلال بالعناقيد، أو بالتِّين، يُعرّشها، ليحفظها من السقوط، ثم يرفعها فوق ظهر دابته، لتأخذ مكانها في «الخُرج» أو «القنتلي»، ويمتطي ظهر الدابة ليعود إلى البيت... وتكون الشمس قد حميت، والناس خرجوا إلى الطرق والساحات، فيدعو كل من يصادفه إلى تذوق الثمار الشهية: – تفضّل يابا، جابرنا... تفضّل، بارك... تفضّل...

– الله يديمك يا جار...

يقولها العابر ويتابع سَيرَه، أو يتوقف ليُشارك في البركة، فيتناول خصلة عنب أو كوز تين. وما يبقى في السلال، يكفي ليوم أو يومين، بعدما تُحسم منه حصّة الجيران والغرباء. أما الذي يبقى في النهاية، فيتحوّل إلى القش المفروش فوق السطح، ويُسْطَح ليجفّ، ويُحفظ للشتاء. ويتكرر فعل المشاركة في مواسم القمح، والزيتون، وسائر بركات الأرض...

«البركة في الشركة»، يقولون. وابن الجورة يضنّ على نفسه بلقمة الخبز ما لم يشاركه فيها قريبٌ أو جار، من خبز الصاج والتنّور، إلى العسل والدبس والزيت واللبنة والكشك.

مواسم.

لكلّ موسم لونه وحلاوته.

والأيدي تتعانق، تتشابك، تلتقي ولا تفرّق.

هذه المشاركة المادية، تقابلها مشاركة عاطفية. في الأفراح يرقص الجميع، ويدبكون، يغنّون، ويزغردون ويعزفون الموسيقى. أعراس الشباب والصبايا،

تحلّ بعد سنوات من التمنّي: «وقت فرحتك...»، وكأنّ تلك المناسبة هي الأهم في عمر الإنسان، أو كأنّها الفرح الوحيد في الحياة!

لكنّ المشاركة الحقيقية هي في الحزن. الندب والبكاء واللوعة... فالراحل يخصّ الجميع ويسحب، بغيابه، جزءًا من كيانهم؛ وكأنما ذرّات كيانه، لدى اختراقها عمق التراب، تتسرّب لتمسّ أقصى مدى من جذورهم.

عميق هو طعم الحزن، في الجورة، ومؤلمة هي اللوعة لفراق الأحبّة.

وفي المناسبات الحزينة، تسقط الحواجز المرتفعة في الأوقات العادية، بين إنسان وآخر. تذوب الخلافات والعداوات، ولو إلى حين، ويتحول الناس إلى كتلة متراصّة، مجبولة من تراب أرض واحدة، تتكلم لغة واحدة، هي لغة الجبال، والأودية، السهول والأنهار، وهي لغة الجدود منذ مئات السنين، وهم يرقدون بسلام في «التربة» حيث تفرش سنديانة دهرية مظلتها الرحبة الدائمة الخضرة.

و«التربة» تستريح عند الجهة الشمالية وعلى كتف البيادر، وكأنما هناك اتفاق ضمني معقود، ومنذ بداية الوجود، بين الأحياء والأموات. الجورة لا تُفرّط بأمواتها. لا تُبعدهم ولا ترفع بينها وبينهم مسافات، ربما لتبقى بركتهم مخيّمة على المواسم... وعلى الكيان.

أما البنية الهندسية للجورة، فثابتة لم تتغيَّر منذ فجر تاريخها: الطريق يشطرها إلى جزأين، وتتعلّق الحدائق والبيوت الصغيرة، بيوت الطين والحجارة تتدلى، كالعناقيد، يستند الواحد فوق كتف جاره، ويُشَكّل معه الأحياء والحارات... ولكل اسمها وسكانها، حارة الفوقا، حارة التحتا، حارة النصارى، حارة الدروز، حارة بيت بو مراد، حارة بيت بو رزق، أو بيت ثابت، بيت...، والبيوت متشابهة: طبقة سفلى (الأرضية أو المدّ)، تؤوي الحيوانات (الدابة، البقرة، قن الدجاج، وربّما عنزة أو خروفًا)، وفوقها ترتفع العِلِّيَّة، الطبقة الخاصة بالسكان أهل البيت. وهي، في معظم الحالات، غرفة واحدة، في صدرها موقد ومدخنة، وتخدم كل الغايات، حسب الحاجة والطلب. وفي فترة لاحقة، أُدخلت بعض التعديلات، مع فنون العمارة المستوردة من الخارج. وصار هناك ليوان، تُحيط بِه غرف للنوم أو الاستقبال... وأبواب، تعزل الغرفة عن جارتها، وتفصل بين أفراد العائلة الواحدة. وكانوا من قبل يقيمون معًا، الكبار

والصغار. فلا أسرار بين أفراد البيت الواحد... بين أفراد البلدة الواحدة... وحتى النوافذ، لم ترفع فوقها ستائر... بيتًا واحدًا، كانت جورة السنديان...

فالإنسان الذي يولد، ويموت وحيدًا، ليس من سكانها. منذ الطلْق الأول، تلتف النساء حول المولّدة، ويشارك الجميع في استقبال المولود، ويصبح فردًا من أفراد الأسرة الموسّعة.

وتقاليد الجورة لا تُبعد الأولاد عن المشاركة، في كل المناسبات: يتسلّلون، ليقفوا بجانب أمهاتهم، يراقبون الحدث، ويشاهدون أسرار الحياة، منذ البزوغ الأول، من أعماق فجر مظلم، حتى تُوارى الثرى، في قبر أو في «حجرة»...

تلك الألفة، تجعل الناس يتداخلون، يتشابكون، مثل جذور السنديان، في أعماق التربة... وكل فرع، في حالة تمدّده، يجد طريقته المميّزة، والخاصة به وحده، شرط ألا يأخذ مكان غيره، أو يتسلّق فوق كتفه.

وإذا كان باب الصيف واسعًا رحبًا، فإِنّ الشتاء، على ضيقه وقسوته، يظل عاجزًا عن عزل سكان الجورة. في هذا الفصل، أيام البطالة تتبع الطقس، وهي تزيد على أيام العمل. ويتقارب الناس، يؤنس واحدهم الآخر. ويجدون في ذلك تعويضًا من قسوة الطبيعة. وحول مواقد النار تُعقد السهرات، وجلسات الأنس والسمر. ويضاعف دفء الحضور، الدفء المتسرب من نار الموقد «فاكهة الشتاء». ويتلذّذ الناس بأكل طعام أعدته أيديهم، في فصول الصحو. ويتسلّون بلعب الورق، وسرد الحكايات...

وتربة الشتاء خصبة، فيها تنمو أشجار الخيال، وتحلّق، ويحلو طعم الأساطير، تُنقل وتعاد، وتملأ فراغ اللحظات، وتُعوّض الناس من محدودية الأفق، وجحود المكان.

على متن الأسطورة، يرحل الخيال، وتُخصب القرائح. تنطلق الحكاية، ويلحقونها... يصدّقونها. أحيانًا يمتزج عالم الواقع، بعالم المخيّلة الجامحة، وتتولّد الأعاجيب، وأغرب الروايات.

ورواية مخايل بو عزقة تشهد على ذلك.

مخايل، صاحب طاحونة الماء في الجورة. تدور في الشتاء، حين تهدر المياه في مجرى نهر الحمى. ليالي الشتاء طويلة، وحالكة السواد، والناس «تسرّب»

باكرًا، لتأوي إلى بيوتها، ويبقى مخايل وحده، ليبيت في المطحنة... ويُرخي لأحلامه العنان.

يحلم، في اليقظة، وفي المنام. وأغرب ما أبصره، في يقظته، «الجنيَّة»، ويُسميها «بنت القمر»... لماذا؟ يبقى سرّ التسمية عنده...

وكانت الجنيّة تُسرّح شعرها... واقفة عند حافة النهر، وتسرّح شعرها. في يدها مشط من ذهب. وشعرها، يا سبحان الخالق! مثل حبال الشمس!

خاف مخايل، حين أبصرها... لكن، عندما التفتت إليه وابتسمت له، زاغ عقله وشعر بأن قواه تخذله، وفارقته قدرته على التحرك... لَكأَنّ الجنيّة أرخت عليه سحرها وجمّدته في مكانه! وفكر في أنّها «الرصَد» الذي سمع عنه كثيرًا، ويمكن «رصَدَتْه» كما يقولون في الجورة، أي سحرته، وسمّرته في مكانه، بعدما سلبته إرادته... فأغمض عينيه، وحين فتحهما، لم يجد للجنيّة أثرًا، كأنما الأرض انشقّت وابتلعتها! تحرك ببطء، ثم راح يعدو، حتى وصل إلى باب المطحنة، ولم يعد يلتفت إلى الوراء...

هذا فصل واحد من فصول الرواية التي يحكيها مخايل للناس، كلَّما عاد إلى الجورة. في الفصل الأخير، قال إنه، في إحدى تلك الليالي العاصفة، وحين يمدُّ المرء إصبعه، ولا يبصرها... في تلك الليلة الحالكة السواد، سمع رقصًا وغناءً قرب «السُكْر» المجاور للمطحنة... فظنّ أن الجنّ يُقيمون عرسًا في تلك الليلة... افتقد مخايل عباءته، فلم يجدها... الدنيا برد، والعباءة مصنوعة من وبر الإبل، وهي دثارُه الوحيد... فتكوّم على نفسه، فوق جلد الخروف، ونام على وهج النار. غاب في غفوة عميقة، لم يفق منها إِلَّا بعد طلوع النهار. فقام يبحث عن العباءة ولم يجدها: «لا بدّ أنهم استعاروها»، قال لنفسه وانتظر. وبالفعل، وجد العباءة بعد مضي أسبوع، معلّقة مكانها، استعاروها ورجّعوها مبقعة بالزيت، أَخبر الناس لدى عودته... وأيّدت أم الياس كلامه بقوة: «هيدي عادتهن. مرّات بيستعيروا شراشف بيض بيفرشوها للعرسان. مرّة، استعاروا شرشف من عند لطيفة جنّون. أخذوه جمعتين وبعدين رجّعوه»... ثم تميل أم الياس، على أقرب جارة لتهمس في أذنها: «وكان يومها، مبقّع بالدم، مش بالزيت». ولا يخفى سرّ همسها على الحاضرين. فالجميع يعرفون عادات الجنّ وحيلهم الرهيبة، خصوصًا في مواسم الأفراح.

هذه هي جورة السنديان، التي حملت إليها أم هاني، وبكثير من النشوة والحماسة، نبأ وصول المغتربة، نزهة، «مْرَاة» عبدالله بو مرعي، بعد غياب ثلاثين سنة...

لكنّ فرحة أم هاني، لم تكتمل. فلن يهدأَ بالها، أو ترتاح، قبل أن تبلّغ ليَّا، خبر قدوم نزهة: «ليَّا لازم تعرف...».

حسمت الموضوع مع نفسها، وقضت ليلتها تفكر: «كيف؟ كيف السبيل لإبلاغ ليَّا خبر وصول نزهة؟»...

36

الحكايات دوائر معلّقة فوق البيوت، أو عند أعتابها، كل بيت حكاية. ولكل إنسان في جورة السنديان حكاية مختومة.

حكاياتهم صرر ملفوفة تخبئها الخزائن، والصناديق المصفّحة. وتبقى مطوية، طيّة فوق طيّة. من ثنايا طياتها يفوح، أحيانًا، عطر الحبق والخزامى. وفي أحيان كثيرة تهفّ رائحة العتق والأزمنة المنسية.

يعرف الكبار ذلك، ولا يسألون. ويهمسون كلامهم همسًا، إذا ما حضر الصغار. وتزداد الأَصوات خفوتًا إذا ما اقترب صداها، ليلامس أعماق الحكاية.

فوق دار ليَّا حكاية أسرارها كامنة ومختومة بختم عمره ثلاثون سنة. يعرف الكبار الحكاية، ويشعر بها الصغار، بالحَدْس، ولا يبصرونها. ولا تمتدّ الأصابع لتُفتّق القطب، أو تفتح الصرّة وتنبش ما حَوَت.

وكأنما بين الناس اتفاق سِرِّي، للمحافظة على الختم؛ لا يُلمس أو يمسّ إلَّا في لحظة غَضَب، وحين تتفجّر الصدور بالحقد، وتفرغ سمّها، كلماتٍ لها وقع النصال في القلوب.

يَتَلقَّفُ الصغار الكلمات، ويعيدونها أَسهمًا مبريّة، ومغمَّسة بعبارات ناتئة، نابية، تفحّ منها رائحة الكراهية، والأَسن الخبيء في النفوس... «تشاقيع» يسمّونها، وتتناول في جوهرها المرأة... الأم في أكثر الأحيان، فتمرّغ أقدس ما تجسِّد...

حكاية ليَّا بدأت مع قدوم عبدالله بو مرعي من المهجر. «غني، وأشبهي»، وصفته أم هاني يومها، ثم أضافت: «وجايي يدوّر على عروس».

ومثلما تقتضي التقاليد والأعراف: القادم من غياب، من وراء البحار السبعة، من خلف الضباب، له صدر الدار، وأفضل الموجود.

وكانت ليًّا أفضلهنّ.

ما كاد يحرّك شفتيه بالسؤَال عن صبية حتى دلُّوه عليها:

– ما إلك غير بنت مرشد ضاهر، شمس وشارقة. وأهلها، شَرْوَاك، جماعة أوادم.

يسمع الشهادة من الخوري والمختار وسائر الوجوه.

وهو يعرف أخويها في المهجر: رامز ويعقوب، يقيمان في نيويورك، ومن خيرة المغتربين.

إذًا، كان من الطبيعي، والمنتَظَر أن يقوم عبدالله، وبعد انقضاء أسبوع واحد على وصوله إلى الجورة، بردّ الزيارات للذين سلّموا عليه، كما تقضي التقاليد والعادات... وهذه فرصته ليتعرّف إلى الوجوه المحجوبة، المخدّرة.

ومع أنّ التقاليد القديمة كانت تفرض على الفتاة أَن تتوارى خلف حجاب كي لا يقع عليها نظر الخطَّاب... مع أنّ تلك التقاليد انطوت مع جيل الجدّات والوالدات، إِلَّا أن آثارها لا تزال في النفوس. وإذا كانت الفتاة قد تخلّت عن الحجاب الخارجي، فإِن حجابًا ذاتيًّا لا يلبث أن ينسدل فوق وجهها وكيانها، يغلّفها بالخجل، يسربلها، ويجعلها تتعثّر بخطاها. وبقدر ما تشتهي الفرار من العينين المحدّقتين إليها، فهي تتوق إلى البقاء في مدى تينك العينين. لذا توصّلت الفتاة إلى عقد الحلّ الوسط مع تقاليد الجورة: تطلّ، حاملة صينية فوقها كؤوس الشراب أو فناجين القهوة المطيّبة بحب الهال... تتقدّم من الضيوف، بخجل تتقدّم، ولا ترفع نظرها عن الأرض زيادة في الاحتشام. وتدور على الموجودين في القاعة، بادئةً بالمتقدّمين في السن، ثم بالأغراب، حتى تصل إلى الأقارب وأهل البيت. وبذلك تتيح الفرصة للتعرّف إلى جمالها، مستوى أَدبها، وحسن تصرفها وسلوكها. ومن شروط الاستقبال أَلَّا تجلس مع الحاضرين، بل تتوارى بعيدًا، أو تبقى خلف باب مقفل تنصت لما يدور بين القوم من كلام...

37

قال عبدالله للمختار، بعدما أصغى جيدًا إلى نصحه ووصفه:

– بحبّ شوف البنت، شو رأيك؟
فَرَدَّ المختار فورًا:
– بالطبع، بتشوفها... خلّيني بالأَول خَبِّر الجماعة.
و«خَبَّر الجماعة»، فكان الجواب:
– بتشرفوا.. أهلا وسهلا...
وحفاظًا على خطّ الرجعة أضاف مرشد ضاهر:
– بس ليّا بعدها صغيرة...
وقاطعه المختار، مبديًا حماسته وغيرته:
– بسلامة معرفتك يا بو رامز، مش كل ساعة بيهجم مثل هالنصيب. والبنت صبية، يخزي العين، وما في حديث بالبلد إلَّا عنها، وعبدالله سمع، وحبّ يزوركم...
لم يَبقَ أمام الرجل بابٌ يخرج منه من دون أن يفقد كياسته، فرحّب بالضيف باختصار:
– البيت بيتكم يا مختار... بتشرفوا.
نقل مرشد الحديث إلى زوجته «سيدة»، فلم تنفعل في البداية، إلَّا أنّها لم تعبّر عن موقفها بصراحة، وشاءت أن تحتفظ هي أيضًا بخطّ الرجعة:
– خَلِّيه يتفضّل، وبعدها لكل حادث حديث. الزيارة لا بتربط ولا بتحلّ.
وهكذا بُلّغ عبدالله رسالة الترحيب بقدومه.
أعدّت ليّا شراب الورد، وحملت الكؤوس فوق الصينية وطافت بها على الضيوف. كانوا جالسين على المصطبة الصيفية، وأنظار الجيران تنسكب، من فوق المصاطب المجاورة، تسجّل ما يجري، بكل التفاصيل الدقيقة، ثم تنقل الخبر إلى طاحونة الجماعة، فتطحنه ثم تنخله، وتعجنه وتنتظر اختمار العجنة.
تلقّفت أم هاني الخبر، كتلة عجين رخصة، وراحت تقرّصها على هواها، وتوزّع أقراصها على مجالس النساء، تثير غيرتهن، وتحرك في نفوسهن النقمة. فهناك دائمًا بنات مرشحات للزواج، وأُمَّهات فوق شرفات الانتظار. والأمل المشرق في النفوس يخبو، تدريجيًّا، مع انطلاق الإشارة إلى واحدة بالذات، تكون العروس المختارة.

بعدها، يستسلم الجميع للأَمر الواقع، يخرجون مِن جلودهم الضيقة، من قشورهم، ليشاركوا الجماعة، ويُكوّنوا معها ذلك الجسم الموحّد، مجتمع القرية.

وفي ذلك الزمان كانت أم هاني، في مطلع صباها، وعزّ حيويتها. بعدما طافت على الحلقات المعقودة حول فناجين القهوة، وأقراص الحلوى البيتيَّة، وامتلأت نفسها ثقة من تثبيت الأقاويل، وتصعيدها... شعرت بجاذب، كالمغناطيس، يشدّها باتجاه دار مرشد ضاهر، فهي ترفض شربة الماء إن لم تكن من رأس النبع.

اغتنمت تلك الصبيحة الهادئة، في اليوم التالي للزيارة، وقصدت منزل ليًّا، تسبقها ابتسامتها، مفتاحها السحري إلى المجالس والقلوب.

– عالبركة يامّ رامز...

كانت والدة ليّا في الفناء الخارجي للدار، منهمكة ببعض الأعمال. رحّبت بزائرتها بابتسامة متكلّفة:

– حلّت البركة... تفضّلي، استريحي.

وتفضّلت لتجلس فوق مقعد حجري في الركن، وتتابع بنظرها، حركات المرأة، وهي تفوّر الحليب، تعدّه لترويب اللبن:

– شو اليوم دوركم، ياختي سيدة؟

طرحت السؤال، وفي بالها ما هو أبعد من دور بيت مرشد ضاهر على قائمة المعّاز بو سليم... لكنّ اللياقة تقضي بولوج الموضوع بحذر. وتابعت سيدة انشغالها بالقدور، ومحتواها من دون أن تغضّ النظر عن القدر المرفوع فوق النار. فقد أدركت بالسليقة، القصد من زيارة أم هاني، وقررت أن تكون حازمة «ولا تعطيها الريق الحلو»، فهي تعرف سلوك المرأة، وحضورها الدائم، في قلب الأحداث. بل تعرف أنّ أم هاني كثيرًا ما تتسبب في تلك الأحداث. لا يتم أمر من دون أن تغمس فيه إصبعها. «في كل عرس لها قرص» أكدت ذلك لنفسها، وهي ترقب ضيفتها بطرف عينها.

وبقيت أم هاني صامتة، تتلمّس طريقها بحذر، ثم فجأَة، أشرق وجهها، حين أبصرت ليّا خارجة من الباب إلى فناء الدار، فتوجّهت إليها:

– صبحك بالخير يا عروس...

تسربت حمرة شفافة إلى وجنتي الصبية، مثلَما يحدث للفتيات حين يشعرن بأَنّهن موضوع النظر أو الحكي والمديح. وردَّت على التحية بصوت متردّد خجول، وحين دعتها أمها لتساعدها في تصفية الحليب، لاحظت أم هاني أنّ يد الفتاة ترتعش... فتابعت: – هيك تكون الصبايا أو بَلا...

ازدادت ليّا خجلًا وخفضت عينيها الخضراوين، وظلت صامتة. فتولّت أمها الردّ بما يناسب:

– كل الصبايا خير وبركة...

وكان ردّها فاتحًا للشهية، فاستفاضت أم هاني:

– بنتكم، ياختي، غير شكل... ليّا أميرة بين البنات...

وحَسَمَت سيدة الأمر بردّ مقتضب:

– مثلها مثل غيرها، لا بتزيد ولا بتنقص.

وشاءت بذلك أن تضع خاتمة للحوار. لكنّ المرأة عنيدة، ولا تتراجع. فإذا صمّمت على أمر، لا بدّ من تنفيذه، مهما كلفها ذلك من عناء أو إهانة... لذا، تابعت الحوار، ممسكة بطرف الخيط: – شو، انشالله الفرحة قريبة؟

وهنا، نفد صبر سيدة، فانتصبت لمواجهتها واقفة، وقد انحسرت الابتسامة الساخرة وحلّ مكانها الجدّ، «العيار بدو عيارين. والرطل بدو رطل ووقية»:

– هالكلام سابق لأوانو. فيكي تخبّري وضميرك مرتاح.

تجمّدت الكلمات، في حلق أم هاني. لم تقصد أن تثير غضب المرأة، وحاولت أن تُلَطّف الجو بلهجتها الجديدة:

– لا تواخذيني يامّ رامز... بس الخبر انتشر، والبلد كلها عارفة، والكلام بسرّك، ما في حديث للناس، غير هالحديث.

– الناس بدها شي تتسلّى، ونحن مالنا وما للناس؟ شوفينا، قاعدين مستورين ببيتنا، عمْ نْفَوّر حليب، مش عمْ نْفَصِّل الجهاز.

عندها وقفت أم هاني وهي تردّ المنديل فوق رأسها، إشارة إلى الانصراف:

– انشالله عن قريب بتفصّلوا أحلى جهاز... يلّا... تقعدوا بالعافية.

ولم يأتها الردّ التقليدي المألوف: «العافية تجيك.»...

لم تكن والدة ليَّا متضايقة من زيارة أم هاني إلى الحدّ الذي أعلنته، فقد جاءت الزيارة الصباحية امتدادًا لآمالها، ودغدغة أَنعشت مشاعر خبيئة في

صدرها، وأكدت ما يتجوّل في خاطرها، بين الواقع وخيوط الأحلام: ابنتها ليًّا، العروس المختارة. وليتحدث الناس ما طاب لهم الكلام «وليًّا، يا جبل عالي ما تهزّك ريح». نعم، ابنتها، وتعرفها وتعرف كيف ربّتها: حلوة، يشرق وجهها كالشمس، يحيط به شعر كستنائي كثيف، وتزينه عينان خضراوان. وابنتها لطيفة، خفرة وست بيت ممتازة. ليّا ساعدتها في تربية أسماء، الشقيقة الأصغر منها. وعوَّضتها، بأنسها، من اغتراب أخويها، رامز ويعقوب، وكانت لأَبيها، الساعد الأيمن في الكروم والحقول، واكتسبت رضاه وحبه، وحرصه على عدم التفريط بها...

لكن مثل ذلك النصيب لا يطرق الباب كل يوم. صحيح أنّ عبدالله كبير على ليًّا، «عمرها ستعشر سنة وعمره خمسون... لكن ختيار يدلّل ولا شاب يهين»، أكدت أم هاني ذلك لنفسها، وهي تتابع جمع التفاصيل الصغيرة عن الرجل. والمختار قال إنّ لدى العريس ما يعوّض من الزيادة في العمر: كرم، وشهامة وغنى.

سجَّل مرشد كلام المختار، من دون أن يفسح في المجال للعاطفة. ففي مناسبات كهذه على المرء أن يحكّم العقل. وعقله يُجري المعادلة بسرعة، ولا يقوده إلى الرضى النهائي.

قال لزوجته، حين عادت تفاتحه بالأمر:

– شوفي رأي البنت، ولا تحاولي التأثير عليها.

ولم يترك لهم عبدالله مجالًا للمزيد من التفكير. فبعد يومين، عاد للزيارة، وفي باله أنّ ذلك قد يتيح له فرصة اللقاء بها، كي يتأَمَّلها عن كثب وربما، يتبادل معها الحديث. ولم يحصل... فقد ناب والدها عنها في استقباله، والإصغاء إلى كلامه. وكانت ليّا، تراقب ما يجري، وتسمع أطراف الحديث، من خلال شقّ في باب يفصل حجرتها عن حجرة الاستقبال.

أحسّت بذلك الشعور الغامض، يتسرّب إلى مجاري دمها، وهو مزيج من الفرح والأمل والخوف والترقّب... شعور لذيذ، نقلها من مكانها، وراح يحلّق بها بعيدًا عن الجورة وأهلها، عن الحقول، وغابات الصنوبر والسنديان، عن بساتين الزيتون، المنتشرة في كل صوب... وعن الأيام العادية الباهتة.

مدّ جناحين ناعمين، أرْدَفها فوقهما، وراح يحلّق بها وهي تصعد، وكلّما صعدت، يتلاشى ثقلها، وكأنها تتحول إلى بخار أو دخان.

قارنت شعورها الحاضر، بما كان ينتابها كلَّما التقت بـ«سعد»، وتأَكَّد لها الفارق الكبير. سوف يظل سعد شمسها الغاربة. حلم الطفولة وتفتّح الصبا... وهو حلم لم يكتمل أو يتحقق. ويبقى سرّها المكتوم...

لكن أين هو سعد الآن؟... تسمع صدى الجواب من خلف جدار الصمت: سافر، ولم يسأل عنكِ. لم يأتِ، حتى لوداع أهلك. ربما خاف... خاف إن هو أبصرك أن يضعف، وتفلت منه فرصة الرحيل.

مثله مثل عشرات الشباب، يبقون خلف جدار الانتظار، إلى أن يسمعوا النداء. في كل مرّة، يَنْدَه الصوت، من خلف الأفق الغربي على واحد منهم، فترتعش أغصان الشجرة، من فَرَق، وهي تبصر واحدًا من أغصانها ينفصل، ثم تعود، فتتعانق وتتشابك بانتظار النداء التالي.

لم تبح ليّا بسرّها لأَحد... حتى صديقتها الحميمة، بهية، فاتها أن تلاحظ. وكلّما دار الكلام بينهما حول الفتيان، تلزم ليّا صمتًا حياديًّا حتى إذا أجبرتها على الكلام اختصرت أو قالت، بين الجد والدعابة: – ناطرة الناولون... اخوتي باعثين يأخذوني.

وتطلق بهية آهة تَحَسُّر، تختم بها الحديث:

– ياهْنيَّالك.

وها إنّ الكلام الذي تلهّت به، وحسبته حلمًا بعيدًا يتحول إلى حقيقة. والباب ينفتح أمامها لتسافر. لتمتطي متن الحلم الكبير.

وبات عبدالله يزورهم كل يوم... حميت الأَلسن بالثرثرة، وبات اسمه واسم ليّا فوق كل شفة ولسان...

38

– فِكري نحط حَدّ للقال والقيل يا مَرَا... عبدالله طلب إيد البنت، وناطر الجواب، شو بتقولي؟

– القول إلك، يا رجال، وللشباب طبعًا... لازم نكتب، ونأخذ رأيهم بالموضوع.

فهزّ مرشد رأسه موافقًا، وأضاف:

– المهم، بالأمر، رأي البنت. ما بيجوز نجبرها... اسأليها.

وردّت أمها:

– اترك البنت عليِّ. رأي الشباب بالأول...

– وفِكرك، هي مش شاعرة؟ جسّي النبض، وشوفي رأيها.

حدجته بنظرة مَكْر لم يَعهَدها فيها:

– عَلَّقتْ عند هالحد؟ جَوَّزونا من دون جسّ نبض، ونحن بألف خير.

ولم يشأ أن ينجرف معها إلى العبث، فحسم الموضوع، وهو يردّ الباب ويغادر المنزل:

– أيامنا غير أيامهم...

39

كانت تتوقّع كل كلمة اختارتها أمها، لسؤالها، ولجسّ النبض. وكانت ليّا مستعدة للجواب:

– اللي يرضيكم، يرضيني.

قالت أمها:

– ما رح نردّ خبر حتى نأخذ رأيك ورأي الشباب.

– أنا بخاطركم.

وجاء رأي الشباب فاقدًا الحماسة: «لا تغصبوها... رأي أختنا هو الأَهمّ...».

أمّا بالنسبة إلى العريس فالرسالة واضحة كالنهار: «من جهة السمعة، اسم عبدالله نظيف. وأشغاله ناجحة... لكن الرجل كبير بالنسبة إلى اختنا. والمهم رأيها هي في الموضوع...».

وهي سلّمت أمرها لوالديها مثلما يُنتظر من فتاة عاقلة في جيلها. وربطت رأيها برأي الجماعة:

– مثلما بتريدو.

الجماعة تُفصّل الثوب، وهي ترتديه، بلا اعتراض.

ولماذا تعترض؟

أَوَليس هذا حلم كلّ واحدة من بنات الجورة؟ عريس ثريّ، قادم من خلف البحار، من خلف الأحلام والأساطير، ليفرش درب عروسه بالورد... سبقتها إلى هذا المصير عشرات الفتيات. وعشن سعيدات.

هذا هو الوجه المعروف في الجورة. هنا، تُقام الأفراح، وتُعقد الخطوبات، ويعيش الناس أيامًا في النعيم. وحين يرحل العروسان، تُغلق الأَبواب، وتُسدل ستائر العيون، وتعود الحياة إلى مجراها الراكد، البطيء. ويعود الناس يُغرقون ضجرهم في أحلام جديدة.

والذي يهاجر «يغيب عن العين والخاطر»... و«يكاد يُنسى كالميت من القلب»... والرسائل الشحيحة نادرًا ما تحمل تفاصيل الحياة هناك.

ويبقى الطلاء الملوَّن، المرح، فوق جدران الذاكرة، إلى أن يعود غائب آخر.

40

«نزل عبدالله عالشام...».

ضجّت الجورة بالخبر.

«راح يشتري محابس الخطبة».

لم يطل غيابه. بعد يومين عاد:

«رجع حامل ومحمّل، ونزَّل الحمل عند العروس».

هكذا أذاعت أم هاني الخبر، فوق المصاطب، وفي جلسات السمر. ولم تَقوَ على ردع نفسها، فعادت تدق باب العروس (حتى تشمشم الأخبار) وخرجت بالتفاصيل:

– قصّ لها الجهاز: مخمل وحرير وقصب، أساور ذهب، وحلق وخواتم وعقود ألماس وزمرّد وياقوت... شنشلها بالصيغة. يا هَيْك تكون العرسان، يا بلا...

استنفرت أم هاني كل طاقاتها الإبداعية ووظفتها في الوصف، وراحت الكلمات تنتفخ وتطير مثل بالونات العيد.

وعاشت ليّا أيام الخِطبة الهنيئة في نشوة يعرفها الحالمون وحدهم. وانهمكت مع أمها في إعداد الجهاز. أفخر الأقمشة والحلى جاءتها من الشام ومن بيروت. ولم يسبق للناس أن شاهدوا في الجورة تلك الأبّهة. وتعطي أم هاني للأحداث معانيها: – ليّا بتستاهل يامّ رامز، بنتك أميرة يختي... الحمدالله ربّيتِ ولقيتِ...

تدخل أم هاني، وتخرج، وتروي، وتنسى دنياها الأُخرى حيث لها بيت وزوج وأولاد...

وتؤكد لسائليها أنّ الحظوظ من عند الله... وحظ بنت مرشد ضاهر «بيفلق الصخر».

بعد انقضاء شهر في إعداد الجهاز، أُعلن موعد الإكليل، وشاركت الجورة في الفرح بصغارها وكبارها. الجميع خرجوا إلى الساحة للرقص والغناء. ومُدَّت السُفَر والموائد السخية، ليأكل الجميع ويشربوا، في ظلال فرحة العروسين.

والأفراح فقاعات خفيفة، لطيفة وملوَّنة. أقنعة، تغور خلفها الحقائق وتتكسّر فوقها فُرص التأمل والتفرّس في عمق الأحداث. وهكذا تعبر الأحداث، في مجاريها، كالمياه، قوية جارفة، متدفّقة، أو بطيئة، هادئة، متمهلة... وفي كل الحالات، تجرف معها الوعي والكيان... حتَّى إذا استفاق المرء، راح يُعيد الحساب، ويسأل: «ما الذي جرى؟»...

وهل حدث ذلك كله في الواقع، أم في المنام؟

وليًّا كانت، محمولة فوق أجنحة الحلم. تبصر ما لم تبصره من قبل، حتى في رحلاتها الخيالية، وأحلام اليقظة.

تتفتّح أيامها، مثل بتلات وردة جوريَّة، ولكل يوم اسم من أسماء الدهشة والغرابة. يُسربلها الرضى، ويلفها الفرح. وترتدي الآمال، عباءَة فضفاضة، تغطي قوامها الجميل.

ها هي، تُزف إليه، وتتألق في ثوب مقطوف من غمائم الصيف. تتساقط عليها النظرات من عيون تشتهي أن تبلغ نعيمًا تقف هي في أرجائه. حتى الحاسدات المنزويات في العتمة، يعترفن بأنّ «حظها يفلق الصخر» حقًّا وبأنّها حصَّلت ما لم تحصِّله من قبلها فتاة.

41

انقضى أسبوع، ظلّت الفرحة في خلاله مشتعلة في الطرق وفي الساحات. وهجها يُشرق في الليل وفي النهار، يُدثّر البيوت وسكانها.

امتدّت السهرات في دار العريس حتى مطلع الفجر.. على مدى سبعة أيام لم يتوقف الرقص والغناء. ثم بدأت الأصوات تتراجع، والأنوار تخبو، وعاد الناس إلى حياتهم العادية. وجلّل الصمت دار العروسين. وهو ليس الصمت الطبيعي المألوف، بل هدوء مُقنَّع، مشحون، ينذر بالانفجار. وبدأ الهمس الخافت يتحوّل إلى طنين حين ابتعدت نفّوج عن باب العروسين. نفّوج الحَكَم، والداية

المختارة للشهادة على عذرية العروس، رابطت عند الباب سبعة أيام، ثم يئست، وانسحبت، من دون أن تقبض على البرهان، لتؤكد للمنتظرين، مثلها، بأنّ الزواج تَمَّ بالفعل، وبأن ليّا اجتازت الامتحان.

عذرية العروس، السرّ، المفروض أن يَخُصَّ شخصين، هو في الجورة، ملك للجميع.

القرية، بأسرها، تنتظر.

أهل العروسين ينتظرون. وعلى نفّوج أن تعلن الشهادة. تبصم توقيعها وتطلق زغرودتها: «لولو لولو لَيْش...» وألف مبروك...

لكنها لم تفعل!

وبعد اليوم السابع عادت إلى بيتها...

قصدتها أم هاني، حين شعرت بأن طنين النحل في أذنيها يتضخّم إلى حدّ الانفجار:

– شو، ما كملت الفرحة يا نفّوج؟

ختمت المرأة شفتيها، وقطّبت حاجبيها، ولم تردّ... فعادت أم هاني تُلِحّ عليها:

– شو؟ مِنْقول مبروك؟

فاستدارت نفّوج نحوها، واضعةً يديها على خاصرتيها، ثم زَعقت في وجهها:

– وانتي، شو خصّك؟ لازم يكون لك في كل عرس قرص؟

ردّت أم هاني، بجرأة مفترسة:

– بالطبع خصّني. لازم ينحط حدّ للشائعات... هَهْ... الهيئة قرص هالعرس طالعة ريحتو.

بحثت نفّوج في ثنايا الذاكرة عن قول مناسب تصفعها به. ثم، وكأنها عثرت عليه، ابتسمت بخبث ورددت المثل الشائع:

– وقعت الفارة من السقف... بتعرفي كفاية المثل أو بْكَفّيه؟ يختي كِفّي مصايبك عنا، ونحن بألف خير.

لم تتراجع أم هاني. لم يرفّ لها جفن. ماذا يفعل المَثَل في وجه هذا الواقع.

– والله يا نفّوج، ما شايفه هالخير، والهيئة انتي كمان مش شايفتيه... بس يمكن الحق معك... خلّي الإشاعة تلعلع وتلهب، وتشعِّل بنارها الجورة

وسكانها.

42

بركان نار، يغلي ويفور داخل قفص صدرها. يُلهب أحشاءها، ويرسل سياطًا حامية في مجاري دمها.

جواب نقّوج أثارها. أشعل فتيل التحدّي في كيانها. وهي ترفض الهزيمة: أم هاني لا تنهزم ولا تقف عند عتبة الخيبات...

باكرًا في العمر انتدبت نفسها للمسؤوليّة. باكرًا تمرّست على الانشغال بالآخرين، منذ أن كانت ترافق أمها إلى مجالس النساء...

وظلّت تجلس صامتة، تصغي، تسمع أخبار الغربلة والنخل، ثم العجن والتقريص... وتسمع من بعيد، صدى لصوت والدها، يأتي مُؤنّبا: «من غَربل الناس نخلوه»... كان يردّد ذلك القول على مسمع زوجته، ثم يخرج إلى عمله في الحقل، ويغيب عن السمع والنظر.

داومت على حضور مجالس النساء، حول مواقد الشتاء، وأجران الغسيل، وأطباق المواسم... وجلساتهن على التنور، والبيدر، والعين، وكل مجمع وملتقى...

هذا هو مجتمعها الجذاب الساحر، ومدرستها الأُولى والأخيرة. تخرّجت منها باكرًا وبامتياز... مارست مهاراتها، وتفوّقت على أمها وبنات جيلها. كان لها من اللباقة ما جعلها تختلس طريقها إلى الصدور: «مِلْسْنة وقوية»، تقول عنها الجارات. ويضفن: « وإلها سطوة»... وتسأل إحداهن: «بَسْ قولولي... كيف بتشم ريحة الخبر؟»...

وهنّ غير مقصرات في شم روائح الأخبار والشائعات، إِلَّا أنّ واحدة منهن لم تتوصل إلى مجاراتها وبلوغ مرتبتها، فكان عليهن الاعتراف بأنّ لها موهبة تفوق مواهبهنّ جميعًا.

ولم تفقد موهبتها بعد الزواج. بل ساعدها على تكثيفها وتعميقها طبع الرجل الذي تزوجته: «بو هاني؟ طُبّني، طبّتك العافية»، تقول عنه الخبيثات، ثم يُضفن، زيادة في الإيضاح: «اسم على مسمّى»، وتزيد إحداهن عبارة تقهقه لها الحاضرات: «هي الطنجرة، وهو غطاها»...

43

لكنّ أحدًا لا ينكر، أَنَّ الرجل «لطيف، شغِّيل، وأب عطوف، ومواطن صالح، لا يؤذي نملة»... وتعود الخبيثات إلى وضع اللمسة الأخيرة على صورته: «كان ناقصها تكاري عليه»...

ولو لم تكن هذه طبيعة الرجل، أوَكان يحتمل زوجة، مثل أم هاني، انتدبت نفسها لتكون العين الساهرة في الجورة، ولسانها اللاذع؟...

ولسان أم هاني ذو سطوة: «يا رب تنجِّينا، مثل المنشار، عالطالع والنازل»، تتابع الخبيثات نخلهنّ للمرأة التي تغربل الجميع... وهو كلام يتسرّب مُواربة، ومن خلف ظهرها.

لكنّ نفّوج لم تحسب حسابًا لغضب أم هاني. ولا رضخت لتهديدها. كان موضوع واحد يسيطر على وعيها، ويطغى على مشاعرها، ويشغل بالها: «ماذا تراها تقول؟ وكيف تتصرّف؟»...

لو عرفت أنّ الوضع سوف يكون محرجًا إلى ذلك الحدّ، لما رضيت بالوقوف للشهادة. لكنها، في الوقت نفسه، تعرف أنّ القضية قضيّة أمانة وثقة. وهي محافظة على ذلك بكل قواها.

وبالتالي قرَّرت أن تلزم بيتها، ولا تتفوّه بحرف إلى أن تنجلي الأُمور.

وتقضي التقاليد، لو سارت الأمور على الطبيعة، بأن تحمل القميص المبقّع بالدم، في اليوم التالي للزَّواج، وتعرضه على كل مُشَكِّك، معلنة، وبفخر، نجاح المَهَمَّة.

44

خرجت أم هاني من زيارة نفّوج، هائجة مائجة. وراحت تتلفّت حولها، وتتنصّت، كي تلتقط، وتسجل مناخ الجورة، ومزاج أهلها.

صدمت سمعها أصوات، يختلط فيها اللغو بالضحك. وكانت قد بلغت دار أنجول، «الأرملة الموحودة» مثلما يسمونها، وأدركت أنّ الجلسة معقودة فوق المصطبة الشرقية، حيث تفرش الدالية مظلتها الخميلة.

خفتت الأصوات، إلى مستوى الهمس، حالما وقعت الأبصار على أم هاني، وهي تسعى في الزاروب، وكأنها تتبع خطًّا مغناطيسيًا هاديًا.

وصلت، وسلّمت، واستُقبلت بحماسة وترحيب. وانخطفت الكلمات خجلًا أو خوفًا، فللمرأة سطوتها المعروفة:

– أصواتكن واصلة عالكروم... خير انشالله؟

أطلقت عبارتها، تجسّ بها نبض الجماعة.

وردّت أنجول باسم الجميع:

– ما فيه إلَّا الخير. قاعدين عارَوَاق. تفضّلي استريحي...

وتدخلت وردة بصوت مرح:

– رُشّي علينا ملحك وبهارك... شو في جديد عندك؟... خبرينا.

مسحت أم هاني الجماعة بنظرة سريعة، و«جَرَضَتْ» بريقها، ثم صرّت شفتيها بغنج قبل أن تردّ:

– الهيئة الجديد عندكن... عجين مين عم بتقرّصوا من غير شرّ؟

ردّت وردة ساخرة:

– شوفوا مين عم يحكي! ما تتعشّينا قبل ما نتغدّاكِ... يلَّا خبّري... وين كانت آخر زيارة؟

فانطلق صوت متردّد:

– أكيد عند العرسان...

والتقطته أنجول متابعة الحوار:

– حقًّا، شو أخبار العرسان، يامّ هاني؟ عم بيقولوا نفّوج رجعت عابيتها... شو القصة؟

– والله علمي، علمك، يا أنجول.

طرحت أم هاني جوابها باختصار، لا زهدًا بالكلام، بل طمعًا بالمزيد. فهي تريد أن تكسب الوقت، لتعرف كيف تتسلم زمام الجلسة. لقد أدركت بحدسها أنّ الجماعة متلهّفة لسماع أخبارها. وصلت في وقتها (سوق الكلام حامي، والشاطر يعرض بضاعتو) وهي تشاء أن تشتري قبل أن تبدأ البيع.

45

إذا كان للكلام مواسم، فهذا وقتها، ومصطبة أنجول سوقها الرائج.

راحت السيدات يَتبارين في الحوار، وكل واحدة تشارك بأفضل ما لديها. وبقيت أم هاني صامتة، وهذا ما سمح لوردة بأن تخوض الجولة ببراعة:

– يا بنات، اسمعوا منِّي، ولا تصدّقوني، الهيئة زواج ليَّا وعبدالله رَحْ يفرط...

قالت ذلك، وأصابع يدها اليمنى تمسك قبتها، تنفضها، بحركة يفهمها الجميع، وتعني أنها لا تُحَمِّل ذمّتها...

فتصدّى لها صوت أنجول، هذه المرّة مداعبًا:

– يقطع لسانك، شو لَبْلابْ...

وضحكت وردة للمداعبة وتابعت:

– ما بتصدقوا، اسألوا نفُّوج، لفّت ذنبها، وانضبِّت عالبيت: تي تي، تي تي... مثل ما رحتي جيتي... بس أنا قلت: «اسمعوا منِّي ولا تصدقوني».

هنا تدخّل صوت متردّد وخجول:

– خلّونا نسمع أم هاني...

وأيّدته أنجول:

– إيه، شو قلتِ يامّ هاني؟ بوجهك حكي... يلَّا سَمّعينا.

فتلفّتت أم هاني حولها، لتتأكد من أن الإصغاء تام قبل أن ترد عليها:

– عن قريب، رح تسمعوا خبار وخبار...

فهتفت وردة:

– حاجتك دلع، احكي علمْشَبْرَحْ...

– رح احكي... الهيئة مثل ما قلتي، نفّوج رجعت عابيتها، وسكّرت وراها السبع بواب...

تقدمت أنجول تناولها فنجان قهوة وهي تردّد:

– أنا قلت هالعجلة مش بلا...

ووافقت وردة:

– بيقولوا... العجلة من الشيطان...

حين انفضّ عقد الحلقة، توجَّهت أم هاني إلى بيتها، لتتفقَّد حال زوجها وأولادها. وبقي السؤال المُهم معلّقًا في الهواء، أمام عينيها: «شو ممكن يكون السبب؟...».

وانتظرت أن تأتيها الأيام المقبلة بالجواب.

46

بدأت الأخبار تنضح من مسام السقوف والجدران... تتسرّب من تحت الأبواب والعتبات... وتعهّدت رحمة، شقيقة عبدالله، رَفْعَ علم القضية.

كان قد انقضى أسبوع على الزواج، حاول خلاله العروسان حفظ ماء الوجه ومراعاة التقاليد، فقاما مع الأهل بالدخول إلى الكنيسة، و«رَدّ الإِجر» لأَهل العروس. وكان الناس يقرأون فوق الوجهين إشارات مختلفة عن تلك التي ترسمها نقلاتهما. وراحت الشائعات تتصعّد يومًا بعد يوم، فترفع درجة الغليان في عروق الجورة. ولم يعد ينفع انعزالهما داخل البيت في إطفاء النار. حتى صمت الدار كان يرسم إشارات تؤكد أنّ «لا دخان بلا نار» وأنّ الحقيقة ستُعلن.

وانفجرت الفضيحة... مثل صاعقة أو بركان، فقصمت ظهر مرشد ضاهر وزوجته: «عبدالله ناوي عالطلاق».

ولا حاجة للبحث عن السبب... في مثل هذه الحالة السبب واضح ومعروف. والشهادة الدامغة في يد نفّوج: الزواج لم يتمّ. لم يُختم ببقعة الدم، رمز الشرف وعلامة العفَّة.

وأكدت ليًّا شائعة الطلاق، بالفعل، عندما رجعت، ذات ليلة، إلى منزل والديها.

47

مرشد ضاهر رجل آدمي، ولا يؤذي نملة. يعرفونه «رجل حقّاوي»، يأخذ الناس برأيه عند الحاجة. وهو ملَّاك، مكفي، «كافي الناس خيرو وشرّو»، على رأي أهل الجورة. لا يتدخل في شؤون الناس، ولا يتسبب بسوء. وسيدة، زوجته، مثله. قلّما تخرج إلى مجالس النساء. تقوم بواجباتها في الأفراح والأحزان. وتواظب كل أحد على حضور القداس: «تمّها دافي وأخلاقها رضية»، تشهد أم هاني. لم يُسمع عن لسانها أيّ كلام بحق الآخرين. ولا تُتداول أقوالها في مجالس النميمة. وهي بالأخص، تحافظ على سمعة البنات، ولا تتناول واحدة منهن بما لا يسرّ. وإذا حاولت إحدى الخبيثات استدراجها، تغلق الباب بعبارة مأثورة: «الله يستر عا كل البنات... كل الناس خير وبركة».

وهذا ما ربَّت عليه أولادها. وأبوهم وجَّههم إلى التركيز على أشغالهم، وكل ما يخصّهم، حتى لا ينشغلوا بالناس. وكان الناس يضربون بهم الأمثال،

وخصوصًا أنّ رامز ويعقوب يرعيان العائلة من بعيد، ويرسلان «البوليصة» آخر كل شهر.

وليًّا نشأت في جو من اللطف والمحبة جعلها تتفتح، وتنمو، وتشرق، وتعطر الجو بسمعتها: «صيتها مسك وعنبر»، شهادة مكتسبة بفضل سلوكها. لم يُلاحظ عليها طيش أو خفة تصاب بها الفتيات في مثل عمرها. ولم يُسجَّل أنهم أبصروها تخاطب شابًّا في الطريق.

الجماعة تسجِّل وتعرف. والفَرد خاضع لمقاييسها المعروفة، وهي التي تُربّي، حين يغيب الأب أو الأم.

48

والحقيقة أَنّ الأبوين في الجورة، يربّيان أولادهما، ومعهما يشترك الآخرون: العائلة الموسّعة والجيران، والأقارب، وحتى الأغراب! لكلّ فرد الحق في أن يتدخَّل ليقوِّم سلوك طفل. ينهره إذا أخلّ بالأدب والسلوك العام. لكل فرد «مَوْنَة»، يقولون في الجورة: «والله بتمون يا خيي»...

يوافق الأهل على التدخل، ولا يعترضون. وحظ البنت من تربية الجماعة، هو الأَوفر. فكل امرأة، يمكن أن تصبح أُمَّها، عندما تدعو الحاجة، وكل رجل يكون لها أَبًا.

إنّما أولئك الناس الممتلئون عاطفة وغيرة في الأوقات العادية، يُنْقَلبون إلى أفاعٍ تنفث السمّ في عروقها. وخصوصًا ذلك الكلام الذي سمعته من والديها.

49

لم تكن ليّا تدري أَنَّ الحياة تخبّئ لها كأس السم والعلقم. وكانت لا تزال مبهورة بأنوار العرس، محلّقة مع أنغام الفرح، ومستعدة لأن تعطي وتقدّم نفسها إلى غريب تَحَوَّل، بين يوم وليلة، إلى سيد مقاديرها ووليّ أمرها!

بكل الإرادة والاستعداد وهبته جسدها. وإذا لم تكن مدفوعة بالحبّ، فبذلك الشعور الذي يتربّى في صدور البنات، منذ أن يتفتح وعيهن ويتعمّق، يومًا بعد يوم، بفعل الاقتداء، والسلوك، والكلام. حتى إذا بلغت ذلك الحدّ، تكون كل الستائر مسدلة على عقلها، ووعيها... تمامًا كالنقاب الذي ترتديه في حفلة زفافها، ومن خلاله تبصر الواقع، غامضًا، ومقبولًا.

زوّدتها أمها بعض النصائح، بالتلميح والإشارة:

«ما بدّي وَصِّيكِ»، قالت لها، واعتمدت على ذكائها لتفهم. وهي، وضعت ثقتها فيه. بل حين اقتربت يده، تزيح الطرحة عن رأسها ووجهها، شعرت بكل الأحاسيس، تلتقي دفعة واحدة، لتهزّ كيانها، تكهربها، وتسقطها ثمرة شهية، ناضجة في حضنه.

تجاوزت خجلها، وتقدمت نحوه.

حنت رأسها، وتقدمت نحوه.

أمسكت الوصايا والإرشادات شموعًا تنير لها الطريق، وتقدمت نحوه.

في أذنيها تزغرد أصوات الماضي، وتدفعها إليه. ألحان جميع الأعراس تتحوّل إلى أمواج وتجرفها صوبه.

الناس الذين عرفتهم، في بلدها، الأقارب والأغراب، يرفعون سواعدهم، سلالم ترتقيها، وتصعد إليه.

قلبها يرتعش. عصفور يخبط جدار صدرها، جدار كيانها، يحاول الخروج. وتمدّ يدها وتحكم إقفال باب القفص، ليبقى داخله، داخل الشرنقة، وتخرج هي الكيان الآخر المنفصل، المخدَّر الشعور والوعي... تخرج إليه ليلة بعد ليلة تستجيب لمداعباته، تستسلم لقبلاته، تحتمي، به، منه...

لم تدرك معنى لتصرّفه الغريب، في تلك الليلة... فبعد انقضاء أسبوع على الزفاف، راح يتحوّل من اللطف، إلى الخشونة. فجأة، نبت الشوك، مكان الشعر في يديه، وفوق وجهه وجسده! ولم تفهم كيف ولماذا صارت يده، ترتفع لتصفعها بدلًا من أن تداعبها.

ضربها بقسوة، ولم تصدّق! للوهلة الأُولى حسبت ما جرى تفصيلًا من طقوس الزواج أغفلته وصايا والدتها... ثم اختلج كيانها بالرعب، وهي تُبصره يبتعد عنها، ثائرًا كالوحش الكاسر، يتناثر الغضب والكراهية من وجهه مثل قطرات السمّ: – روحي، ارجعي عابيت أهلك... مين أخذك قبلي يا بنت ال... هَهْ؟ قولي...

لم تصدّق ما تسمع وما ترى. جمد الدم في عروقها، وأصابتها الرعدة، وشعرت بغثيان، فجرت إلى زاوية من الغرفة، وراحت تتقيأ في طشت للغسيل...

اختلطت دموعها بالقيء، بألسنة اللهب المتشظّية من عينيها. هبّات باردة وساخنة، ثم باردة تهب على كيانها؛ ومن أعماق جحيمها المستعر، سمعت نفسها تصرخ:

– بس أنا شو عملت؟ وين قصّرت معك؟...

لم يلتفت إليها، فتح باب الحجرة وخرج. سمعت وقع خطاه تبتعد، باتّجاه الشرفة. وفي تلك اللحظة، أبصرت نفُّوج، تشقّ الباب، وتتسلل إلى الداخل، وجهها صارم، وكأنّه وجه الديّان، ونظراتها تعارض لطف الكلمات وتسألها بذهول ودهشة: – شو صار؟ يا بنتي شو صار تا عريسك زعلان؟

حدجتها بنظرة أمضى من السهم ولم تردّ. بحثت عن ثوب ترتديه لتخرج، فمنعتها المرأة:

– السُتْرة، يا بنتي، ما تفضحينا... ارجعي، وانتظريه. لا تخلِّيه يزعل. ولا تشمّتي الناس فينا.

ولم تفهم لماذا اقتربت نفّوج من السرير، وراحت تعبث بالشراشف وكأنها تبحث عن مفقود.

أرعبتها كلمات نفّوج، فهي تهمس بها همسًا وتحكي عن الفضيحة. ولأَوَّل مرّة في حياتها تشعر بذلك الخوف المدمِّر يهزّها ويرعبها... خوف طفلة من مصير مجهول. لم تألف الحديث مع الآخرين عمّا يخامرها من أحاسيس. التفَّت على نفسها، ولجأت إلى مقعد، في الزاوية. وجلست، كسيرة الخاطر، ذليلة، تتساءل بينها وبين حالها عن سرّ ذلك الانقلاب الذي زلزل كيانها...

لم يعد عبدالله إلى الغرفة تلك الليلة. ولم تعلم أين قضى ليله، حتى طلوع الصباح. وهي لم تستطع أن تقاوم النعاس، فأغفت فوق الكرسي، مُخَدّرَة بفعل الصدمة؛ ولم تَصْحُ، إلَّا على يد أخته رحمة تهزّها بعنف، وصوتها يسأل بخشونة: – شو صار بينك وبين خيي؟!

كل حرف حَربة تطعنها في أحشائها. بأيّ حق، تتدخّل هذه المرأة، تتجرّأ، وتعتدي عليها؟!

حاولت أن تتجاهل السؤال، لكنّ وجه رحمة الكالح عاد يواجهها، بلا شفقة وبلا رحمة. وصوّبت إليها نظرات خارجة من جفاف عينيها وكرّرت سؤالها:

– شو صار بينك وبين خيي؟ هاه؟... كل الليل نايم عالكرسي، بالصالون.

فتمتمت شفتاها، لتكفّ عنها شرّ المرأة:
– ما صار شي.

50

عبارة بريئة، ساذجة. جواب بسيط وصريح. فلماذا تنتفض رحمة، وتثور؟ خرجت من الغرفة وهي تردّد جواب ليّا وتخبط رأسها بكلتا يديها:
– ما صار شي... تعوا اسمعوا يا ناس... ما صار شي؟! وكمان بتحكي؟ تعي، يا نفّوج، واشهدي. وروحي خبّري أمها وبيّها... وخبّري كل الناس...

51

لو أطاعت ليَّا مشاعرها، وردود فعلها، لخرجت من بيت عبدالله في تلك اللحظة، وعادت إلى بيت أبيها. لكنها خافت أن يكون ذلك أسوأ من البقاء. فهي تحتمل، وتتألم وتعاني وحدها. وقد تحوّل كل من حولها إلى عدوّ كريه. وكانت تخشى أن تبصر وَجهَي أمها وأبيها يُصابان بهذا التحول.
تعرف أنّها مظلومة. لم تقم بما يتسبّب بأذى أحد في الوجود. لم تقصد الإساءة إلى زوجها. هو أساء إليها... هو هاجمها وضربها وشتمها... وظلّت هي جامدة تتلقى، ولا تقوى على الدفاع عن نفسها.
مظلومة!
تعرف ذلك. وهو الشعور الذي سيلازمها، بعد اليوم، ولن يفارقها حتى ينجلي الغموض، وتظهر الحقيقة.
عادت إليها نفُّوج تقول بفجاجة:
– الهيئة ما أخذك يا بنتي؟ لازم تسايريه. بعدك صغيرة، يمكن ما بتعرفي.
جمدت نظراتها فوق الوجه الممصوص المجعفل، ولم تردّ... وكأنما صمتها مهماز يخز المرأة لتبرطع فوق جسد الضحية:
– أنا راجعة عابيتي. خلّي امّك تجي، وتدبّرك.

52

يركلونها بأرجلهم.
ينهالون عليها بسياط كلامهم.

يُمرّغونها في الوحل. يستنفرون طباعًا خبيثة، لم تعهدها في نفسها من قبل... وهي تتقلّص، ويصغر حجمها، بل تشعر بأنها تحوّلت إلى حشرة، كالصرصار أو الخنفسة. حشرة حقيرة، تُداس بالأقدام... تُهان وتَزحف، في أحطّ المسالك.

وبالأَمس، فقط... بالأمس، كانت ليًّا أميرة، بين بنات الجورة!...

53

وصلت أمها قبيل الظهر. تظاهرت باللطف، واقتربت تمسح بيدها فوق خديها... تتلمّس الوجنتين الذابلتين، والعينين الكسيرتين؛ وقد هالها التحوّل الذي طرأ على ابنتها، مثلما هالها سماع نفُّوج، تروي لها ما حدث. أمها، أيضًا تريد أن تعرف: – يا بنتي، بِنَّا نعرف كيف نتصرَّف. شو القصَّة بينك وبين عريسك؟ خبريني.

نفرت دموعها غصبًا عنها. وراحت تشهق، وتبكي...

سيول من الدموع انهمرت فوق وجهها، ويديها، بلَّلَت شعرها، ويَدي أمها، والمناديل، ولم تتوقف. سندتها الأم بذراعها، محاولة أن تُسكتها:

– مش وقت البكا... يا ليَّا، الناس ناطرة فَرْكِةْ كعب، حتى يحملونا ويدوروا. خبريني حتى أقدر ساعدك.

استجمعت شجاعتها، ورفعت وجهها إلى أمها:

– ما في شي خبّرك غير إنو تزوجت وحش. ضربني. سبَّني... وحش. رجِّعيني عالبيت. ما رح أبقى معو.

– هُسْ... اسكتي. ما تخلّي الناس تسمعك. هيدا زوجك. يا بنتي، بَدِّك تتحمّليه... السترة واجب.

ماذا تقول أمها؟!...

وهل تقف، أمها أيضًا، في الصف الآخر؟... تقف معه، ضدّها؟!...

تمنّت، في تلك اللحظة، لو تستطيع الهرب إلى الحقول، إلى الكروم، إلى برّية، تبعدها عن الناس. كل الناس. لكنها مكبّلة بجهلها. مربّطة بحبال خوفها، الذي لم يعد خوفًا منه، بقدر ما هو الخوف من أهلها، من أبيها على الأخص.

وإذا كانت أمها تقف منها هذا الموقف، فماذا سيكون موقف أبيها؟!

54

كانت سيدة غير ملمّة بكل ما حدث. وحسبت أنّ الأمر يمكن أن يُسوَّى، إذا هي تدخّلت مع ليَّا، وربما وجّهتها. فالبنت صغيرة، وجاهلة. وهي ربما قصَّرت في إعدادها... لكنّ لقاءها مع عبدالله، انتزع منها آخر أمل. إنّه مصمّم على إرجاع ليَّا إلى بيت أبيها، لأنها، عند حدّ قوله، «مش بنت»، فاقدة عذريتها... وكانت رحمة تزيد طين الكلام بلَّتين، وتبصم موافقة على كل ما يتفوَّه به أخوها: – الأفضل إنكن تْلفلفوا القضية وتضبّوا بنتكن... خيي ما بينضحك عليه...

وسيدة، القادمة للمصالحة، ورأب الصدع في العلاقة بين الزوجين، لم تتمالك من أن تردّ على هذه الإهانة بما يوازيها، فقد استفاقت في نفسها كل المشاعر السلبية... استنفرتها عبارات رحمة وتحدّيها...

قالت لها وهي تلجم غضبها:

– بنتنا مش مرْبى الطرقات... انتو بتعرفوا مليح. ولولا هيك ما ركضتوا وراها.

واكتفت رحمة بضحكة استهزاء، وصبّت مخزون الحقد، والخيبات المتراكمة في صدرها في كلمة مختصرة:

– مْبَيّن عليها.

55

انتظرت ليّا حلول الظلام، لتخرج، عائدة إلى منزل والديها. كانت تسير في الطريق، متمهّلة، تحسّ بالدوار، وبثقل يشدّها إلى الأرض، وكأنّ الطريق تحوّل إلى مستنقع وحول متحركة، تغرقها، وعليها أن تصارع، لتستطيع بلوغ الشاطئ...

اختارت طريق «القادومية» الضيق، حتى لا تلتقي أحدًا من الناس. وما إن وصلت إلى باب الدار، حتى تجسَّد لها الوضع بوضوح، وتَمَنَّت لو تنشقّ الأرض وتبتلعها، قبل أن تواجه عيون أمها وأبيها وأختها الصغرى، أسماء...

ولكن، إلى أين تهرب؟

الباب ينفتح. أمها تواجهها، عابسةً كلَيلَة ظلماء. ألقت عليها تحية المساء، فلم تردّ عليها، بل مدّت يدها، وشدّتها إلى الداخل، ثم أغلقت الباب، وراحت تولول:

– مسا الخير؟ وِلِكْ أيْ مسا، وأي خير؟ يا مصيبتنا! يا فضيحتنا! يا شماتة الناس فينا. ولك كيف لنا عين نواجه أهل الضيعة، يا بنتي... ي... ي... يا مصيبتي... ي... ي؟!

56

لو دخلت ابنتها جثة هامدة، لما كانت ردود فعل أمها أعنف من ذلك.

راحت تخبط رأسها، تنكش شعرها، وتلطم خدّيها، وفخذيها، وتولول، فتزيد الفتاة خوفًا فوق خوفها، وتضيف بؤسًا إلى بؤسها.

تسمّرت ليًّا عند المدخل، وفكرت في الرجوع... ولكن إلى أين، والليل في الخارج، مثله في بيتها، وفي قلبها؟! وفي تلك اللحظة، أبصرت والدها، يخرج من غرفته على صدى عويل زوجته، تأملها لحظات، بنظرات حزينة جامدة، ثم استدار ليعود إلى الداخل. تقدّمت ليًّا باتجاهه، متمنية لو يغمرها، ويُزيل حزنها وألمها، مثلما كان يفعل، في ماضي الأيام، وعندما كانت طفلة. لكنه لم يُعطها المجال. لم يفتح لها طاقة واحدة من طاقات الأمل.

وسمعت نفسها تردّد هامسة:

– وانت كمان يا بيي؟!

57

آه لو تنشقّ الأرض، وتطويها... لم يَبقَ لها مكان في الوجود. مرفوضة حتى من أقرب الناس إليها، ومن سبب وجودها في الكون.

مرفوضة، لا من زوجها وحسب، بل من أمها، ومن أبيها.

خرجت إلى المصطبة الصيفية، وتكوَّمت على طرف حشية وأسندت رأسها إلى الجدار، وأغمضت عينيها، لا لتنام، بل لتقفل كل النوافذ المؤدية إلى خارج مساحة جسمها.

وحين فتحت عينيها، كان القمر قد ارتفع بضعة أمتار، من خلف جبل حرمون، فأبصرت وجهه القديم، وأحسّت بأن إشارة الغضب ترتسم فوق ذلك الوجه. حتى القمر، ساخط عليها!...

حتى القمر؟!...

أطبقت أجفانها، انطوت على ذاتها، وارتمت في أحضان الحزن والتعب. وأغفت.

ولم تَدْرِ كم طالت غفوتها عند حافة المصطبة. فقد استيقظت على يد رقيقة، ناعمة، تمسّد ذراعها، وثانية ترتفع إلى وجهها، وتمسح ما جمد فوق خديها من دموع. وسمعت صوتًا يغمرها بالعطف والحنان: – ليّا، قومي. حضرت لك الفرشة.

58

قالت أختها، بعدما أغلقت الباب، وتمدّدت قربها، فوق الفراش:

– أنا صلّيت، يا ليًّا، حتى ترجعي. صلّيت ليسوع، للعذرا، ومار جريس وكل القديسين.

ابتسمت ليًّا من أعماق ظلمة نفسها. وعجبت من أنه لا تزال لها القدرة على رسم ابتسامة فوق شفتيها الجافتين. أتراها الطبيعة، تتغلّب على كل ما يعيق مسيرها؟

تأملت أختها الصغرى بنظرات منكسرة، والأَسى يحزُّ قلبها، والحزن يستولي عليها، وتمنّت لو تستطيع أن تُخرج أسماء من هذه الدوامة. لو تغمرها، بذراعيها، وتطير بها، مثلما كانت تحلم في بعض الأوقات، وهي تداعبها، وتضحك معها، وتغني لها...

هذه طفلتها المدللة... على ذراعيها تربّت، وفوق كتفيها كبرت. وهي أقرب إليها من أمها... بل هي أمها الصغيرة.

– ليش يا ليّا، ليش أهلي زعلانين؟

تسألها أسماء، بثقة وبساطة؛ تطرح عليها سؤالًا تتمنّى لو كان لديها الجواب عنه. ماذا تقول؟ كيف يمكنها أن تخبرها بما لا تعلم؟ وهي تعوَّدت أن تكون صادقةً مع أختها فلا أسرار خفية بينهما. وبدافع تلك الثقة العمياء، تسألها الصغيرة غير مدركة كيف يمكن أن يكون وقع السؤال في نفسها.

فرمقتها بصمت، قبل أن تجيب:

– تخانقت مع عبدالله...

كلمة «خناقة» مألوفة. أسماء «تتخانق» مع الرفيقات، كل يوم، «تتخانق»، وتتصالح. ذلك أمر عادي. وفكّرت ليّا أن ذلك قد يقنع أسماء، وتكفّ عن طرح

الأسئلة...

لكنها أساءت التقدير. ففي صدر الصغيرة قلق يعذّبها، وتحاول أن تخفّفه بنصب جسر الكلمات:

– وليش تخانقتو يا ليّا؟

تحشرها أسماء. تريد معرفة السبب «ليش»؟! هل عندها هي جواب عن ذلك السؤال؟ فأحكمت ذراعيها حول جسم الصغيرة وهمست:

– ما بعرف، يا حبيبتي... صدقيني، ما بعرف.

تلمّست أسماء خدّها مطمئنة:

– ما تخافي يا ليّا... بكرا بيي بيصالحكن...

لم تعلّق ليًّا على كلام أختها... تركتها عند حدود الأمل السرابي... يجب أن تجنّبها، ما أمكنها، ملامسة أشواك الواقع.

وها هي، الآن في غرفتها، وبقربها أختها الصغرى، مثلما كانت في السابق، وقد محت المعانقة، تلك الغمامة السوداء، من ضميرها، ولو إلى حين...

هل هي حقًّا، مرّت بتلك التجربة؟ أم كان حلمًا مراهقًا، خُتم بكابوس؟

لو تتحوّل هذه الغرفة إلى شرنقة، وتُسدّ الثقوب والنوافذ، وتبقى مع أسماء، تستمدّ من براءتها هدوءًا وطمأنينة.

أسماء، شعاع النور الوحيد في وجودها.

59

وتسلّل الشعاع عبر الأنامل الناعمة، داخل الظلام المخيّم على كيانها، ففتحت عينيها، وأبصرت الوجه الرضيّ يشرق عليها:

– بيي ناطرك، مع أبونا الخوري، بالصالون.

هبّت ليّا، وقد تمشّى الذعر في مسارب دمها، كتيار مكهرب:

– ماذا يريد الخوري؟

ارتدت ثوبًا قديمًا، وربطت منديلًا حول شعرها، ثم جرّت قدميها، إلى غرفة الضيوف.

هذا هو الكاهن، الذي رفع يده، وبارك زواجها. وها هو قادم، من جديد! ماذا يريد منها؟

انحنت، تقبّل يده، كما تقضي العادة والتقاليد، ثم جلست بناءً على طلبه، وجسمها يرتعد، مثل حيوان مذعور:

– بدّي احكي معك كلمتين يا ليّا...

– أنا بأمرك يا أبونا.

لم ترفع بصرها عن الأرض. وانتظرت. ولم يطل انتظارها. سمعته يتابع:

– يا بنتي، عبدالله طالب الطلاق، وحكيت مع بيك... هيك أحسن، إلك، وإِلو.

– أنا بأمركن يا أبونا. ومثل ما بيريد بيِّي.

وكان يمكنها التوقف عند حدود الكلمة الأخيرة، لكنها، ومن دون أن تدري من أين جاءتها الجرأة، سمعت نفسها تسأله:

– بس، أنا مِن حقِّي أعرف، يا أبونا، شو هو سبب الطلاق؟

ساذجة ابنته...

فكّر مرشد، وهو يحدجها بنظرات نارية... بل مضى في حكمه إلى حدّ أقسى، فردّد بينه وبين نفسه: «بلهاء. بعدها ما بتعرف... ما اشْتَلَقَت؟ وبتريد تعرف؟».

انتظر ردّ الكاهن، وهو خبير، محنّك ولا تعصاه الكلمات:

– يا بنتي، كل الأمور عم تترتَّب مع الوالد. ما يكون لك فكر، ما بيصير إِلَّا على خاطرك.

شعرت بالضيق. لا تريد هذا اللطف المُرائي. تُفَضِّل القسوة مع الحقيقة، على كلام مبطّن، يُبقيها في مناطق الشك، وأقاليم الظلام.

لكن الكاهن اكتفى بالتلميح. ودعاها أبوها إلى الخروج، كي يتسنَّى للرجلين متابعة الحديث.

دخلت غرفتها، ورأسها يدور بها، ولا تدري، هل ذلك بسبب ما سمعت، أم أنه نتيجة طبيعية لبقائها بلا طعام.

أبوها، مع الكاهن، يقرِّرَان مصيرها.

عبدالله، وأخته، ونفّوج، يقررون مصيرها.

أهل الجورة، «عن بكرة أبيهم» يقررون مصيرها. وقدرها، يقرّر لها. وهي لا تدري، ماذا يخبئ لها من مفاجآت بعد؟

جالت بفكرها، بين الوجوه، والمطارح، ولم تبلغ طرف واحة، إنّها في صحراء بلقع. تهدمت جسور الأحلام والآمال، وكانت، فيما مضى، تحملها، في أوقات اليأس، إلى أقصى الكواكب.

دخلت أسماء من جديد، حاملةً صحنًا فيه بعض الفاكهة، عنب، وتين، وعروس لبنة:

– كلي يا ليّا. كلي لقمة، كُرْمَى لي.

قدّمت أسماء الطعام، وجلست تنتظر. ولم تَقوَ ليًّا على رفض طلبها، فتناولت خصلة عنب، وراحت تنتقي حباتها، وتمضغها من دون نَفْس.

لكنّ جوعها لم يلبث أن استفاق، وشعرت بأَلم في معدتها، وتذكَّرت أنها منذ يومين لم تَذُق طعامًا. أكلت بعض الخبز، وكوز تين أسود، فأحست بالانتعاش. ثم غمرت رأس أسماء، وهي تتمتم: – كثر خيرك ياختي. شو كنت بعمل بدونك؟

أثارت هذه الكلمات مشاعر الصغيرة فنهضت وحملت الطبق، وخرجت مسرعة، كي لا تلحظ ليّا دمعتين، هطلتا من عينيها مثل حبتَي لؤلؤ.

لم تفقد ليّا وعيها، كُلَّه. بقيت، رغمًا عنها، تسجّل ما يدور حولها: أمها تتجنّب مواجهتها بعد الليلة البارحة. أبوها يخرج. الناس لا تطرق بابهم. الناس، الذين تَعَوَّدوا، في كل وقت، أَن يأتوا لزيارة قد تطول وقد تقصر، تبعًا للغاية وللمناسبة... حتى أم هاني، لم تمرّ عليهم كما كانت تفعل! ماذا تقول أم هاني؟ أَوَلا تزال تدعوها: «الأميرة؟»...

وفوق أية مصطبة، تنشر بضاعتها الآن؟

60

لم يطل الأَمر بالمحكمة الروحيَّة، فاتخذت قرارها بالطلاق.

حتى الناس، الذين لا ناقة لهم ولا جمل تعجّبوا من السرعة التي اتَّخذَ بها، المطران، قرَارَه، معتمدًا على شهادتَي عبدالله و... نفّوج!

لم ينفع اعتراض مرشد، حين جمعوه بالمطران، ولا قَسَمه، بأن ابنته بريئَة من كل تهمة... كان كلامه ضعيفًا لسببين مهمّين: هو أبوها، إذًا شهادته فيها مجروحة. ولم يكن في يده برهان يدحض حجّة عبدالله. والبرهان الوحيد

المعترف به، هو بقعة الشرف. صرفه المطران، بصراحة، وحزم وباختصار شديد: – يا بني، كلامك ما إلو قيمة، بدون الشهادة.

وجاء من ينصح مرشد بأَن يرفع دعوى أَمام الكرسي البطريركي. لكنّه رفض كي لا يزيد في أسى ابنته، ويوسّع دائرة الفضيحة. كما كان واثقًا بأنّ البطريرك قد لا يأخذ بكلام فلّاح، ويعاكس حكم المطران. واحتمى الرجل بإِيمانه، وحكمة السنين: – بيننا وبينهم الله...

لكنّ زوجته لم ترضخ. فبرغم ثورتها في وجه ليّا، كانت سيدة تحسّ في أعماقها بأنّ ابنتها مظلومة... والخطأ ليس خطأها:

– مظلومة يا ميمتي...

استقبلت زوجها بدموع القهر، وراحت تضرب صدرها بشدة:

– اشتراهم، بالمال... بزمانو ما صار طلاق بهالسرعة... شيبة النحس، مثل غيرو، بينشرى وبينباع.

كلامها يصدم سمع زوجها. إِنه يصيبُ كَبِدَ الحقيقة. هذه هي المرأة التي كانت تتبارك من ذكر القديسين: الكاهن والمطران... تقف على يد كلٍّ منهما، تقبّلها، تُقبِّل أطراف أردانه... لا تجرؤ، في حضرته، على أَن ترفع عينيها إلى وجهه... كأَنها في حضرة الله!...

شعر مرشد بأَنّ زوجته على حقّ، ولكنّها، مثله، لا تملك أَيَّة حجَّة أَو برهان، وكل ما يُقال، بعد الآن، هو كلام. والأَفضل، أن يحسم الأمر، بأقل عدد من الكلمات:

– هالكلام ما عاد ينفع. شوفي شو بدك تعملي بالبنت.

فانتصبت له، بشراسة لبوة:

– افتروا عالبنت. ولد، ما بتعرف الخير من الشر... ظلموها...

ثم التفتت إلى زوجها، والدموع تهطل وتغمر وجهها، فأبصرته يدير إليها ظهره، ويتّجه إلى الخارج، فأطلقت كلمتها الأخيرة:

– ظلمناها...

فاستدار فجأة، ليخرسها:

– قولي لحالك... قلت: ما عاد الكلام ينفع. لازم نرجع للعقل، والصبر.

61

لم يكن أمام سيدة مهرب من مواجهة ابنتها. فمنذ الليلة البارحة، وهي تحسّ بأن قلبها يتفتّت، وضميرها يؤلمها، وصدى صوتها يعود إليها، يلسعها بسياطه، وينتصب في عينيها وجه ليّا، المعذّب، المقهور... وتتحوّل دموع ابنتها إلى قطرات نار، تلهب أحشاءها.

ليس أمامها مهرب من المواجهة، إن لم يكن من أجل ليّا، فمن أجل أن تنقذ نفسها، وتعود إلى ذاتها.

دخلت الغرفة، على رؤوس الأصابع، وأبصرتها ممدّدة على الفراش، وقد دفنت وجهها في الوسادة.

هذه ابنتها. طفلتها بالأمس. سندها اليوم. أية مسافة ترتفع بينهما الآن؟ ما الذي جرى، بين ليلة وضحاها؟ أيّ زلزال وقع، حتى تشققت الأرض، وارتسم هذا الشرخ العميق بينهما؟

مدّت يدها، لتمسّد شعر ليّا، مثلما كانت تفعل أيام كانت طفلتها الغالية، ومثلما فعلت، بالأمس، وهي تقبِّلها عروسًا، وتدفعها إلى ذراعي الرجل الغريب، وتراجعت اليد تلقائيًّا.

وتساءَلت المرأة عمَّا إذا كان «ما كان» ممكنًا؟

وهل يأتي يوم تُلغى فيه الهاوية التي ارتفعت، وباعدت بينهما؟ وقفت تتأملها، في هدوئها بينما تتخبط هي، وسط عواصف خوفها وقلقها. وتساءلت عمَّا إذا كان المظهر الخارجي يعبّر عما يتفاعل في صدر ليّا.

وكأنما تيار فكرها، مسّ أعماق الصبية، فأبصرتها تتقلّب، ثم تفتح عينيها الخضراوين، على وسعيهما، وقد زادهما الحزن والانكسار جمالًا. ولما أبصرت أمها، هبّت جالسة، وانتشر الذعر في كيانها... لم تَدْرِ ما عليها أن تفعل وكيف تتصرّف حيالها؛ فاقتربت الأم، تمسك بذراعها تحاول طمأنتها: – عاوزتك... بدي إحكي معك كلمتين.

وهي ليس عندها كلام لا لأمّها، أو لسواها. أمها تريد أن تحكي، فلتفعل. ماذا تريد أمها أن تقول؟ ماذا يريد الناس أن يقولوا؟ فلينطقوا. هي ليس عندها كلام لأَحد. حاولت أن تخرج، فمنعتها أمها، ودعتها إلى الجلوس قربها: – خبّريني عالهدا... شو صار بينك، وبين الأجْلَح؟

(بعد هذا التاريخ، لن تذكر إسم عبدالله. ألبسته لَقَبا يتلاءم مع صورته الحاضرة وجلحة شعره: الأجلح)

عصرَ الحزن قلب ليّا. لم يسبق لأمّها أن تحدثت معها في الأمور الحميمة، المتعلقة بجسدها إلَّا بالتلميح والرموز.

حتى التحوّل الكبير، الذي يطرأ على الفتاة، لدى بلوغها، حسبته مرضًا. لن تنسى، طوال عمرها، الرعب الذي استولى عليها، وهي تبصر الدم يبقّع ثيابها الداخلية. حاولت أن تغتسل فهربت إلى الحمام، ولاحظت أمها ذلك، فاقتربت تطيّب خاطرها وتهدئ قلقها: – مبروك. ما تخافي، يا بنتي صرتِ صبية... مبروك... بلغتِ...

يومها، شعرت ليّا، بأنّ كل الكلام اللطيف، في العالم، لن يستطيع أن ينسيها ذلك الإحساس المقلق الذي استحكم بها، وحفر له مكانًا، واستوطن، في صدرها.

وها أمها، تقفز من خلف تلك المسافات. وتحاول الاقتراب وتطلب التفاصيل. فبماذا تردّ؟ ماذا تقول لها؟ سمعتها تكرّر:

– لازم نعرف، أنا وبيّك، حتى نحميك. حتى ندافع عنك.

ردّ صوتها الذليل:

– بسّ أنا شو عملت، حتى تحموني، وتدافعوا عني؟..

فقالت الأم:

– نحن نعرف، أنو الحق مش عليك، لكن حكم المحكمة الروحية صدر لمصلحتو... بنّا نكفّ لسانات الناس. عم بيشيّع إنك مش بكريّة. فهمتي؟

حنت ليّا رأسها بانكسار ومذلّة. الأمور تختلط عليها، فلا تفرّق بينها. تلاشت قواها، ولم يعد لديها من العزم ما يسمح لها بالنطق. العجلات تدوسها، تسحقها، جسدًا وروحًا.

لاذت بالصمت، الباب الأسهل، والملاذ الأمين. لكنّ أمها لا تتراجع، تتابع وخزها بإِبَر أسئلتها. وهي لا تملك الجواب. لا تعرف الجواب. فالذي حصل بينها وبينه لم يكن مرشحًا لأن يُنقل للغير، حتى لأمّها؛ لأَنه السرّ الذي أوصوها بحفظه. فكيف تطلب منها أمها، إفشاء السرّ؟

اكتفت بالقول:

– بس أنا، ما عملت شي غلط...

ثم شهقت بالبكاء.

أشفقت عليها أمها، وشعرت بأنّ دموع ليّا تصبّ نارًا في حشاها. وهي، هي سبب تلك الدموع.

حرّكتها رغبة لاحتوائها في حضنها، مثلما كانت تفعل معها طفلة، لتحميها، وتعوّضها من هذا العذاب كله. غير أَنّها لم تجرؤ على أن تحقق رغبتها، فنهضت بهدوء، وانسلَّت إلى خارج الغرفة، وهي أشدّ ارتباكًا من وقت دخولها.

62

الشائعة وحش أسطوري.

نباتُ فطر يلتهم المساحات.

انطلقت الشائعة بين حارات الجورة وزواريبها، وراحت تدقّ كل باب، توقظ النيام، تفتح بتلات الزهور، وتتغلغل في أعباب الشجر.

لم يبقَ طفل، لم يبقَ شيخ، خارج دائرتها. تحوّلت الجورة إلى قفير نحل في فصل الربيع. وإلى طاحونة يدور رحاها فوق ظهر ليّا وأهلها.

والجورة التي احتفلت بها قبل أيام عروسًا حلوةً، سعيدة، باتت، اليوم، مستعدة لِوَأْدها...

ومثلما تعرف الجورة مواسم الجنى، وجمع الغلال، فإنها تعرف مواسم الثرثرة، ونشر الكلام السَّام.

الجميع راحوا يتبارون في تفصيل الكلام؛ يُؤَوِّلونه، يُخمِّنون، يتَّهمون، يحمِّلون الظنون. وإن صفت نفوسهم، يحاولون التبرير.

لاذَ مرشد ضاهر وعائلته بالصمت، والتزموا الهدوء. «حتى لا نزيد الطين بلّة»، قال مرشد وهو يوصي زوجته بأن لا تدخل في تفاصيل الكلام، وأضاف: «أهل بلدنا، ومنعرفهم. بِدُون دفّ بيرقصوا»...

ردَّت سيدة باستسلام:

– يمكن الحق معك. شو رح ينفع الحكي. خلّينا نقوم لشغلنا، وما ندير سمعنا للقال والقيل... الله يظلم اللي ظلمنا.

لم يعلّق على كلام زوجته، خبط الباب، وتوجَّه إلى المدّ، فجرَّ دابته، وحمل العدّة ومضى إلى الكروم.

في الطرف الآخر من الجورة، كان بيت آخر يغلق أبوابه في وجه الناس. حالما حصل على الطلاق، غادر عبدالله الجورة. وقالت رحمة: «سافر عا بيروت»، ولم تُفصِّل.

وبذلك تركت المجال للتساؤل: هل عاد عبدالله إلى أميركا؟ أم ذهب يبحث عن عروس جديدة؟

63

لم يكن قد انقضى أسبوع على سفر عبدالله، حين انعقدت الجلسة فوق مصطبة أنجول. وكان خبر عبدالله وليّا يتصدّر قائمة الأخبار.

– الهيئة عبدالله راح يخطب عروس بيروتية...

وتصدّت لها وردة، ساخرة:

– شو يَخْتي، بنات الجورة ما عاد يعجبوه؟

وتدخّلت أنجول:

– بيعجبوه، أوْ لَا، صعب يعود يتجوّز من بنات الجورة...

فتابعت وردة سخريتها:

– شو قولتك، بعد بيلاقي نعجة مسكينة، مثل بنت مرشد ضاهر؟

هذا التحوّل في الرأي العام، توصلت إليه الجماعة، حيال التصرف الذي بدا من ليّا وأهلها. فقد سدّوا الباب في وجه الأخذ والردّ... ولم يتركوا الفرصة لينقل أحدهم كلامًا عن لسانهم. وتركوا الثورة الفاجرة التي أشعلتها رحمة، تلتهم نفسها.

لذا، لم تعترض واحدة من الحاضرات على التسمية الجديدة التي اختارتها وردة: «النعجة»، وختمت أنجول الجلسة بالقول:

– الأيام باقية... وما بيصحّ إلَّا الصحيح...

أما في الوقت الحاضر، فما يشغل الرأي العام، هو أخبار عبدالله. فبعد انقضاء بضعة أيام على غيابه، أرسل يستدعي أخته والمختار، وحرّك بذلك التكهّنات، من جديد:

– شو قولكن، أخذها حتى تنقي عروس جديدة؟

– شو؟ بيروتية، أو شامية هالمرّة؟

– يلَّا... بنات الجورة مش معطلين.

– يسافر، الله معو. ولّع النار ودار ظهرو...

– ما هو أول الناس، ولا آخرهم.

كلام...

وطاحونة الكلام لا تكلّ، على المصاطب، فوق السطوح الصيفية، في الزواريب والحارات وفوق درب العين والكروم.

حكاية ليّا وعبدالله، حكاية الموسم. وكل من حضر يشارك... ناس مع، وناس ضد. انقسمت الجورة إلى فريقين، واحد ساخط على عبدالله. والثاني يغربل ليّا وعائلتها...

وكان أفضل ما فعله مرشد، وعائلته، أنهم التزموا الصمت، وابتعدوا عن الناس. ووجدت العائلة في العمل ما يخفِّف من ثقل الهمّ الجديد، والذي لن يفيد في تخفيفه أيّ كلام، بل يُترك للزمن، والنسيان.

وغياب عبدالله، خفَّف الحماسة، وبدأ الناس يعودون إلى أشغالهم، وشؤونهم. ولم تنتعش الأخبار من جديد، إلَّا بعد عودة رحمة:

– نعم، خطبنالو عروس بتدقّ لها النوبة.

أذاعت الخبر على مسمع من أم هاني وهي تُدرك جيّدًا، أنّه سيبلغ كل أذن في الجورة. ولم تفت المرأة المحنّكة، نبرة التحدّي في كلام رحمة، فردّت عليها بما يناسب:

– يلَّا... هيك بتحطوا حدّ للقال والقيل.

فتصدّت لها رحمة، بكل مكابرة وتجبّر:

– نحنا، ما مغبّر علينا حكي الناس. لا شرفنا انْمسّ، ولا سمعتنا توسخت.

تضايقت أم هاني، برغم طاقتها الهائلة على ابتلاع الإهانة. شعرت، بأنّ المرأة، توجّه، عبرها هي، الإهانة إلى ليّا وأهلها. فانتفضت مدافعة عن الغائب:

– ما في لزوم لكل هالحكي يا رحمة. ما حدا جايب سيرتكن بمنيح ولا وحيش.

مطّت المرأة عنقها، وقلبت شفتيها، وهي تطلق السهم الأخير:

– بعد ناقص!...

انسحبت أم هاني من لقائها مع رحمة وهي تداري مشاعر الخيبة. رحمة حريصة، لم تُفلت منها كلمة تشير إلى أصل العروس وفصلها. وكل المحاولات

في سبيل ذلك باءت بالفشل.

لكن السرَّ، لم يَبقَ سرًّا بعد عودة المختار.

64

عبدالله خطب.

تسرّب الخبر على لسان المختار. وَقَعَ اختيار عبدالله على نَزهَة، بنت أسعد البنّا. يعني العروس ليست من بنات الجورة.

ونزهة، لا تعرف الجورة ولا أهلها. لم تَدُس قدمها مرَّة ترابها. كانت تسمع بها، وبسواها من القرى، من حكايات الوالد. الطريق التي تصل ضيعتها «داريا» بجورة السنديان لم تكن معبّدة. وهي خط ضيق، يتعرج بين الشعاب والوهاد، شقّته الحمير والبغال منذ أول عهد الناس بالانتقال، حين كان المسافرون قِلَّةً من المغامرين الأشدّاء: المكارية، التجار، وأحيانًا البوسطجي والطبيب المغربي.

وأسعد البنّا واحد من أولئك الرُّوَّاد. مهنته بائع متجوِّل، ينقل فوق ظهر حماره الأغبر ما تيسّر له من بضاعة رخيصة، يشتريها من تجار الجملة، في «حاصبيَّا» ويحملها إلى القرى، والمزارع، يبيعها، «ويفكّ حكلة» ربات البيوت اللواتي لا تتوفر لهن فرصة الانتقال إلى أي مكان.

مرّة كل شهر، يطلّ وجه أسعد على الجورة. تنتظره الأمهات وبناتهن، مثلما ينتظرن ليالي العيد. يأتي حاملًا الطرائف: الحلى المزيّفة، الدمالج والأقراط، القباقيب المزخرفة بالصدف والمناديل (أبو أويا)، الجوارب والقطنيات والقمصان وأدوات الزينة... ظهر حماره مخزن متجوّل. وأسعد رجل عاقل «درويش وابن حلال»، ينزل الحمل في الساحة، وتلتقي حوله الشاريات، والمتفرجات... من أبرز خصاله الصبر، وهذا ما جعله يتحمّل مساومة النساء، وتنافسهُنّ على إبراز مهارتهنّ في الشراء وبأبخس الأثمان... ومع مرور الزمن، اكتسب أسعد ثقة الناس ومحبتهم، وصار صديقًا لكل عائلة، بل باتوا يحسبونه من أهالي الجورة، يسألونه عن عائلته فردًا فردًا، وكأنهم الجيران أو الأصحاب.

وفي يوم، حمل أسعد صورة فوتوغرافية لأولاده، قال إنّ مغتربًا عاد إلى «داريا» وأخذ هذه الصورة للأولاد. وتبدو نزهة، في الصورة، كبيرة أخوتها، صبية

حلوة. يومها أبصر المختار الصورة، وسجَّلها في ذاكرته. وكان ذلك قبل أربع سنوات... وحين عبَّر له عبدالله عن رغبته في العودة بلا زواج، لفته إلى أن يتزوج فتاة غريبة من خارج الجورة... ويبدو أن الفكرة راقت لعبدالله فسأله: – وكيف بدّي اتجوز واحدة ما بعرف أصلها ولا فصلها؟

فردّ المختار فورًا:

– المسألة بسيطة. نعرف واحدة، من خارج الجورة، أصلها وفصلها مسجّلين عنّا.

وكان يفكر في نزهة. وأخبره عنها، وأشاد بوالدها، بأخلاقه، وأمانته.

وتابع المختار سعيه، فدعا أسعد، حالما علم بوصوله إلى الجورة، ليزوره في بيته وعرض عليه الموضوع باختصار. ولما حاول الرجل أن يعترض، لأنّه فوجئ، كما قال، أسكته المختار بلباقة: – يا أسعد، بعرف سبب اعتراضك. كلنا منعرف القصة، وما في شي مخبَّا. بس بسلامة معرفتك، الشاب ما بيقلّد عليه. وعبدالله رجّال آدمي، ومن أنجح المغتربين. شو بدها أحسن من هيك نصيب؟

اضطرب أسعد، ولم يَدْرِ بماذا يجيب. وكان يفكر في زوجته، وابنته، وكيف يكون ردّ فعلهما حيال هذا الطلب؟ فَهو يعلم أنّ غيابه الدائم عن البيت قلّص حجم مسؤولياته وجعل الزوجة تتولّى شؤون العائلة. «تقضي، وتمضي» وأحيانًا من دون مشورته... كان ذلك يضايقه في بادئ الأمر، ثم لم يلبث أن تعوَّد، بل إنّه يشعر اليوم بالراحة، وهو يترك خلفه زوجة قادرة على النهوض بالأعباء، وإدارة دفّة السفينة، في غياب ربّانها. ومن جهة ثانية، كان يفكر في مرشد ضاهر، وما يمكن أن يسبّبه له طلب عبدالله، من ردود فعل سلبية. ومرشد وعائلته من زبائنه المفضّلين وهو، أسعد، يحبّ ليّا كواحدة من أولاده... فكر في ذلك كله، وحاول أن يشرك المختار: – إلنا الشرف... بس...

وقاطعه المختار المستعدّ لكل الامكانات:

– ما بطلب منك جواب، ولا أنت مربوط بكلمة واحدة. بس اعطينا فرصة، حتى يتعرف عبدالله عالبنت. ساعتها يبقى لكل حادث حديث...

وخرج أسعد، مقتنعًا بهذا الكلام. صحيح، الزيارة لا تربطه، وليس هناك مانع من استقبال عبدالله في بيته... وهو يفهم جيدًا معنى أن يبقى الباب مشرعًا للمساومة «الأخذ والعطا»... فأسعد، تاجر عتيق ولغة الحسابات لغته. وهو وإن

لم يكن حاذقًا بالكلام إلّا أنّه يدرك جيدًا أهمية اغتنام الفرص: – يا مختار، انت غالي، والطلب رخيص، أهلا وسهلا فيكم ببيتكم.

ولم يُضِع المختار الفرصة. مساء ذلك النهار، كان يزور عبدالله:

– ما بنّا قال وقيل...، يا عبدالله المشكلة انحلّت. ما بقي غير تتحرّك.

فوجئ عبدالله، ولم يُدرك معنى كلام المختار. وانتظره كي يتابع موضحًا:

– الخلاصة ما رَاحْ نخلّيك ترجع بلا عروس. صعب تلاقي بنت مناسبة، من الجورة. بس أنا بعرف عيلة من داريا. جماعة أوادم، ومشكورين، ومعروفين عِنّا، مثل أولاد البلد... بنتهم الكبيرة، نزهة، بتعجب خاطرك. حكيت مع والدها ومنتظرين زيارتك.

فاعترض عبدالله:

– صعب، يا مختار. هَيْك، من الباب للطاقة، بدُق الباب وأطلب البنت؟

وهوّنها عليه المختار متشجعًا بليونة لهجته:

– بالأول، روح زورهم... واترك الباقي عليّ...

65

هذا هو السرّ الذي يربط عبدالله بالمختار. وهو سرّ لم تتوصل أم هاني إلى كشفه بادئ الأمر؛ إلَّا أنّها أدركت بالحَدْس، وبتلك الخبرة والحنكة النادرتين لديها، كيف تسير الأمور في الجورة. ولم يُخامرها الشك في أنّ المختار «لازم يكون مدبّر الطبخة». لذلك، كادت تجزم، في الجلسة الصباحية عند أنجول، بأنّ المختار دبر كل شيء: «وبقصّ إيدي ان ما كان كلّو دبّارو»...

فقالت لها وردة معاتبة:

– لا تقصّي إيدك، ولا إجرك... انت شو نايْبِك؟...

ومرَّ فوق شاشة وعيها وجه رحمة، مثل لمع البرق، وعاد الصوت يطنّ في أذنيها... صوتها المتحدّي، الفاجر، فاندفعت الحماسة مع ردّها:

– بنّا مين يهدّي رحمة... زَنْبورها أكبر منها...

قالت وردة من دون أن تخفّف سخريتها:

– إيه... بيحقّلها، أخت العريس، يا بعدي.

وأكملت أم هاني:

– يا عيني!... يا عيني!... وهو عريس... ما شاالله! عنتر زمانو! ولك يلّا، عشنا وشفنا العجب.

وتدخّلت أنجول، معيدة الجلسة إلى مدارها:

– المهم الفرحة هالمرّة تتم عاخير.

66

عبدالله وضع ثقته بالمختار، ولم يتخلّف عن وعده له. رافقه فجر اليوم التالي، من دون أن يحدّد وجهة سفره، وترك الناس تخمّن: «راح على بيروت؟ راح على الشام؟ سافر لأميركا؟»...

تساؤلات مبطّنة بالشكّ، ظلّت تحوم ولا تستقرّ، ولا تجد من يردّ؛ إلى أن شعرت رحمة بأنّ الوقت قد حان لتُعلن النبأ، وذلك بعد انقضاء أسبوع على الزيارة:

– بالطبع الخبر مش سرّ، خطبنا لعبدالله... عروس، بتدّق لها النوبة.

ولم يرجع عبدالله، مع العروس إلى الجورة، فَتَوَلّت رحمة بث الأخبار بالتقسيط: «نزلوا عا بيروت قصّوا الجهاز... تكلّلوا... سافروا»...

فقالت أم هاني معلّقة:

– ومع ألف سلامة...

67

من النظرة الأولى، أعجبته نزهة، «البنت إلها طلّة، متعلمة وفهمانة» قال ذلك لرحمة ببرود، وكأنّ دهورًا انقضت على زواجه ثم طلاقه...

ونزهة استقبلته، وقامت بالواجب. بل كانت جريئة، إذ جلست بقربه، وراحت تحدثه، وتسأله عن المهجر، وعمله فيه. ولاحظ عبدالله أنّها تختلف في ذوقها عن بنات القرية، وتتميّز بلباسها الأنيق، وتصفيف شعرها، مثلما تَعَوَّد أن يرى الفتيات في أميركا. وقالت رحمة تزيده معرفة بها وبعائلتها: – أمها بنت عيلة محترمة. من بيروت... وبالطبع البنت بتطلع لأمها.

أعجبته هذه الفكرة. ذلك يعني أنّها تستطيع بسهولة أن تتآلف مع أجواء الغربة. ونزهة لم تُخْفِ عنه طموحها؛ فحين سألها عما إذا كانت تحب السفر أجابت:

– هَوْنْ ما في مستقبل.

فشجّعه جوابها ليتابع:

– وإذا صار لك، بتسافري؟...

فابتسمت، وركزت عينيها على وجهه بجرأة وقالت:

– بتتوقَّف...

أُخذ بجوابها «البنت ذكية، أنيقة، وفهمانة»، فتابع محاورتها:

– بتتوقَّف على شو؟...

وصمتت. نكّست رأسها، ولم تعد تتفرس في وجهه.

كانت تقوم بالدور، وكأنّها أَعدّت له، وجَرَّبت أداءه عشرات المرّات.

لم يفطن لذلك، لأنّه سُحِر بكلامها، وظنّه أعظم حديث سمعه في حياته. وشعر بأنّه في إمكان هذه المرأة أن تُدخل البهجة إلى القلب بحضورها الجميل، وإلى العقل بذكائها وحسن تصرّفها...

أعجبته، منذ اللقاء الأول. بقي أن يعرف جوابها، وإذا كانت تُبادله هي الإعجاب، وترضى به زوجًا. ولهذا السبب استدعى رحمة، والمختار:

إنّه في حاجة إلى وسيط، يسهّل له الأمور.

ورحمة حكت مع الفتاة، ومع والدتها. والمختار أعطى الشهادة اللازمة بالعريس، أشاد بشخصه، بمكانته، وعمله. وتعهّد بأن تكون نزهة، معزّزة مكرّمة، وتفتح، بسفرها بابًا، جديدًا لسفر أخوتها.

عائلة أسعد كبيرة، والتجارة محدودة. وزوجته لا تخفي سخطها على معيشتها، وفي كل مناسبة، تنتقد عمل زوجها، وتقصيره عن القيام بواجب العائلة. وهي، لولا التدبير والتقتير، لما استطاعت أن تربّي خمسة، عندهما بنتان وثلاثة صبيان...

وكانت نزهة مستعدّة لتقبل عبدالله أو سواه. فقد تعبت من «النقّ»، وجعلتها أمها تنظر بكبرياء وشموخ إلى المتقدمين لخطبتها من أبناء القرية:

– صحيح ملّاك، بس شو عم تعطيه الأرض؟... لا قادر يعمّر بيت، ولا يربّي عيلة...

– مين؟ مخول بو جَنْبْ؟ هيدا مش من مَجَاويزنا...

كل يوم تعدّد أمها الأسماء، واللائحة تطول، ومعها ينمو السخط ويقوى، والفتاة لا ترى في مستقبلها أيّ وعد. سوف تكون امرأة، مثل كل النساء، زوجة لواحد من هؤلاء المتخلّفين، بين أزقة داريا. أما «النسور»، فقد حلّقوا وغابوا

وبقي لها أملٌ وحيد ينعش نفسها؛ رجوع واحد من أولئك «النسور»، حاملًا حنينه إلى الديار، باحثًا بين الصبايا، عن عروس يحقق لها حلم صباها.

ولم تُخْفِ عنها أمها، قصَّة عبدالله وليًّا. وأَكدت لها أن الحق على الفتاة، بشهادة أهل الجورة والمطران.

ولما أَبدت عدم رضاها عن سنّه، هي في الثامنة عشرة وهو تجاوز الخمسين، حسمت أمها الموضوع بمثل مألوف... قالت لها:

– يا بنتي، عجوز يدلّل ولا شاب يهين...

أحسّت في أعماقها، بالتمرّد على كلام أمها؛ فهي ترفضها، ولا تحبّ مواقفها وتدرك أنّ والدها مظلوم، وصمته، ليس ضعفًا، بل طلبًا للسترة (فهو يكفي العائلة الشر) ويدير أذنًا صمّاء لكلّ النقد الذي تستقبله به زوجته عند رجوعه إلى البيت مساء كل يوم.

لكنّ تعاطفها مع أبيها لم يمنعها عن أن ترى الحق، إلى جانب أمها أحيانًا. لقد غرست الأم في صدرها بذور فكرها. منذ الطفولة، أرضعتها آراءها، مع الحليب، وحين كبرت، وشعرت بأنها باتت قادرة على الرفض والتمرّد. كانت تلك الأفكار قد تجذّرت في كيانها، وباتت جزءًا من شخصيتها، يصعب عليها انتزاعه. فهي حيالها: رافضة، ومتقبّلة، مطيعة ومشاكسة... وهذا ما أبقاها عجينة ليّنة، تديرها الأم، كما تشاء. كما جعل تلك الأم، التي عاشت حياتها «قلّة وقَهْرًا» حسب تعبيرها، تتسلّط على أولادها، بل تسطو عليهم بمقدرة سحرية، وتوجّههم كيفما شاءت.

ولم تشذّ نزهة عن إخوتها وهي التي كانت تظنّ نفسها فتاة متمرّدة. متعلمة وواعية (رأي والدها فيها)، وهذا بالتمام ما قاله لعبدالله، حين طلبها منه. قال له، وكرَّر:

– بنتي لها رأي. خلِّيني أتشاور معها، وبعدها بردّ عليك الجواب.

وكان الجواب «نعم»، لفظتها نزهة بشكل آخر حين قالت لأبيها:

– أنا بخاطركم...

وهذا يعني «أنا موافقة، إذا كنتم موافقين». وبناء على ردّها، قال أبوها: «نعم».

وسعيًا إلى المزيد من الألفة، تابع عبدالله حواره معها، وعند كل كلمة، يزداد إعجابه بها وبذكائها.

ونزهة أحسّت، منذ الوهلة الأولى، بأنّها سوف تقبل بهذا الرجل، زوجًا لها، برغم كل المشاعر السلبية التي طغت على كيانها في البدء. فهذه فرصتها للهرب من الجو المحدود الخانق في محيط قريتها، وعائلتها. حياتها لها لون واحد وطعم واحد عافته نفسها. والوجوه هي ذاتها، تتكرّر على صفحة العين والذاكرة، كذلك الأحاديث والأحداث؛ وقلَّما يحصل ما يخضّ المجرى العام، أو ما يثير الناس ويخرجهم من المستنقع... بالطبع تظلّ هناك مناسبات الفرح والحزن. لكنّ هذه أيضًا تصبح مع الوقت عادة مضجرة، خصوصًا إذا كانت الفتاة تخفي في صدرها، طموحًا ورغبات بحجم طموح نزهة ورغباتها.

68

عادت أمها تسألها عن الجواب:

– شو قلتِ يا نزهة؟...

ردَّت بجدّ وتصميم:

– أنا عطيتو جواب.

– شو؟...

صرخت أمها غير مصدّقة... هي، أعطت الجواب؟ تخطَّتها؟! قفزت من فوق رأسها ورأس أبيها، وأعطت الجواب؟!

عليها أن تتمنّع، صُوَريًا على الأقل، كي لا تبدو رخيصة في نظر عريسها وأهله. وعادت تكرّر سؤالها غير مصدّقة ما سمعته أُذناها:

– شو قلتِ؟

وكانت عصبيّتها تصبّ في وعي نزهة هدوءًا وبرودة. شعرت، لأَول مرّة، بأنها تنتصر على أمها، على واقعها، وتتسلّم هي زمام الموقف:

– قلت، أنا عطيتو جواب، بس ما خبَّرتِك شو كان الجواب.

فتراجعت أمها:

– لا تواخذيني يا بنتي، الشغله إجت عابغته، ومش عارفة كيف اتصرف.

رفعت إليها عينيها وردّت ببرودة:

– عم تتصرّفي كثير مليح، يا أمي مش هيك علمتيني؟ من سنين وأنت توعظيني، واليوم وصلنا لتطبيق القول بالفعل. أنا ماشية مثل ما انتو بتريدو. لما سألني عن رأيي قلت: «من رأي الوالدين»... صَحْ؟

قفزت الوالدة عن كرسيها، وقد فاتتها النبرة الساخرة في كلام ابنتها، فعانقتها وهي تردد:

– ألف مبروك، يا بنتي، يا حبيبتي. مش كل يوم بيهجم هيك نصيب: مال وجاه وقَدْر وقيمة، ورَحْ تسافري عا أميركا...

انسحبت نزهة بهدوء. فقد امتلأ سمعها بكلام مكرّر ترفضه. كانت تعرف مدى التحدّي، وخطورة المغامرة، وقرّرت أن تركب متنها حتى النهاية. لا رجعة إلى الوراء... خلفها الضيق والفقر وصوت ينقّ، وصداه «صمّخ أذنيها».

وخلفها أناس يجتازون العمر وكأنّهم يعبرون صحراء رملية... أمهات مقهورات، وآباء أكل التعب أجسادهم، ولفظهم كحبة الزيتون الجافة... ونساء يتسلّين بالكلام، لينسين الواقع، ويخرجن إلى الآخرين كي لا يبصرن ما في بيوتهن... وخلفها شباب وصبايا يواجهون آفاقًا مسدودة... وأمامها الآن هذه الثغرة المفتوحة عند الأفق، وسوف تمرّن جناحيها كي تطير.

كانت تعرف أنّ كلام أمها، لا يقصدها هي، بقدر ما هو رسالة متأخرة، توجّهها المرأة إلى نفسها، تُداري بها خيبتها. تحمّلت من أمها سخطها ورضاها، لكنّها لا تُنكر الأسباب التي دفعت المرأة إلى هذا الوضع، فالعائلة كبيرة، والدخل محدود: «دايمًا ملحوقين... نحنا منركض، واللقمة بتركض قدّامنا»...

أتقنت أمها كل الأمثال والأقوال التي تطابق وضعها، ولا تتعب من ترديدها. ونزهة طموحة، ولن ترضى بحياة أمها. بالحَدْس تعلم أنّ هناك عوالم أخرى مختلفة، ودنيا غير دنياها المحدودة، وأناسًا مرتاحين، سعداء بالحياة وبما تعطيهم... هناك، خلف الأفق الغربي، يُقيمون...

وهذه فرصتها.

انفتح الباب، وما عليها سوى أن تجتاز العتبة لتصبح في الداخل.

مثل وردة في حديقة بلا سياج، نشأت نزهة. أبوها في غياب متواصل، وأمها غارقة في خدمة البيت والعائلة... وغارقة في بئر سخطها على عيشها، على شغل الزوج، ورتابة حياتها معه. لا خيال، ولا مفاجآت في حياتها. تعرف مواعيد خروجه وتحفظ وقع خطواته: حالما يشق الفجر، يتقلب في الفراش بقربها، يجلس، ويقحّ. سعاله يهزّ أرجاء البيت... يسعل ويبصق في علبة، في رماد الموقد، من النافذة. في أية فتحة يبصق بقايا الدخان في رئتيه. ولا يكاد يتوقف عن القحّ، حتى يتناول علبة السجائر والولاعة، ويُشعل السيجارة، قبل أن يبلع ريقه. وتسمع نزهة صوت أمها، والكلام عينه، تردّده كل يوم: «وِلعِت المشحرة!»، وتُكرّر القول، ولا يردّ عليها، ويفُور غضبها، فتغادر الغرفة إلى المطبخ، أو إلى أيّ مكان يُبعدها عنه...

حكاية كل صباح، حفظتها نزهة «عن ظهر قلبها». وأمها لا تحجب غضبها. تفجّره في البيت، وفوق رؤوس الأولاد. وتهرب الفتاة. تسدّ أذنيها وتبتعد إلى أقصى ركن في البيت. لكن مهما بعدت، تبقى أصداء الصوت تلاحقها: «رَحْ تقصف عمرو، هالسيجارة... حارقة جيبتو، وعم تحرق صدرو... يلَّا يْلَحِّق تُتُن»... وأحيانًا تسمعها في نغمة مختلفة: «يللي بتطَلّعُو السمرا، يلَّا يِكْفيها بودرة وحمرا».

وأبوها لا يردّ فعلًا. يقوم إلى مواجهة يومه، وفاتحة نهاره السيجارة ومعها فنجان قهوة مطيّب بالهال، يعدّه بنفسه، يشربه وحيدًا ثم يغادر البيت...

المسرحية تُعاد كلّ يوم، وكأَنّها تحية الصباح. ونزهة تحفظها غيبًا. وتهرب وتتمنّى لو يتبدَّل الجو، لو تستيقظ، في صباح يوم، وتُبصر البسمة فوق وجه أمها، والرضى يعمّ البيت، فيما هي تلفّ الزوّادة لزوجها الخارج إلى عمله. وتحمِّله، مع الوداع، ألف دعاء بالسلامة. لكنّ هذا لم يحصل. ولا ترجو أن يحصل. أمها امرأة محافظة، لن تبدّل طباعها بتلك السهولة، لمجرّد أن تتمنى ابنتها ذلك. ولم تجرؤ يومًا على مواجهتها بحقيقة ما تُحسّ تجاهها، تجاه أبيها، وعائلتها. لم تعترف، حتى في أقصى حالات غضبها، بأنّها تتوق إلى الهرب من حضن هذه العائلة. ولو كانت هناك نافذة أو باب، لخرجت من زمان، لكنّ آفاق القرية مختومة بالشمع، وهي لا تُدرك ما يمكن أن ينتظرها خارج شرنقة

وجودها. لذا تعلّقت بحبال أملٍ واهٍ، واستندت إلى الصبر: «من صَبَرْ ظَفَرْ» قرأت المثل في أحد الكتب. وهي صبرت طويلًا. كانت تهرب إلى الانتظار وإلى الحلم. تدخل، وتُغلق خلفها الأبواب، وتمضي في بناء عوالم مشرقة، تشعّ بالنور، وتمتلئ بالسعادة. وكان في وسْعها أن تضع خطًّا حول تصوّرها البيت السعيد: بيت جميل، لا يدخله الغبار، تحيط به حديقة، ومن حوله مساكن مشابهة، وطرق مغلّفة بالشجر، مستقيمة، وتمتدّ إلى آخر ما يحدّ النظر.

أبصرت صورة لذلك البيت في مجلّة، وراحت تتخيّل وجوه سكّانه: إنّهم ملائكة، بلا شك. ملائكة هبطت من سماء مجهولة، حاملة فوق أجنحتها كل الفضائل المرجوّة. والمدينة الأَثِيريَّة حيث يقع البيت، سكّانها أيضًا من تلك الفصيلة، يتلاقون على العطف والمحبّة، يحبّون الصغار بصورة خاصة، فلا يرعبونهم، مثلما يرعبها وجه تسلّط عليها، منذ الطفولة. لماذا تتذكره عند كل منعطف... وهي تودّ لو تنساه؟ بل تتمنى لو تدفنه، مثلما كانت تفعل مع صاحباتها، وهنّ يلعبن لعبة القبور... كانت تختار عودًا خشبيًا لكل شخص تكرهه، تحفر التراب، ليصبح أمامها جورة عميقة بعمق الكره الذي يُسَوِّد قلبها، وتدفن العيدان في تلك الجورة، والتي لا تلبث أن تصبح قبرًا. وتهيل التراب، حتى يغطي العيدان، ثم تتنفس براحة: دفنت العدو وتخلّصت من الكراهية.

وكانت وجوه الأشخاص، تُمحى من الذاكرة حالما ينهال التراب فوق العيدان اليابسة إلَّا ذلك الوجه النحس، وجه رامز الحجل، ابن خال أمها. وبفضل تلك القربى كان يحقّ لرامز أن يزورهم في غياب أبيها، من دون أن يُثير الأقاويل. وكانت أمها تستقبله بالترحاب، وتجلس تستمتع بحكاياته ونوادره، وكانت له هواية في جمعها، وسردها بأسلوب خاص، تمتزج فيه السخرية، الخبيثة، بالدعابة العابثة: «حَكْيو مسامير مْبَشَّمِة»، قالت عنه إحدى الجارات، ذات مرّة... وباتت نزهة، بعد ذلك، تتصور الكلمات إِبَرًا ودبابيس لها رؤوس حادّة، تغرز في اللحم، وتغور، حتى قاع الكيان، ولا تعود تفارق. تلك الجارة كانت تعرف الحقيقة السوداء المتوارية خلف عينيه الثعلبيتين، أكثر مِمَّا تعرفها أمها. وكانت الطفلة تهرب، وتلاحقها العينان، إلى آخر الدنيا. وظلّت تتمنّى لو أمكنها الانتقام منه... تنتقم لنزهة الطفلة، ابنة السنوات الخمس.

كان يغريها بالملبّس. يحمل الكيس في جيبه، يسند رأسه إلى جدار المصطبة ويناديها: «تعي، يا خالو، عندي لك شي طيب»...

ويُخرج حبّة ملّبس حمراء مغرية. وتقترب كي تأخذها، فيشدّها إلى حضنه، ويَغمُرها، أمام أمها، وكل العيون العمياء، يغمرها. وتتسلّل يده خفيّة إلى منطقة حميمة من جسمها. فتنتفض، وتشبُّ كالأفعى؛ وكاللبوة الشرسة تغرز أسنانها في لحمه قبل أن تبتعد. ولا يعود الملبّس عسليّ الطعم. بل تصبح حباته أصابع دبقة، قذرة، وعيونًا خبيثة سوداء، تفترس البنات الصغيرات. كانت لفمه رائحة تذكّرها بتلك التي تهبّ عليها كلما اقتربت مع رفاقها من القبور في إثر دفن ميت... فتقطع أنفاسها، وتبتعد. والرائحة تطاردها. وصوته يهدّدها: «وطّي صوتك، البنت العاقلة ما بتصرخ»... وتسمع صوتها، يخرج زعيقًا: «عم قلّك فلّتْني... اتركني... بدّي روح»... وصوت أمها من الداخل، وهي منحنية فوق جرن الغسيل: «بلا فجور يا بنت»، وتنهمر دموع القهر... وحين يبصر دموعها، يفكّ أسرها، ويحلّ رباط زنده من حول جسمها... كانت تهرب، وهو يلاحقها. ويتعمّد القبض عليها. وهي صغيرة، ولا حول لها، ولا قوّة. وأمها لا ترى في الأمر ما يثير الشك، وهي تخشى أن تفوه بحرف لئلَّا تنعتها بالفجور.. وصارت تتدرّب على فنون الاختفاء، والهرب. كلّما أبصرته قادمًا، من طرف الزاروب، كانت تهرب، في الاتجاه المعاكس؛ وإذا سمعت صوته على باب الدار، قفزت من فوق سور الحديقة واختفت في جلّ الزيتون، لفترة، ريثما تتأكّد أنّه خرج، فتتسلّل عائدة إلى البيت، لتواجه سيلًا من أسئلة أمها: «وَيْن اختفيتِ؟ وين رحتِ؟ بدي حطّ حدّ لهالدشر»... وتتقبَّل من أُمّها، ذلك كله، وحتى الضرب، تتقبَّله بصمت. باكرًا تعلّمت كيف تفهم الرجال، من النظرة الراشحة من عيونهم. وباتت تعرف الذئاب المفترسة في قريتها وتهرب من طريقها. مخُّول الدكنجي كان واحدًا من تلك الذئاب. ترسلها أمها لتشتري لها شمعة، أو زرّ نيل من دكانه، ويكون جالسًا خلف حاجز خشبي، يفصل البضاعة عن الزبائن. من خلف الحاجز كان يمدّ يده، يناولها الحاجات، ثم يقبض على زندها، حين لا يكون هناك رقيب. تُفلت البضاعة، وتهرب. ويناديها من الباب: «نسيتِ غراضك»... وتعود، تخطف الكيس من يده وتجري.

وذات مرّة، لا تنساها ما عاشت.. كان الوقت ظهرًا، ظهر يوم تموزي حارق، وكانت أمها غارقة في الغسيل، والتنظيف، واحتاجت إلى بوتاس: «خذي، اشتري وقية بوتاس يا نزهة، وهيدا قرش مقدوح، اشتري فيه ملبّس»... تردّدت في القبول، برغم ذلك الإغراء، فنهرتها: «يلَّا، تحرّكي»... ولم يكن لديها اختيار. كان الطريق خاليًا من الناس، والشمس تنهمر، لهبًا يصبّ في عينيها، وقفت خارج العتبة، وناولته الدراهم. ابتسم لها، ابتسامة لزجة، وشعرت بأنّ ابتسامته تتحوّل إلى ريق دبق، يلتصق بشعرها ويصمّخ رموش عينيها: «ما رَاحْ أعطيكِ، حتى تقولي كلمة واحدة»...

يثور الاشمئزاز في نفسها، وتفكر في الهرب. فتبصر أمها تنتصب غاضبة: «شاطرة باللعب والنطّ... ما فيه منّك نفع. روحي، انقبري من وجهي»... وهي لا تريد أن تُغضب أمها. وتُدرك بالسليقة أنّ ذلك قد يخفف من السخط على أبيها، وإخوتها. وتعود إلى مَخُّول وتسأله: «شو هي الكلمة؟»... تعرض الابتسامة، وتلفظ شفتاه: «بْحِبَّكْ... قوليها»... تتراجع، وهي تحسّ بالتمزّق، وتفكر في أفضل الوسائل لتُرضي أمها، وتُرضي ذلك الحقير. وتحسب أنّه بوسعها أن تلفظ الكلمة، بسرعة، وتهرب. تقولها، وهي تضع قدمها على العتبة. لكنّ يده أسرع منها. تقبض على زندها، تخضعها لقوته: «أعطيني بوسة»... بصقت على وجهه، على شاربيه، ولعلع صوتها بالصراخ، وسمع هو وطءَ أقدام في الشارع، فعاد إليه وعيه، وارتخَت يَدُه حول زندها. حملتِ الكيس، وراحت تجري وهي تَعِدُ نفسها بألَّا تعود إلى الدكان مهما جرى.

لم تجرؤ على أن تخبر أمها بما حدث. هذا عيب. والعيب يبقى مخزونًا في الصدور. والطفلة تُدرك، بالسليقة، أنّ الدائرة سوف تدور عليها؛ مهما كانت صغيرة وبريئة، وطفلة. الحق على البنت. وهي تدفع دائمًا ثمن أخطاء يرتكبها الرجال بحقّها... يرتكبها الجميع بحقّها... علّمتها التجارب القاسية كيف تكون حذرة، وباتت تشكّ في كل رجل يتحرّك في محيطها... ولكي تُنقذ نفسها من العذاب، لجأت إلى الخيال، وراحت تبني، في خيالها، البيوت وسكّانها، كما تريدهم... وكانت هناك صورة تعودها، حتى في أحلك ساعات وحشتها: صورة فتى، شهم، وسيم، يهبط من كوكب مجهول، يخطفها من عالمها ويطير. يحملها إلى المدينة التي أبصرت رسمها ذات يوم في كتاب...

70

وها هو، الحلم يتجسّد في الحقيقة. الحلم يتحوّل إلى واقع، فيه الكثير من العناصر التي جمعتها: الكوكب البعيد المجهول، المغامرة، السفر... إلَّا أنّ صورة فارسها الحالي، لا تطابق تلك التي رسمتها عشرات المرّات وباتت تعرف صاحبها أكثر مما تعرف نفسها. الفتى الذي سيظل فارس أحلامها.

بكل الرضى والقبول، وافقت نزهة على الزواج بعبدالله مرعي... بطاقة السفر إلى الخلاص.

71

يطلع وجهها من أعماق الذاكرة. يتسرّب في غفلة منه. في لا وعيه، يحسّ تموجات الوهج والنور، تتصاعد، مثل كوكب يسعى إلى البزوغ. حتى إذا لامس الصفحة المفتوحة بينهما، تحوّل وارتدّ، ليغور في أعماق ظلمة عصيّة على اللمس والنظر. ويحلّ مكانه وجهها الحالي، هذا الوجه، هو ما يحاول جبران أن يتحاشاه الآن... ويُبقي الفسحة بينهما، حياديّة.

72

ونزهة أخذت المبادرة لتقوم بهذه الزيارة. ليس في استطاعته أن يرفض. فاللياقة الاجتماعيّة (والقربى، وعلى عيون الناس، وألماظ) تُحتّم عليه أن يستقبلها ويكرمها، ويعاملها مثلما كان عبدالله يريده أن يفعل، بـ«لياقة واحترام»... لن تستطيع أن تَحظى باحترامه. التهذيب؟ ربّما. أما الاحترام فليس سهلًا. وهو ليس بضاعة جاهزة، تُخرجها من الصندوق الموروث، عند الطلب، وتهبها للغير... لا، على هذا «الغير» أن يسعى... ليحظى منك بالاحترام...

نعم، يبقى مهذبًا، لطيفًا ولائقًا و... سطحيًّا. يُشعل سيجارتها. يردّ على أسئلتها. يطرح عليها أسئلة عامّة، يستخبر عن معارفه وأصدقاء فارقهم قبل ربع قرن. وما زاد على ذلك فهو ليس مبتغاه.. ولو استجاب جبران لذلك النداء الداخلي، والصاعد من حدود الندوب المختومة، لصدّ نزهة، وأقفل الباب في وجهها، أو لجأ إلى غرفته، يعتصم فيها، ويترك لألماظ أمر استقبالها... لكنّه

الضعف، يعود فيتحكّم به. الضعف والانهزام. هكذا كان. وهكذا هو الآن. وهو غير مستعد لأن يفتح الصناديق العتيقة، ويبدأ حسابات جديدة، مع نزهة.

لهذه الأسباب مجتمعة قرّر أن يلعب دورًا مغايرًا لكل ما يخالجه من مشاعر. انحنى يلتقط الأقنعة المتساقطة عن وجوه نزهة، وراح يرتديها، بل يثبّتها لتعينه على تمثيل الدور الجديد.

وكانت نزهة قد سبقته إلى ارتداء قناع بات ملاصقًا بشرتها، وذلك منذ أن اكتشفت الوجه الحقيقي لزوجها.

كان همّها الأول، أن تعرف السرّ وراء طلاق ليّا من عبدالله:

– من حقي أعرف يا عبدالله.. ما في أسرار بين المَرا وزوجها...

وكان ذلك في خلوتها الأولى معه، بعد الزواج. فقد رضي عبدالله أن يتمّ الإكليل في كنيسة داريا، بلدة العروس، مثلما تقضي التقاليد، إنّما اشترط أن يسافرا فورًا بعد الإكليل، إلى بيروت، ومنها إلى نيويورك. ولم يَلقَ شرطه أي اعتراض. فنزهة زوجته، حلاله؛ ولا حقّ لأَحد في أن يتدخَّل. وكانت هي تائقة إلى السفر، والذهاب إلى بيروت التي زارتها، مرَّةً، برفقة والدتها. ومنها تسافر في الحقيقة، لا في الحلم، إلى أميركا...

73

أَنزَلها في «لوكندة أميركا» على ناصية ساحة البرج، الفندق مشرف على قلب المدينة، ولطالما سمع عنه من المغتربين، لذا اختاره حال وصوله إلى بيروت.

كان ذلك العالم الجديد يشدّها، ويستولي على مشاعرها. وقفت فوق الشرفة تراقب ما يجري في الساحة، وتُلاحظ حركة الناس والسيارات، كما لم تشاهدها في الزيارة السابقة أيام طفولتها. يمكنها أن تقضي هنا، ساعات، بل أيامًا، ولا تملّ. المشاهد تتبدّل كل لحظة: الناس يعبرون بسرعة، وهم يختلفون عن أناس عرفتهم في قريتها. الرجال يميلون إلى السمنة، وجوههم بيضاء، شاحبة ومختلفة عن الوجوه السمراء التي عاشت معها، منذ ولادتها... وهم يرتدون ثيابًا إفرنجية، لا سراويل وقنابيز مثلما يرتدي الرجال في قريتها. ويسيرون فوق الأرصفة المحيطة بالساحة بسرعة، وكأنّهم في سباق مع الزمن. وفي الطريق العريض، تتسابق السيارات، والحناطير وعربات الخيل...

عربات تثير لدى مرورها ضجيجًا يمتزج بأصداء الزمامير وصخب الباعة. وهذا المزيج يتآلف، ليُكوّن صوتًا واحدًا، هو صوت المدينة. ولاحظت نزهة السيدات يتنقّلن، فوق الأرصفة، أو يركبن العربات... سيدات أنيقات، يرتدين ثيابًا جميلة، والشعر قصير مقصوص «شاليش»، مثلما تقتضي الموضة، رؤوسهن مكشوفة، ووجوههن مقنّعة بالمساحيق والألوان... وكل واحدة تسعى في اتجاه تعرفه تمامًا... شعرت بشيء من الغيرة، وهي تلاحظ خطاهن الواثقة والعارفة هدفها، ومسارها. أتراها ستحصل على تلك الثقة، وتصبح عارفة أسرار التجوُّل في المدينة؟

في غمرة ذلك الجديد الجذاب، نسيَت عبدالله. تركته ممددًا فوق السرير ليستريح من تعب الطريق، ولم تعد تفكّر فيه، لو لم تسمع صوته يناديها، ويُعيدها إلى الواقع:

– الغدا حضر، يا نزهة، تفضّلي...

طلب الطعام إلى الغرفة. يُريدها أن ترتاح، يريدها أن تعيش معه، برفاهية... بدلال.

74

– ليش طلَّقت بنت مرشد ضاهر؟ بدي أعرف السبب.

تظاهر بالصمم. كان يحاول الاقتراب منها، خَطوَةً خطوة، ويحسُّ جسدها يتقلص تحت لمساته، فيأخذ حذره: «ما تغلِّط يا عبدالله... نزهة غير ليّا. تَمَهَّل...».

وتَجمَحُ به العاطفة، أبعد من مدى عقله، وهو يبصر جسدها المثير ممدَّدًا بقربه، بكل ما في سمرته الجبلية الخمرية من حلاوة... فتقطع عليه خيط لذته، بتكرار السؤال، وهو يحاول تأجيله: – أمِّك بتعرف... بتكون خبَّرتِك.

لكنّ جوابه لا يُسكِتُها فتتابع حواره:

– لا... أمِّي ما قالت شي. بس هي علَّمتني ان ما في أسرار بين المَرا والرجّال...

لهجتها قوية. تسقط عليه من فوق. من المكان الشاهق الذي ارتقت إليه الفتاة غصبًا عنه. انقضّ عليها، وراح يغرس قبلاته الفجّة، فوق عينيها، فوق

ثغرها، وعنقها. يحاول إسكاتها... وحين أحسّها تتراجع إلى مساحة في ذاتها يجهلها، طوّقها بذراعيه ثم غمرها بجسده.

– حلوه إنتِ... مثل العسل، يا نزهة. صحيح... كل الحق معك، ما في أسرار بين المرا والرجّال.

وراحت يده تجرّدها من ملابسها، بشراهة، وتزيدها انكماشًا، مصحوبًا بشعور الغثيان. وَدَّت لو تصيح، لو تصرخ، لو يأتي مَن ينقذها منه. حتى تلك اللحظة كانت مأخوذة بالمظاهر، بالأشياء: الذهب والجواهر والحرير، وكلامه الرقيق، ووعوده والزغاريد. حتى إذا حاولت في تصوّرها، بلوغَ هذا الحدّ من الالتصاق الجسدي، كانت تتراجع، وتُرجئ التفكير فيه. شَغَلَها عنه فَرحُها بالرحلة... الجديد المثير، استولى على شعورها ولم يترك لها الفرصة لتتلمّس صفحة الواقع. وكأنّما عبدالله في إحساسها، قطعة غيار أخرى، تُكمل صورة الزواج... ولم تحسبه القطعة الأهم في تصميم حياتها... وها هو، يهجم عليها دفعة واحدة، وكأنّه «الغول» الذي عشش في خيالها طفلة، ملأ طفولتها بالرعب: إنّه رامز الحجل يعود من أعماق طفولتها، يُعرّيها بنظراته القذرة. إنه مخول الدكنجي، يفحّ كالأفعى، وينفث سمَّه في وجهها... وهو يتعادل مع سائر الوجوه القبيحة للرجال الذين عرفتهم. لأول مرّة انتصبت الحقيقة، أمامها، مجرّدة، عارية، مثل جسدها، المُنتَهَك، الواقع تحت قبضته والراضخ، بذلّ، لأمر الزواج.

وكرهته.

من أعماق الكيان، من تَراكُمات الذاكرة. ترسّباتُ أجيال تنهض من أعماقها وتصفعه بشعور المقت. وقبضته تُقيّدها، وجسده يستولي على كيانها. زوجته هي، حلاله. السلعة، التي رضخت، ولم ترفض، حين كان الرفضُ مُجدِيًا... أَعمَتها الأنوارُ البرّاقة، والألوان نصبت غشاء فوق عينيها.

حاولت الدفاع عن جسدها، لكنّ دفاعها كان يزيده إثارةً وهياجًا. تقلّص كيانها، وهي تحسّ أنفاسه الحارة، اللاهثة، تغمرها، وتتسرّب، مع القطرات السائلة في عروقها.

لم يكن مدركًا حالها وحسبه الخجل والشعور الطبيعي الذي يستولي على فتاة عذراء.

عليه إذًا أن يواصل محاولاته. وبعد كل محاولة، كان يتراجع قبل أن يبلغ عتبة الجنّة، ويغرق ويغرقها في صمت، لا تجد منه مخرجًا سوى في الهرب... إلى الحمام، لتُغرق جسدها في المياه الدافئة والصابون، أو إلى الشرفة، لتُطلَّ منها على مدينة حلمها، وتفكّر في حالها...

غاصَت تفكيرًا في نفسها وفي حالها... تساءلت عمَّا إذا كان إصلاح الخطأ ممكنًا؟ هل تستطيع إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء؟

وكان صوت من الهاوية المظلمة يرتفع، ليزأر في أذنيها: «لا... هذا مستحيل. الهرب غير ممكن. وعليك أن تواجهي هذا الواقع، واقعك.».

وتسمع صوت أمها: «الرجّال مثل الطفل يا بنتي. لازم تعرفي كيف تداريه وتستغليه... الزواج صفقة العمر... والدنيا فريسة الشاطر يا نزهة»...

عبرَ المسافة البعيدة، يجيء الصوت، مُتَآلفًا مع أصوات المقهورات من النساء، وترسم صرخاتهن خطوط دربها الجديد: لن تتراجع. وما دامت غير قادرة على الانسحاب، عليها سلوك سبيل آخر، يقودها إلى التغلب على الوضع الجديد.

عادت تتلهّى عن حالها، بمراقبة الساحة أمامها، يغمرها المساء بعباءة شفافة تلمع من خلالها أطياف الناس العائدين إلى بيوتهم.

تساءلت ماذا في وسعها أن تفعل الآن؟

وردَّها الفكر إلى الموضوع الوحيد الذي يشغلها: لماذا تمّ الطلاق؟ ولِمَ يتحاشَى عبدالله الردّ على أسئلتها؟...

لكنّ القرار الأهم الذي اتخذته في تلك الوقفة، هو أن تعطي نفسها فرصة كي تتعوَّد الزوج، والحياة الجديدة.

وبهذا التصميم دخلت غرفتها.

كان السرير خاليًا. سمعت سقسقة الماء في الحمام. واطمأنّت إلى انصراف عبدالله عنها لبعض الوقت، فجلست أمام المرآة، تتأمل وجهها، وكأنّه يُطلّ عليها بقناع جديد. أتراه المكان، أعطاها هذه الملامح الغريبة؟ أم هي الخطوة الجديدة التي خطتها؟

كان شعرها الكستنائي متهدلًا، كثيفًا فوق كتفيها، يُحيط وجهها النضر المشرّب بحمرة خجل، تزيد سمرته نكهة، وتجعل عينيها اللوزيتين تشعّان بأَلَقٍ

وحشيٍّ، هو من بعض ميزات جمالها.

قبلَ أَن تنسحب، وتأوي إلى سريرها، خرج عبدالله من الحمام، يرتدي «البرنس» وقد زادت المساحة الصلعاء في رأسه، بعد انحسار الشعر المبلل عنها. اتجه صوبها، على مهل، من دون أن يحوّل نظراته عن المرآة، ثم هبط فجأة، واحتواها بين ذراعيه، وراح يغرس قبلاته الفجّة فوق خصلات شعرها، وعنقها.

حاولت التفلّت منه، فزاد إحكام الطوق حولها وسمعته يهمس في أذنها:

– رَحْ انتظر حتى ترضي... إنتِ زوجتي وحبيبتي، وما في إلي غيرك.

كلماته فجّة، مروّسة، تنفِّرها منه بدلًا من أن تُقرّبها إليه... لكنّها لا تلبث أن تلين وجسدها يهرب من وعيها، فيما هو يستسلم بإذعان لمداعبات عبدالله.

وظلّت المداعبات عاجزة عن توحيد الكيانين.

75

كانت تحسب أَنَّ هذا الانسحاب الصامت هو من بعض المراحل التي تتدرّج فوقها العلاقة الجسديّة، لتُختم بالاتحاد. وبرغم وعيها لأمور كثيرة، فإنَّ الوعي الجسدي بقي غافيًا...

بعد العشاء، وفيما هما يسمران فوق الشرفة، عادت تُلحّ بسؤالها لمعرفة سبب الطلاق. فرد عبدالله باختصار، وكأنّه يصرف الأمر نهائيًّا:

– هيدا الماضي...، يا نزهة، انتِ وأنا، لنا الحاضر والمستقبل.

فردَّت برنّة غنج توسّلتها أسلوبًا جديدًا لانتزاع الاعتراف:

– بسّ الماضي أبو الحاضر... أو أنا غلطانة؟

عندها، طرح عبدالله ورقة دفاعه الأخيرة:

– الله يستر عا كل البنات... ليَّا ما طلعتْ بكرية. وهيدا سبب شرعي للطلاق.

هل نجح؟...

أخرسها جوابه إلى حين وفكّرت في أنّه ما كان ليجرؤ على قول هذا الكلام لو لم يكن صحيحًا... يمكنه أن يكذب على كل الناس، ولن يستطيع اللعب معها... لا أسرار بينهما بعد اليوم... جسد واحد وكيان واحد: هذا هو سرّ الزواج...

لكن لم يطل بها الوقت حتى قبضت على سرّ حياة رجلها، وأدركت السبب الحقيقيّ لذلك الطلاق...

انتظرا، في بيروت، مدة ثلاثة أيام حتى موعد رحيل الباخرة المُبحِرة إلى نيويورك. وكان يكرّر محاولاته لينالها في خلال تلك الأيام، وفي كل مرّة يبوء بالفشل. و«نفُّوج» لم تكن حاضرة لتشهد على ما يجري...

وحين أبحرت الباخرة التي تقلّهما، كانت تحمل معها السرّ الذي سيبقى سرّهما، مدى العمر.

76

عبدالله رجل أعمال ناجح ومحترم. يمسك التراب يتحول بين يديه إلى ذَهَب. هكذا يصفه عارفوه في المهجر.

أمّا عبدالله الإنسان، المغترب، الذي عاش خارج مجتمعه ردحًا من الزمن، فقد فاته الكثير من فهم ذلك المجتمع وأناسه، ولم يكن سهلًا عليه أن يُقدّر مدى فطنة نزهة. الفتاة الخارجة للتوّ من القرية، وحسب أنّه سيتمكّن من محو الخطأ، وولوج باب جديد إلى عالمه، وحياة زوجية سعيدة. لذا، لم يمانع حين عرض عليه المختار فكرة الزواج من جديد.

كانت الحماسة، بل الهياج العاطفي، مِمَّا يشعل ناره في صدره، ويعميه عن رؤية المشهد في حجمه الطبيعي، ورحمة تُصَوّر له انتصاره، من خلال كلمات مشحونة بالحقد وحب الانتقام.

وأغراه حديث المختار:

– لازم تتزوج يا عبدالله، وتحطّ حدّ للقال والقيل. والزواج من خارج الجورة مناسب، اسمع مني، وما بتندم.

– نحن بأمرك يا مختار... الله يقّدرنا على مكافاتك.

بهذا التسليم، رافق المختار إلى «داريا»، لزيارة عائلة نزهة. وفاته أن يلاحظ الذكاء المتوقّد، والفضول اللامحدود في نظرات نزهة. وكيف له أن يدرك أن هذه الفتاة، تحوّلت إلى امرأة محنّكة، حذرة، بفضل ما اختبرته من تجارب، إن في بيتها، ساحة العراك الدائم، أو في مجتمعها الضيق والمبطّن بالشراسة والخبث؟... خلفَ وجهها العذب اللطيف، والعينين اللوزيتين الحلوتين، تختبئ لبوة عنيدة، بل أفعى حكيمة، يقظة. ولكنّ طاقاتها كلَّها سقطت في الخَدَر، أَمام إغراء السَّفر وبريق الذهب... وهي، في خَطَأها، إن كانت خطوتها تلك

خطأ، لن تلوم سوى نفسها... وعليها إذًا أن تستعد لتقبّل كل المشقات، كجزءٍ في صفقة الزواج الذي دخلته.

صفقة. هذا هو الاسم المرادف لهذا الزواج. وما دامت لا تطمح إلى الهرب، فقد صمَّمت على أن تُقَادَ منه إلى أقصى حدٍّ، وتُحوّل الأقنية، كلّها، لتصبّ في مجرى مصلحتها. وهكذا، وضعت قدمها، في النقلة الأولى مع عبدالله، وحتى آخر الطريق.

لكنّه ظلّ طريقًا مسدودًا. ولم يَقدر عبدالله أن يخطو مع نزهة، خطوة واحدة أبعد من محاولاته مع ليًّا...

في الليلة الأخيرة قبل مغادرتهما بيروت، قدّم عبدالله أسفه، وهو يعترف لنزهة بحقيقة الحال:

– إنتِ بنت ذكية يا نزهة. تحمّلتيني أسبوع. بس ما بريدك تتحمّلي أكثر من هَيْك. أعطيك الخيار، لنطلِّق، وترجعي حرّة، لبيت أهلك.

وفاجأَهُ جوابها الحازم، وكأنّه يجيء بعد تفكير طويل وعميق:

– بس أنا زوجتك يا عبدالله، قدّام الله، وقدّام الناس.

– أنا مش الزوج القادر يؤمّن لك السعادة التامة.

– بسافر معك. يمكن لما ترجع إلى جوّك، بيرجع كل شيء لطبيعتو. أنا، معك، حتى آخر الطريق.

– بالرغم من كل شيء؟ افْرِضي ما تغيّرت الأمور!!...

– برغم كل شيء...

لم يصدّق ما سمعه. هبّ من مقعده فغمرها وراح يقبّلها ويبكي، ويتمتم بكلمات غير مفهومة ثم سمعته يقول:

– وأنا عينيّ مشْ بظهري. مقدّر موقفك، وما بنساه، حتى آخر لحظة من عمري... رَحْ أكتب كل شي باسمك يا نزهة: الشغل، البيت، حسابي بالبنك، بس أنت اطلبي وتمنّي...

بتلك السهولة، ومن دون أَن تبذل أي مجهود، أو تملي عليه شروطها، توصّلت نزهة إلى ما كانت تهدف إليه، وتجنبت إثارة عاصفة، قد تعرف كيف تبدأ ولكنها لا تدري إلى أين يمكن أن توصلها... حتى لو صدّقها الناس في بلدها، فهل تسلم من ألسنتهم؟ وهي تعلم في قرارة نفسها أنّ عبدالله كان وسيلتها

إلى الخروج من ضيعتها، وبطاقتها لتسافر إلى العالم الجديد، والحياة الجديدة... لن تتراجع خطوة.

لا. لن تعود إلى داريا. لن تعود.

77

وها هي، تعود...

نزهة الآن في الجورة.

وعبدالله مات، وحرّرها. وموته فكّ حبكة عقدتها فوق جبينها على مدى ثلاثين سنة.

– العشاء حضر... تفضّلوا...

صوت ألماظ يُسقط الذكريات، يجعلها تتراجع، لتختفي في دهاليز الماضي ويتقدم الحاضر، بأَصواته وألوانه وصوَره:

– زاد فضلك يا هَني... عم نتعبك.

فردّت ألماظ، وهي تقود ضيفتها إلى غرفة الطعام:

– تعبك راحة يا نزهة. بنَّا تُغضّي النظر، ما في شي من واجبك.

– يْكبِّر واجبك يا هَني...

فرحَت نزهة، أنّها لا تزال تذكر التعابير التقليدية، وتستخدمها براحة. وأحسّت، وهي تسير بين جبران وألماظ، بأنّ بابًا جديدًا ينفتح في عينيها، ويقودها إلى الأمام.

أَمَّا جبران، فظلَّ صامتًا، ثم، وكأنّه يبذل جهدًا ليخرج من عزلته تلك، أَمسك بذراع نزهة، وقادهَا، إلى كرسيِّها على رأس المائدة. وما كان ليحسّ بأيّ فرق، لو أنّ الذراع المشبوكة بذراعه، هي عصا مقَشَّة، أو غصن شجرة. ردَّ شعوره الحيادي ذاك إلى القناع المُسدل فوق وجهه، بل فوق حواسه جميعًا...

78

أَوَتكون الإرادة؟ أم أنّه الزمن، يحفر المسافات الشاسعة بين النفوس، ويفتح الثغرات، كي تَهُبَّ الرياح الباردة، رياح الجفاء والنسيان، فتجرف الطبقات الحساسة المرهفة، وتبقي على العظام اليابسة؟

إنّه الزمن، وتلك الذكريات الجارحة، تجرّدك من حسّك، وتدفعك، لتسير بقربها، وتشبك ذراعك بذراعها وأنت تفكر، وتتساءل: أين تلاشت تلك العاطفة الجامحة، التي حوّلت أيامك إلى جحيم، ودفعتك إلى حافة الانهيار فقلَعتَ خيامك وهربت؟... ونزهة، كانت تحسبك صريحًا وجريئًا، وتنظر اليك تلك النظرة الرفيعة، المقدّرة، ولو بالكلام المعسول، تسكبه في سمعك، ولا تدري، أنّ ما ساقك إلى هذه النتيجة الحاضرة، لم يكن الرجولة والشهامة، بل الجبن، والخوف. وهي نطقت بالحق، حين قالت لك في لحظة انفعال: «إنك جبان»... ولو كانت لك، بالفعل، ذرّة جرأة، لأقدمت على خطفها وأنقذت نفسك وأنقذتها. كنتَ تشعر بأنّها تنتظر إشارة منك، لتترك عبدالله. كنتَ فارسها المنقذ. وتراجعتَ... كنتَ فرصتها للخلاص وانهزمت، هربتَ، لأَنك كنت تخشى الفضيحة... وبينما كانت العاطفة تدفعك لاحتوائها بين ذراعيك، كان عقلك الصاحي يزجرك، ويُبعدك عنها. وكلما اقتربَت منك خطوة كنتَ أنت تتراجع خطوتين. تنكفئ على ذاتك، وتقف أمامها، حائرًا. قلبك يخفق، ويداك ترتعشان، وشفتاك عاجزتان عن التلفّظ بالكلام؛ وتترك لها المجال لتُخمّن، وتقدّر، وتدفعها كبرياء المرأة المصدومة إلى تعذيبك.

كانت قامتها تنسحب من مستواك، وترتفع، وتشمخ، فلا تعود في متناولك، بينما تسقط أنت وتنحدر إلى أعماق جبنك.... ولكي تُسكت تأنيب العاطفة، تُذَكِّر نفسك بعبدالله: «مسكين عبدالله»، تقول، «عايش مثل الموتى. لا ولد ولا تَلَد. من البيت للشغل، ومن الشغل للبيت»... (وأنت هل كنت أفضل منه؟) وتقول لنفسك: «وفّر عليه هذه الكأس... كأس المهانة». التزمتَ بآدَمِيَّتِك، بينما انصرفَت هي عنك، إلى أديب الرَّمَّاح. وكانت لها تلك القدرة الوحشيّة على الإِغراء، وجرّ الرجل، من رموش عينيه، حتى إذا سقط، وتلاشى أمام قوّتها، انسحبت بلباقة، متذرّعة بزواجها.

في أوج اشتهائك لاحتوائها، ظلّ ينتابك ذلك الشعور بالذنب، والشفقة على عبدالله. وكنت تتساءل: «كيف يمكن رجل أعمال ناجح، ساهر، عيناه كعينّي صقر، ولا تفوته شاردة من شؤون عمله؟... كيف لا يلاحظ سلوك زوجته، وعبثها من وراء ظهره، وهي لا توفّر صغيرًا أو كبيرًا؟...» أم أن عبدالله، كان

يعرف، أكثر مما قدَّرت؟ ولكنّه، ولأسباب تجهلها أنت، ظلّ يُرخي لها الحبل، ويغضّ النظر؟

حتى في مرحلة احتراقك بنار العاطفة، بقيت خائفًا، ورازحًا تحت ثقل الضمير، تلهب صدرك الغيرة من أديب، أو أي شخص تختاره نزهة مثل «رابوق»...

79

سحب ذراعه من حول زندها ودعاها إلى الجلوس، بينما كانت ألماظ تُحضر بقية الأطباق:

– تفضّلي، يا نزهة، باركي.

– البركة فيكِ، يا هني.

وظلّ جبران صامتًا. شعر بالراحة لأَن ألماظ تولّت عنه مسؤولية الكلام، وأبقته مع نزهة على مستوى المجاملات.

– مشتاقة، يا هَني، لطعم الأكل في الضيعة، ياهْ، شو مشتاقة!...

وردَّت ألماظ:

– ما رَح نخلّيك ترجعي عا أميركا. بتظلِّي عنَّا.

وخرج جواب نزهة آهة من الأعماق:

– يا ريت!...

واختلست النظر إلى وجه جبران، تقيس ردّ فعله، كان يمسك بطبق السلطة يسكب منه، وبدا بعيدًا عنهما، كأَنه في عالم آخر ولا يبلغه الكلام...

وإذا كان منصتًا للحوار، فإِنّه لا يبدي أيّ ردود فعل، كان القناع ثابتًا، ولاصقًا بكل المسامّ الحساسة في وجهه.

وعادت نزهة تكرّر:

– يا ريت، ويا ألف ريت!... بس شغلي ما بيسمحلي أَتأخر يا هني... غابي كان بأميركا، وبيعرف حياة الشغل فيها... شغل وركض، كل الوقت.

فقاطعتها ألماظ:

– العمر بيخلص، والشغل ما بيخلص.

ووافقت نزهة مؤكدة:

– هيدي الحقيقة...

80

وجبران ختم على الشغل. قضى ردحًا من الزمن يتقلّب فوق نار الشك، لا يعلم ما إذا كان صاحيًا أو مخدَّرًا، وإذا كان ما يبصره هو الواقع والحقيقة، أم أنّه صور من بعض ما يرسمه خياله الخصيب...

وكانت هي، تملأ وجوده وتشغل فكره وتتسلّق كيانه مثل شجرة اللبلاب. وتمدّد أغصانها بل تغرس جذورها في أعماق كيانه... وكلما مدَّ يدًا لينتزعها، أحسّها تغور حتى الأعماق وتضاعف نموّها...

داخ، زاغ، ضاع... لجأ إلى الشراب والتدخين. وفقد وعيه، مرارًا، ولم ينجح في غسل صورتها من عينيه. بل إنّ استرساله في محاولات طردها، كان يعيدها إليه، أقوى وأشدّ إغراء.

تزامنت تلك المرحلة مع بدء تردِّي الأعمال، نتيجة أزمة خانقة، في مطلع الثلاثينات، دام تأثيرها سنوات. ولا يزال ذلك الانهيار الاقتصادي، منعطفًا تاريخيًا في حياة جبران وسواه من المهاجرين. كان يحتاج إلى كل ذرَّة من وعيه، ليساعد عبدالله في تعويم المخزن كي لا ينهار نهائيًّا. وشعر بأَنّه يفقد السيطرة على أعصابه، بل يكاد يفقد عقله. وكأنّ هذا كلَّه لم يكن كافيًا، ليفقده توازنه، ويخرجه عن دائرة صوابه، فقد توّج تصرّفه بتلك المعركة الحامية مع أديب الرمّاح...

81

كان أديب بائع جملة، يُزوِّد المخزن بالثياب الجاهزة، وهو مغترب، مثله، جاءَ من الجورة في جملة مَن هاجروا إبّان الحرب العالمية الأُولى، ووافاه الحظ، فصار من كبار تجار الجملة، لا في «توليدو» وحسب، بل وفي المنطقة بأسرها. والذي ساعده في سرعة النموّ، برغم كل الظروف الصعبة، هو أنّه تزوج أرملة ثريّة تكبره بعدّة أعوام. بمساعدتها، وبفضل حسّه وحسن تدبيره، بات من أبرز رجال الأعمال. وبسبب فارق السن، والنشأة، بينه وبين زوجته، راحت عينه تغزل خارج السور الزوجي، فأكسبه سلوكه لقب «زير النساء». واستحقّ لقبه بجدارة، بل حاول أن يرتفع إلى مستواه، فصار يختار ملابسه بأناقة مميزة، ويولي مظهره عناية فائقة. وتكفّل لطفه في التعامل مع الناس بدعم اللقب. وكان له أسلوبه الخاص في التقرّب من النساء. ولاحظ جبران محاولاته

المكشوفة لاستمالة نزهة، فلم يُبْدِ اهتمامًا، في أول الأمر، بل حاول أن يكذّب حدسه، ويقنع نفسه بأن غيرته تصور له الواقع على هواها، وهوسه وراء تلك الشكوك الناهضة من أعماق ولهه واهتمامه بها. ظلّ يَتَرَجَّح بين الشك واليقين، إلى أن كان ذلك اليوم، عندما أبصر نزهة، تخرج من المخزن، متأخرة كعادتها...

فجرى في إثرها، مثلما يفعل في بعض حالات ضعفه وانصياعه للعاطفة، ورآه... كان أديب يقف عند الناصية... ينتظرها... وحين لمحها قادمة من طرف الشارع، تحرّك بخفة واقترب منها ثم تعانقا. فوق ذلك الرصيف الليلي، وَقَفَا لحظات، في عناق... ثم تابعا المسير في اتجاه بيتها.

حرّكته الغريزة ليجري في إثرهما، ويثير فضيحة: «إذا ما كبرت، ما بتصغر... عبدالله لازم يعرف». كانت الجملة تُلحّ عليه، وتدفعه ليجري بسرعة، كي لا يفقد أثرهما. ثم توقف فجأة معترضًا على مجرى تفكيره: بأيّ حق يتصرّف؟ يلومها إذا أحبّت سواه؟ يَغار؟ ماذا فعل هو، سوى صَدّها؟ لم يعبِّر مرَّة بكلمة، أو بنظرة. ظلّ يهرب، منها، ومن عاطفته ومن كل مواجهة... بأيّ حق يحاسبها، ويغار عليها؟ أَمن أجل عبدالله؟ أم بدافع عواطفه المقتولة؟

وهل يصدّقه عبدالله، إذا بلّغه الخبر؟ أَوَلَا يراه كيف يرضخ لها، وينقاد لإِرادتها، انقيادًا نهائيًّا؟... فكيف ينتظر منه الإصغاء؟... وقد يتّهمه هو، لا ذلك الغريب.

عاد يُخرس انفعالاته، ويَهيم على وجهه في الشارع، حتى بلغ حانة يديرها صديق له، فدخلها، وراح يشرب حتى انطفأ، ثم نام على طرف الطاولة، ولولا «البارمان» جوني لبات ليلته في الشارع. راح جوني يمسح وجهه بالماء البارد، ثم حمله إلى سيارته، وقاده إلى البيت.

وحين نهض جبران، في اليوم التالي، كان الوقت ظهرًا، وشعر بثقل يرسو بين عينيه وبألم في رأسه. فراح يصب الماء البارد على يأفوخه، ثم دخل المطبخ، وأعدّ إبريق قهوة، وجلس يحتسيها، ويتذكر أحداث الليلة البارحة...

لم تكن له رغبة في الخروج، فبقي في البيت، يرتاح. ومع الراحة، يغتنم الفرصة ليتأمل في وضعه، قبل أن يتحرك ليقوم بأيّ عمل يخرجه من حالته المرضيّة تلك. وقد نجح في التأمل. ولم يتوصّل إلى الحركة. وحين لجأ إلى الفراش مسَاءَ ذلك اليوم كانت أعصابه لا تزال متوترة، وأفكاره مشوّشة؛ لكنه

نام وهو يؤكد لنفسه، لكي يهدئها: «ما صَبَحْ إلّا فَتَحْ. شَرّ الصباح، ولا خير المسا»...

82

حين دخل مكتبه، صباح اليوم التالي، أحسّ بأَنّ صحوة الواقع أعادت إليه القوة والثقة بالنفس، فبات قادرًا على مواجهة نهار عمل آخر... وما كاد يخلد إلى هذه الأفكار ويتابع تطبيقها حتى فاجأه أديب بزيارة.

دخل، وكأنّه يدخل مكتبه أو بيته! لم يكن على موعد معه، وليس هناك عمل يُضطرّ أديب إلى الحضور في تلك الساعة المبكرة. فماذا يريد الرجل؟ وهل لزيارته علاقة بما حدث ليلة أمس؟

تأَمّله لحظات، محاولًا أن يسبر أغوار نفسه، ويقف على حقيقة موقفه. لكنّه لم يلحظ أيّ تبدّل في سلوكه. يُكلمه بعفوية ليسأله عن موعد إبرام الصفقة التالية، براحة تامّة وخلوّ من أي تشويش.

يريد أن يعقد صفقة جديدة؟ أَوَلا يخجل هذا الرجل؟ يحتضن زوجته في الليل، ويعقد مع مكتبه صفقات في خلال النهار؟ وبكل الصفاقة، ومن دون أيّ خجل أو تأنيب ضمير؟...

وها هو أمامه، صاحٍ، منشرح، بل في أحلى حالاته النفسيّة، يوزّع النكات والطرائف ويجذب إليه أسماع المحيطين به. بينما قضى جبران يومًا بطوله في الألم والعذاب. ليله كوابيس، وأفكاره مشوّشة، ولا يدري ماذا يفعل أو يقول!...

الأفكار في هياج، ويحسّ رأسه مثل البحر الخاضع لسياط العاصفة. يزوغ الحاضر من عينيه، وهو يتأمل أديب، ولا يعود يتصوَّره رَجُلًا، بل خصمًا انتصر عليه ويتابع العبث به وبعواطفه. ومن دون أن يقصد، سمع الكلمات تخرج من فمه كالرصاص: – واحد بلا ضمير. سامعني؟ أنت لا حيا ولا ضمير.

اتسعت حدقتا الزائر من فرط ذُهُوله، ولم يصدِّق ما سمعه، وحسب أنّ جبران، إما في حالة سُكر أو جنون، فسأله بهدوء:

– نعم؟ شو قلت؟

وصفعه جوابه:

– قلت إنّك إنسان بلا ضمير. بلا شهامة.

انتفض أديب واقفًا ثم هجم على جبران، فلم يَقوَ على بلوغ مكانه خلف المكتب وظهره إلى الجدار، وكأنه يتحصّن به، استعدادًا للمعركة. ثم سحب منفضة زجاجية وهوّل بها يريد شجّ رأسه.

لم يفقد أديب وعيه، وقدّر أنّ عصبية جبران ليست حالة طبيعيّة، والأفضل ألا يلجأ إلى العنف، ويكتفي بتأنيبه كلاميًّا:

– اضبط كلامك يا جبران.. هيدَا تصرّف واحد مجنون، أو سكران...

فردّ جبران، والغضب يتشظى من عينيه وزبد الثورة يُرغي فوق شفتيه:

– لا... لا أنا مجنون، ولا سكران. صحيت، بفضل شهامتك، يا بلا شرف... يا طَوْطَحْ... ولَكْ المال ما بيعمل ابن آدم.

عندها صعد الدم إلى رأس أديب، فهجم على جبران، خلف المكتب، ودفعه بعنف باتجاه الجدار ثم راح يضربه بقبضة يده، ولا يترك له الفرصة ليردّ. ضربه على صدره، على وجهه، حتى نفر الدم من أنفه وأسنانه، وتجمّع الموظفون حولهما، وتدخلوا ليباعدوا بين المتقاتلين. وسمعت نزهة الضجّة، فهرعت تستفهم ما الخبر... ولمَّا أبصرت ذلك المشهد والدماء النازفة، أدركت ما يجري. فارتدّت على عقبها بسرعة، ثم صعدت إلى مكتب زوجها في الطابق الثاني.

كانت تشعر بالحَدْس أنّها موضوع العراك، ومن الأفضل لها أن تتوارى. وكانت، في الوقت نفسه، تلهي بحضورها، زوجها، عما يحدث تحت سقف مخزنه. تابع الموظفون مساعيهم الحميدة وقدّروا أنّ سبب القتال هو خلاف على العمل. اهتمّ فريق منهم بجبران، فقادوه إلى الحمام ليغسل الدم السائل فوق وجهه ويديه وثيابه، بينما أحاط فريق آخر بأديب، ودفعوه إلى سيارته، وظلّوا واقفين ينتظرون حتى اطمأنّوا إلى ذهابه، فعادوا، كل واحد إلى عمله.

كلهم عادوا، إلَّا جبران. لم يستطع أن يركز على شيء. وقضى بقية النهار يفكر في ما جرى، ولا يصدّق... وكأنما هناك قوة، فوق قدرته، تتلبّسه وتعبث بإرادته وهي التي قادته إلى افتعال الشرّ.

بعد ساعات من الهدوء ومحاسبة الذات، تأكد أنه فقد أعصابه وأنّ طاقة احتماله بلغت أقصى حدودها، وإذا انقضت المواجهة، هذه المرّة على خير، فهو لا يكفل نفسه في المستقبل. وهو يعلم أَنَّ سبب انفعاله ليس غيرته على

عبدالله؛ بل إنّ الذي حرّكه وأثاره، واستنفر غرائزه الكامنة، هو غيرته من ذلك المنافس الخطر، أديب... وهو غير عبدالله، المهادن، والمنصرف عن شؤون العاطفة إلى العمل. وتحوّل شعوره تجاه نزهة، من العاطفة، والوَلَه، إلى الكره، والاشمئزاز. وازداد انفعالًا، حين لمحها، تُطِلُّ عليه، وهو على تلك الحالة المزرية، ثم تتراجع، وقد ارتسمت في عينيها ابتسامة ساخرة. وكأنها، بنظراتها المزدرية، تطعنه في صميم كبريائه. في تلك اللحظة، أحسّها تغرز كعب حذائها، في قلبه، وشعر بأنّ لها القدرة على المشي، بل الرقص، فوق جثته، من دون أن يرفّ لها جفن.

«وإِنَّ كيدهنّ لعظيم»... عبارة أمه، تعود كالمقرعة. وأمه لم تكن تجيد اللغة الفصحى، ولكنها حفظت تلك العبارة. كيف؟ وأين؟ لا يعلم. الذي يعرفه هو أن تلك العبارة وحدها، تشرح، وتفسّر سلوك المرأة في تلك اللحظة.

انتظر جبران أن تعود إليه نزهة، بعدما راق الجوّ، فتسأله عن سبب المعركة التي نشبت بينه وبين أديب، لكنها أذكى من أن تفعل، أو تسعى إلى تفجير البركان بَدَلًا أن تعمل على إخماده... وحين جاءته في المساء، لتسأله عن بعض الشؤون المتعلّقة بالعمل، تجاهلت أحداث الصباح، وبَدَت طبيعيّة مرحة. بل أخذت وقتها، وأشعلت سيجارة، وراحت تدخنها، وهي تراجع معه جداول العمل.

وحاول هو، أن يتصرّف بصورة طبيعية، لكنه ظلَّ يسمع أصداء تفجّر الغضب في صدره. وبينما كانت نزهة، حتى ليلة أمس، تُؤجّج عاطفته، وتُشعل غيرته، فهي اليوم تثير غضبه، ونقمته. وحين طلبت منه وَلْعة، أَحَسَّ برغبة في أن يصفعها على عينيها، على وجهها، على كل مغرز إبرة من كيانها. كان في داخله، من الغضب، ما يكفي لسحقها. لكنه فضّل الانسحاب المنهزم، والانكفاء إلى أعماق ذاته المتوارية، الهاربة...

83

كانت تلك المعركة نقطة الحسم في علاقته بنزهة، بعبدالله، وبعمله...

وكلّما فكَّر في المستقبل، كانت الرؤية تغيم في عينيه، والستارة السوداء تُسدل أمام وجهه، فلا يستطيع أن يبصر بصيص نور يَعِدُه بالفرَج. وإذا كان سيتعذّب لبُعدِه عنها، فإنّ قربه منها هو خلاصة العذاب... بل إنّ المشاعر التي

تغزو كيانه، تدفعه إلى شفير الهاوية وحدود الانهيار. وكان هناك حلّ واحد، متوفّر له، ويمكن أن ينقذه، فيخرج مرفوع الرأس، محتفظًا بكرامته وصوابه... يستقيل.

نعم. لن يبقى في هذه الدوامة يومًا واحدًا، فأرض الله واسعة. وعبدالله بات يعتمد على نزهة أكثر مما يعتمد عليه. فمثلما راحت تصعد في التوهّج العاطفي، أخذت تقفز بسرعة في التقدّم العملي... يعترف لها بذلك، برغم كل المشاعر السلبيّة التي تتنازعه حيالها، إنّها امرأة خارقة!

تلك الفتاة القرويّة البسيطة تحوّلت بسرعة، مثلما يتحوّل المعدن الخام لدى انصهاره، إلى مختلف الأشكال المركبة.

لم يصدقه عبدالله، حسبه يروي نكتة. وكان قد سمع من الموظفين قصة المواجهة مع أديب، واقتنع بأنه خلاف حول المشتريات. فسأله مداعبًا:

– وشو رَحْ تعمل يا خال إذا استَقلْت؟ إنت عارف ان المحل ما بيمشي بلاك...

فرَدَّ عليه محاولًا، ما استطاع، أن يلجم سخريته:

– البركة بمَرتَك... صارت قدّ الحمل وزيادة.

فابتسم عبدالله موافقًا:

– صحيح، نزهة أخت الرجال. بس لكل واحد مطرحو. وأنت، هيدا محلّك.

– أنا مسافر... قررت إرجع عالبلاد.

كيف خرجت العبارة؟... الكلمات سبقته وجرّته إلى اتخاذ القرار...

– أنا راجع على طول يا عبدالله...

نعم، يرجع.

سوف يجمع ما توفَّر له من مال مُدَّخَر في أحد المصارف، يبيع البيت، ويحمل حاله ويسافر.

يعود إلى جورة السنديان. يفكّ حين وصوله رهينة الدار، ثم يجدّد بناءها، ويعيش مثله مثل سائر الناس في الجورة...

أبصر عبدالله ينهض خلف مكتبه، ثم يقترب منه ويربّت كتفه، ثم سمع صوته مداعبًا:

– إنت قول من الأَول يا خال... صار لازمك بنت حلال... روح، الله معك... ولما بتعود لنا بالسلامة، يبقى لكل ساعة دبّار.

وراح، لكنّه لم يَعُد.

سافر، وأقفل خلفه بوابات البحار.

84

أم هاني كيانٌ مُعَلَّق بين الأرض والفضاء. الدوار يلفّها، والأفكار تتصارع في رأسها، والأرض لم تعد تقوى على احتوائها: «الليلة لازم سرِّب الخبر... ليّا لازم تعرف»، قالتها لنفسها بصوت مرتفع، ثم عادت تتساءل: يا ترى عرفت؟ الأخبار ما بتختفي بالجورة، والسيارة مرقت من قدام بيتها... لا شك في أنّها سألت...

ثم تحملها الشكوك في اتجاه جديد: أم سمير غير شكل عن نسوان الجورة... لا بتسأل مين راح ولا مين إجا... همّها رجّالها وأولادها... بس، لازم تعرف... لازم أعرف إذا كانت عرفت...

هامت فوق تموّجات القلق، فالموضوع يثير حماستها، والأَفكار تتناوشها، ولا تصل بها إلى نتيجة. لم يسبق لها أن رضيت بالصدّ، ولن تقبل به من ألماظ أو من سواها، ولم تنم من قبل من دون أن تتبلَّغ وتبلِّغ، فما الذي جرى الليلة؟ وكيف رضيت أن تصفعها ألماظ (أم وجه ناشف) بجوابها المختصر؟... كيف قبلت به ولجمت حماستها؟ تقلّبت من جانب إلى جانب، وهي تراجع في فكرها الموضوع من كل الأوجه، ثم استقرّ رأيها على أن تنتظر حتى الصباح: «ما صَبَحْ إلَّا فَتَح»...

في الصباح تقوم بزيارة ليّا.

وليّا مُتوارية خلف أسوار عالمها الخاص، وحياتها العائلية. تخرج من بيتها لتقوم بواجب تعزية، أو تُبارك بفرح، بولادة، أو لتزور مريضًا. في بعض الأوقات، وحين تسمح لها مشاغل الأسرة، تذهب إلى القداس. ويندر أن تتفرّغ لزيارة صباحية، مثلما تفعل سواها من النساء. العائلة كبيرة، تستهلك وقتها، ثم هي لا تحبّ القيل والقال. وعائلتها زوج وخمسة أولاد «بيخزوا الشيطان»... فكّرت أم هاني وهي تتذكر وجوههم الحلوة، ثلاث بنات وصبيّان: «خمسة بعين ابليس»، ردّدتها وهي تفكر في أولادها هي وفي سائر الأولاد. وتفكر في أن العناية الإلهية لا تتخلّى عن مخلوق: «ايه الله ما بْيِبْلي إِلَّا حتى يعين»...

وهذا تمامًا، ما حدث لِليًّا...

أعانها الله، وردّها إلى خانة رضاه، بعدما عاشت في ظلام العار والغضب خمس سنين، وصلت خلالها إلى قاع الهاوية.

85

في تلك الفترة البعيدة، الماضية، ذاقت الصبية الحلوة، العاقلة، كل ألوان العذاب، النفسي والجسدي. ولم تعد الفتاة المدلّلة والمرفّهة لدى والديها. أخرجها أبوها لتعمل معه في الحقل: «خلّيها تشتغل... الشغل ما بيقتل حدا»... قال لأمها حين اعترضت على قراره... وحين قالت له إنّ العمل في الحقول قَاسٍ، والبنت غير معودة على تلك القسوة، ردّ الرجل، من صميم كرامته الجريحة ومن انكسار كبريائه: – خلّيها تتعوَّد... الإنسان قادر يتعوَّد على كل الحالات.

وكانت ليّا تتلقى الأوامر برضى؛ وكأنها، بذلك، تحاول أن تعوِّض والديها الألم الذي ذاقاه بسببها.

زرعت، مع أبيها، القمح و«القطاني». اشتغلت بالمَرّ. نكشت الأرض. كانت تضرب بالمعول حتى يتورّم ويدمَى باطن كفيها، ولا تتوقف. ومع مرور الأيام، اخشوشنت يداها، ولم تعودا أصابع الهليون الغضّة كما كان يروق لأمها أن تصفها...

صارت يداها وأصابعها كيَدَي وأصابع فلاحة أصيلة، وغزا الكَلَف والنمش بشرة وجهها المخملية النقية، بعدما صبغتها شمس البراري بصباغ يقرّبها من صفحة التراب. وتوارت خلف ذلك القناع الجاف عيناها الرائعتان.

أحيانًا، كانت تسرق وقفة، أمام المرآة، تتأمل فيها وجهها، والسمرة الفلاحية التي تحدّد معالمه، وتتحسّس بأَناملها قبلات الشمس المتروكة، بصمات داكنة، وتتساءل: أَهَكذا ستبقى، في حياتها القاسية، أم يَجيء يوم تتبدّل فيه الأحوال؟...

ولم تجرؤ قط على رسم ملامح ذلك المستقبل، ولو في الخيال.

ساعدت والدها في كل المواسم: حصاد القمح، حلج الشعير والقطاني، حراثة بساتين الزيتون وكروم العنب، وجني الغلَّات... وفي البيت، باتت كتفها السند، تعتمده أمّها في كل عمل: ملء الجرار من العين، تصويل القمح

والعدس، سلق البرغل، الطحن، الجرش، فرك الكشك، سطح التين والزبيب، عصر الزيتون وقطع اللبنة...

أيّ عمل، لم تتمرّس به يداها اللطيفتان؟ وأيّ قهر أو تعب لم يخترق كيانها العذب اللطيف؟...

أهملت نفسها، وجهها وجسدها... لم يعد يطالعها وجهها في المرآة، إلّا نادرًا... تَحَكَّمَ بها التعب، وأغرقها في طَمْيِه ونفى روحها اللطيفة... وصارت تتلذّذ بالألم، يخترق أوصالها، وينغرس في مسام كيانها؛ حتى إذا ما أتيح لها أن ترتاح، ارتمت في نوم يشبه الإغماء، يخدّرها، ويختم على أفكارها، وعلى قلقها وذكرياتها... وليس لها من تلك الذكريات، إلّا ما يجرح الفؤاد، ويُرَضّض المشاعر.

خمس سنين والفتاة الرقيقة تمارس أعمالًا يعجز عنها الرجال، وتعيش بين والديها وأختها، آلة صمّاء بكماء... أحيانًا، كانت تعود إلى شيء من ذاتها الملفّعة بغبار الأيام، حين تجلس مع أختها وتتبادلان الحديث، وتحسّ ببعض انتعاش.

ظَلَّت أسماء النجمة المشعّة في سمائها الحالكة، ونسمة البرودة المنعشة، في صحرائها الملتهبة. وبقيت واسطتها لتذكر بأَنّ فيها بقية إنسان.

86

خمس سنين، انقضت، قبل أن يُطِلَّ وجهه عليها، ويزيح ستار الظلمة من حياتها.

جاء، غريبًا عن الجورة، يسعى إلى عمل يرتزق به، ودلُّوه على والدها. قالوا له: «ما إلك غير مرشد ضاهر، محتاج لرجال يعينو عالرزقات».

قالوا له: «مرشد آدمي وحقّاوي. إذا قبل تشتغل عنده، يا سعدك»!...

والغريب في الجورة، يبقى غريبًا. وقد يُنفق العمر، وهو يحاول تثبيت مطرحه بين من يقيمون فيها، مرتاحين.

إنّما الجورة لا ترفض غرباء مثل فارس؛ فقد تعوّدتهم يفدون إليها من قرى الجوار حين تشح المواسم في قراهم.

– من وين الشاب، من غير شرّ؟

سأله مرشد، في أوّل مقابلة بينهما، فأجابه بهدوء، وعيناه في الأرض:

– من بْرشْتا.

– الإسم الكريم؟

سمح فارس لنظره بأن يرتفع قليلًا عن الأرض، فتطلّع إلى الوجه المنتصب أمامه، بشموخ وأنفة، وأجاب:

– عبدك فارس... فارس النمر.

– وشو بتقدر تشتغل، يا ابن النمر؟

سأله مرشد، بلهجة مشجعة، فردّ الفتى بجدّ:

– كل شغل بتطلبو منّي.

تأمّله مرشد طويلًا وعميقًا، وأحسّ في أعماقه بموجة حنان، تدفعه ليقترب منه ويحتويه بين ذراعيه...

كان شابًّا طويل القامة، نحيلها، تبدو بصمات الفقر فوق ثيابه؛ لكنه لاحظ أن طيّ تلك الثياب الرثّة، والنظيفة، يقيم إنسان كبير، يشع كجوهرة. وعينا مرشد ذكيتان، «بيقفر الواحد عالطَاير»، ولم يفتهما تميّز بارز في تكوين الفتى، في شكله، وسلوكه. ومرّت في باله فكرة مقلقة: لكن ماذا لو أساء السلوك مع بنتيه؟ هل يُؤَمِّن لشاب أن يسكن مع العائلة؟...

وجاءه الجواب لمعة، من عينين طيبتين، لم تكونا في حاجة إلى فصاحة اللسان.

تابع مرشد أسئلته، ليلمّ بكل ما يتعلّق بالفتى؛ وعلم منه أنه نشأ يتيمًا، لطيمًا... كان في السادسة من عمره حين نشبت الحرب العالمية الأولى «حرب الأربتعش»، ومرض أهله، وفارق والداه الحياة، فتابع صراعه مع إخوته، يعملون في الحقول، في المزارع والمطاحن، حتى صار يتقن كثيرًا من الكارات، وباتت له خبرة عجوز مدرّب...

قال له مرشد:

– بتشتغل عندي، بس دبّر مطرح لتنام...

ودبّر فارس مكانًا ينام فيه عند العجوز الأرملة، أم سليمان الشبّيط. أجّرته غرفة صغيرة، قرب مدّ الحطب، لقاء قيامه ببعض الخدمات التي تحتاج إليها: حدل السطح، وجرف الثلج، وتشحيل الكروم والبساتين المحيطة بالبيت... وكان فارس يُلبّي طلبات أخرى تعجز المرأة عن القيام بها، فيملأ الجرّة من

العين، ويشقّف الحطب، ويحبك أغصان الدفلى حول النوافذ الخشبية ليقيها المطر.

كان فارس يعمل في الليل وفي النهار، وبدا سعيدًا بحياته وعمله، فعاد إليه حُبُّهُ للغناء وصوته العذب، يطلقه في الحقول، حيث لا تقوم حدود، ويردِّد المواويل القديمة، والأغاني الشعبيّة. وكان يشكّ في زناره منجيرة القصب، فإِذا ما جلس ليرتاح قليلًا من عناء العمل، سحب المنجيرة، وراح ينفخ فيها، وتلهب عاطفته حنجرة القصب، فترجّع له أعذب الأَلحان وتنسيه التعب والعناء. إلى ذلك كله، أتقن فارس الضرب على الدربكة، وبفضل فنونه المنوّعة تلك، في الغناء والموسيقى، وتاليًا في الرقص، بات مطلوبًا في الأعراس. لا تتمّ الفرحة بلا حضوره. وأحبّه الجميع، وصاروا يشيدون بحسن سلوكه، ورفعة أخلاقه، ودماثة طباعه.

وبقيت عين مرشد ترافقه، وترصد حركاته. وفي سرِّه، كان يتمنى لو يقترب منه الفتى، بروحه وعاطفته، لا بعمل يديه وحسب...

وفي يوم، عبّر عن رغبته وما يخالج فكره، أمام زوجته فسألها:

– شو رأيك يا مَرَا... لو، فارس يتزوج ليّا.

انقبض صدر المرأة، وقطّبت حاجبيها، ولم تردّ عليه. يزوّجها أجيرًا، مُرابعًا غريبًا؟... ينقل ابنته من خيمة العار إلى الخيبة وخيمة الذلّ؟

وحين لم يسمع جوابًا، عاد مرشد يسأل:

– شو بتقولي يامّ رامز؟ الشاب شغّيل وآدمي. وأنا شايف له مستقبل عنا.

فردّت من صميم الغيظ:

– والله أشرف لها تبقى عانس، حتى آخر العمر.

أغضبه جوابها. زوجته لا تعتمد العقل، بل العاطفة الجامحة. تتبع حسّها الاجتماعي السطحي. وتأكد له ظنّه حين سمعها تقول:

– وشو بتقول عنا الناس؟

فردّ بقوة:

– الناس؟ بتظلّي تهدسي بالناس؟ الإنسان بيعيش عمرين وما بيرضي الناس... المسيح نزل عالأرض وما رضي كل الناس. فكري معي بالعقل.

الشاب مصاقب، ما له أهل. بيصير صهر بيت. أنا مش رَحْ عيش العمر عمرين...

وأصغت بانتباه، الفكرة ليست طارئة، أو بنت لحظتها، بل إنّها وليدة تفكير. زوجها جال في الموضوع وتوصَّل إلى هذه النتيجة. ولانَت قليلًا، وهي تأخذ بقوله: صحيح، إلى متى تظلّ مهتمّة بالناس وهي تعرفهم، كواسر، ينتظرون سقوط الفريسة لينهشوا لحمها.

وقالت لزوجها بشيء من التسليم:

– والله، يمكن تكون على حق يا رجّال... بيكفينا تفكير بالناس... صار لازم نفكر بحالنا...

87

وكان تَقَارُبٌ صامت وطبيعي قد حصل بين ليًّا وفارس خلال أوقات العمل المشترك. ولم يُبد دهشة لخروجها إلى الحقول، هذا ما تفعله معظم نساء الجورة... لكنه كان يحسّ بغُصّة لا يعرف سببها، كلّما أبصرها غارقة في الأشغال القاسية، متجاهلة كيانها... جسدها، وروحها... ويقول لنفسه إنّ فتاة مثلها خُلقت لتعيش في نعمة القصور، لا في قسوة الأشغال الشاقة. وخصوصًا والدها ملَّاك، وقادر على أن يكتري عاملًا بديلًا عنها ويُعفيها.

لكنّ فارس كان يبصر الوضع من زاويته، ويجهل ما يتوارى خلف المظهر السطحي... فظلّ يتساءل عن السرّ الذي يدفع الفتاة إلى قهر النفس والجسد...

وجاءه الجواب، وبطريقة غير مباشرة، حين دعته أم سليمان ليسهر عندها، في تلك الليلة العاصفة...

قالت له: «خلّيك بالدَفا حتى يصير وقت النوم...».

وكانت تلك أول مرّة تُبدي فيها المرأة عاطفة تجاه فارس، فهي تدور حول نفسها وآلامها، دائمة الشكوى والتأفّف من داء العصبي، وإذا تحدّثت إليه، فَعَنِ العمل، والشؤون العامة، وقلّما سألته عن حاله. ومع أنّ فارس استغرب ذلك التحوّل في معاملتها، فإنّه قَبِل دعوتها شاكرًا، فجلس قرب الموقد، بعدما زوّده بقرامي السنديان الجافة... وسألته أم سليمان عن العمل، وعن علاقته بمرشد، وإذا كان يلقى معاملة حسنة، فأجاب عن أسئلتها، بلا تكلّف، وأثنى

على مرشد، وأفراد عائلته، وطمأنها بأنه لا يشكو ولا يتذمّر، بل يشكر الله على تلك النعمة، وعلى المعاملة الطيّبة التي يلقاها.

– وكيف إنت وليّا يا فارس؟

فاجأه سؤالها هذا، ونبّهه إلى أنّ المرأة تحاول أن تستدرجه، ليخوض معها حديثًا ظلّ يمتنع عن الدخول فيه بينه وبين نفسه؛ هو عامل، أجير عند والد ليّا، فكيف تُساوي المرأة بينهما؟

لزم الحذر، ولم يدرِ بما يجيب. فكرّرت السؤال في قالب آخر:

– شو رأيك فيها؟

وردّ باختصار:

– فيها البركة يا خالتي.

انتعشت عينا المرأة العجوز، وهما تغوران أبعد، في أعماقه، وتابع صوتها:

– هَيْكْ ما اختلفنا، بس أنا عم اسأل شو رأيك فيها، عروس؟

وجاء الجواب عفوًا:

– العين ما بترتفع عالحاجب يا خالتي أم سليمان.

وتابعت تصعيد الحوار:

– ليش شو ناقصَك، اسم الله حولك! صحّة وشبوبية، ونشاط... كل بنت بتتمنى هَيْكْ رجّال.

شعر بخطر الانزلاق، وظلّ صامتًا. يريد أن يعرف إلى أين تقوده هذه المرأة؟ وهل تطرح أسئلتها لتُوقعه؟

وبينما كان الوعي يأمره بأن ينهض قبل أن تجرّه إلى ما لا يريد قوله، كان شعور آخر يشدّه إلى البقاء والتلذّذ بسيرة ليّا. بذكرها. ذكر اسمها ثم... ها أم سليمان تفاجئه بسؤال جديد: – خبّروك شي عن قصتها؟...

وتستأنف:

– إذا سمعت، يا ابني ما تْدير أذنك للحكي... الناس بتحكي. لكن البنت مظلومة. إذا تزوجتها، بيكون حظّك من السما. وهَيْكْ بتكون فكّيت أسرها.

أم سليمان تدفعه، وتُقَرّبه ليلامس أطراف السرّ، وتثير شوقه ليسمع المزيد. ثبّت جلسته، وراح ينكت النار، ويُعيد تركيز القرامي فوق الجمر المتلألئ في الموقد، أصاخ السمع جيدًا. ولم تبخل المرأة، فراحت تسرد

الرواية، بكامل التفاصيل، من وجهة نظرها؛ مع إضافات وشهادات لصالح ليّا: «بحلف عالإنجيل ان البنت مظلومة... ياخْطَيّ ساقوها مثل النعجة. كانت طفلة، وضحك عليها عبدالله. واحد مقرقحو الدهر وهي طفلة. إذا رضوا يعطوك يّاها، إضحك بعبّك، يا فارس»...

ظلّ صامتًا. لم يَدْرِ بماذا يجيبها. كلامها يتخطّى أحلامه ويغرس الخوف في أعماقه، ولا يرى مخرجًا سوى الهرب. نهض يودّعها بلهجة حياديّة. وكأنه لم يسمع قولها، وكأنّ يدها لم تمتد، وتزيح الستار عن وعيه.

– تصبحي بخير، خالتي أم سليمان.

فردَّت بلهجة مشوبة بالعاطفة:

– وأنت بخير يا إبني... تْمَعَّنْ بكلامي يا فارس، وشدّ الهمّة...

وكان كلامها خيط النور الذي قاده إلى غرفته الباردة. وكان نور أمل جديد يشرق في حياته.

88

وليّا زهرة ذابلة، تعيش خارج الزمان، ولا تحفل بالرجال. ولا تسمح للعين بأن ترى، وللوعي بأن يفتّق أغشية الحلم. انطوت على نفسها بعد الطلاق، كالمحارة، تحتضن أسرارها، ولا تتحاور مع الآخرين. وَحدها أسماء ظلّت قادرة على فتح ثغرة في جدار الشرنقة، وَحدها ظلَّت تحمل بصيص النور إلى دنياها المظلمة، وكان للحوار مع أسماء حدود. وتبقى الشكوى، طبقات ثقيلة رازحة فوق الصدر ولا تتلاشى إلّا في لحظات النجوى والتأمل، حين تجلس ليّا في صحن وحدتها، فوق المصطبة، تتأمل الأفلاك، وتحصي غمزات النجوم، وتُصعِّد آهاتها للأُذن المصغية، خلف عباءة الظلام... بقيت لها القدرة على التأمل، وأحيانًا على الصلاة. وكانت تشعر بأنّ في ذلك خلاصها. بل إنّ الغوص في الأعماق الحزينة الصامتة، كان يدفعها إلى البكاء، بصمت وحرقة... وتتذوّق طعم الدموع المالحة، تمامًا مثلما تغسل وجهها وعينيها... حتى إذا فرغت مآقيها من الدموع، انسحبت إلى غرفتها، واندسّت تحت اللحاف بصمت وراحت تهدهد نفسها، لتغفو. أحيانًا، كانت تلازمها الدموع، وترافق تموّجات النعاس، ثم توقظها، مع شروق الشمس، لتجد في البكاء عزاءها وملجأها السرّي.

أما فارس، فقد نام ليلته تلك فوق بساط الأحلام والوعود. وحين نهض صباح اليوم التالي، شعر بلسعة باردة بين كتفيه. قام من فراشه، وتوجّه إلى النافذة المقفلة، فهبّت عليه نفحات ثلجية، دفعته إلى البحث عن الحرام، يلتف به، ريثما يشعل «وابور» الكاز ويسخّن الماء ليُعِدَّ فنجان شاي... لفّ رغيفًا مرقوقًا، وحشاه ببضع حبّات من الزيتون الأسود الدسم، وَرش فوقه الصعتر والسمّاق، وراح يأكل بشهية، وقد عادت إليه ذكريات السهرة البارحة.

لأول مرّة، منذ استأجر الغرفة، يشعر بأنّ الشوق، وليس الواجب، هو ما يدفعه ليقوم بزيارة الجارة، قبل أن يخرج، ويسألها عمَّا إذا كانت تريد منه خدمة؛ خصوصًا وأنّ الثلج يقفل الطرق، ويتراكم فوق السطوح...

كان يعرف واجبه: تأمين الحطب ليوم كامل، وجرف الثلج عن السطح، وفتح المعبر، من العتبة، حتى الطريق العام.

وحين اطمأنّ إلى أن أم سليمان مرتاحة، استأذنها ليخرج إلى المكان الوحيد الذي يقصده كل صباح: منزل معلمه مرشد ضاهر.

فتحت ليّا الباب، ودَعَته إلى الدخول. كلمات بسيطة، ترددها كل يوم: «يسعد صباحك... تفضّل»...

إنّما كان لتلك الكلمات وقع آخر، وكأنها دعوة شخصيّة منها، نزلت على قلبه كالبلسم. رفع نظره إليها، من دون أن يقصد، وشعّت عيناها في عينيه فأحسّ وهجهما يخترقه ليصب في نقطة غائرة على الجانب الأيسر من صدره. وراحت ضربات قلبه تتضاعف. وهو حائر، يحاول أن يقتلع قدميه، من المكان، وعيناها تغرقانه. تُسمّرانه. ولا يجرؤ على تصديق ما يجري. أوَيكون ذلك فعل السحر؟ أم أنّها كلمات أم سليمان؟

خشي أن تلحظ ليّا ما يجري، فحاول أن يملأ الفراغ بالكلام، وخرجت كلماته تأتأة منخفضة:

– م... معلمي موجود؟...

فأومأت برأسها، إيجابًا، ثم انسحبت إلى الغرفة الداخلية وتوارَت عن نظره. وجاءه صوت مرشد من الغرفة الشتوية مصحوبًا بسعاله المألوف:

– مين، فارس؟ تفضّل.

وحين دخل فارس، دعاه ربّ البيت ليشرب معه فنجان زهورات:

– اشرب يا ابني، ما في مثل الزهورات، صبحية، بيفتح الذهن، وبيدفّي القلب.

صبّح فارس وتقدّم خطوتين. ثم جلس ركوعًا على ركبتيه، وكأنّه ساجد في معبد. وأمامه تتلألأ ألسنة النار، تندلع من بين القرامي السخية، فتملأ النفس دفئًا، قبل أن تنتشر في زوايا الغرفة.

– شو، مستعدّ اليوم لفلاحة البورة، أو كرم المطلّ؟

سأَله مرشد بسخرية مرحة، عبّرت عن رَوَاق المزاج، وشجّعت الفتى على الاستمتاع بمذاق الماء الدافئ المُحلّى بدبس العنب، وردّ قائلًا:

– الهيئة العيانة ثقيلة... الله يسلّم شجر الزيتون...

فقال مرشد مطمئنًا:

– الله كريم... الثلج خميرة الأرض. لولاه، كانت الآفات بتاكل الأخضر واليابس.

ووافقه فارس:

– كلامك صحيح يا معلمي... بسّ الشتا شدّة ولو فيه الفرج...

وتابع الحوار مستدرجًا الفتى إلى المزيد:

– اليوم دور الطبيعة، هي عم تشقى، ونحن مرتاحين.

وابتسم فارس بإعجاب، وطابت نفسه لهذه الفلسفة، يتكرّم بها سيّده؛ لكنّه لم يجد في حدود إدراكه كلامًا يليق بالردّ، فاكتفى بشفَّة من السائل الدافئ وتأمل الرجل المهيب بطرف عينين خجولتين.

كان مرشد يجلس في الزاوية الأقرب إلى الموقد، وقد التفّ بعباءة من وبر الجمل، وجلس فوق طرّاحة وثيرة، تحيط بها عدّة جلود من فراء الخروف الكثيف؛ الفرش المألوف حول الموقد. وهو ينعم بدفء يجيئه من مقعده كما يلفحه من لهبة الموقد. ولم يلبث الدفء أن انتقل إلى كيان جليسه، فأحسّ بأن وجوده هناك، نعمة تجود بها الحياة على المختارين من أبنائها. وحسب أنّ الرجل ختم الحوار حين مرّت دقائق من الصمت، لكنه فاجأه بسؤاله: – كيفك إنت وأم سليمان؟ انشالله مرتاح عندها؟

– الحمدلله يا معلمي... الست أم سليمان فيها البركة...

أعجب مرشد بهذا الجواب، يأتي من فتى بسيط، وتذكّر كم كان مهذَّبًا، لطيفًا في تعامله، مع الصغار والكبار. وقد تعمّد منذ البدء أن يرصد تصرّفه وسلوكه، ويسجل عليه كل لفتة. ولاحظ كذلك أن الرجل، مقتصد بكلامه، لا يلفظ منه سوى اللازم، والضروريّ. يقوله بحكمة تفوق سنّه، هذا إلى جانب النخوة والنشاط في العمل، والنظافة. وأحسّ بموجة حنان تعود فتنهض من أعماقه، وتدفعه باتجاه الفتى، ويتمنّى لو يضمّه إلى صدره، ويصبّ في كيانه شوقه وحنينه إلى ولديه.

رامز ويعقوب، عملا أيضًا تحت أيدي الناس. الهجرة قاسية والبلاد غريبة، وهو لا يعرف الكثير عن أيامهما وأحوالهما، سوى ما تنقله الرسائل الشحيحة: «وإن جاز سؤالكم عنّا، فنحن، والحمدلله بألف خير، ولا ينقصنا سوى مشاهدة نور وجوهكم، ورضاكم، ودعاكم لنا، بالتوفيق والنجاح»...

ماذا يعرف عن أيام القهر والأَلم والبدايات الصعبة؟ صحيح أنّهما سافرا على اسم أخوالهما، لكنه يعرف الغربة. هو هاجر، وذاق طعمها، وتعلّم كيف يصارع الناس، كل واحد في موضعه، ويمضغون لقمة الاغتراب المرّ، إلى أن يوفّقهم الله، وينجحوا.

90

رامز ويعقوب هاجرا غصبًا عنه. كان يعدّهما لتولّي شؤون الرزقات بعد موته، ورعاية الأملاك التي ورثها عن أبيه، عن جدّه... عن كلّ الأجيال السابقة. وكان يحلم بسواعدهما، تحميها وتتعامل معها بمحبّة السواعد المجبولة من بعض تربتها. وكاد حلمه أن يتحقق لولا أن قدرًا أكبر منه، وأبعد من إرادته، اضطرّهما إلى الهجرة.

كان عليه أن يختار لهما، بين الموت في جبهة مجهولة، «السفربرلك»، أو يدفعهما إلى البحر، وبالتالي إلى دنيا الاغتراب... فاختار الحياة، والسفر. وهو ليس نادمًا، بقدر ما هو مشتاق، مثل أيّ أب يشتاق إلى رؤية بَنيه. ويعرف، في صميم كيانه الواعي، أنّ ما فعله هو عين العقل؛ فقد أنقذهما من الموت أو الجنون...

نعم، مختار راح مثل الفهد ورجع فاقدًا عقله.

ومختار من عمر ابنه البكر، رامز. ذهبَا معًا إلى المدرسة، لكنّ مختار لم يكتف بالعلم الابتدائي أو الثانوي؛ بل نزل إلى بيروت. وساعده عمّه، المغترب على متابعة دراسته في الجامعة الأميركية. وتخرّج طبيبًا. كان مختار أول شاب في المنطقة يتخرّج من الجامعة الأميركية في بيروت، وبرتبة تفوّق في الطب. حمل الشهادة ورجع إلى الجورة ليقضي عطلة الصيف. أمه عملت له عرسًا. ظلّ الناس أيامًا يزورونه، مهنئين، ويتفرّجون على الشهادة المختومة بخاتم مذهّب، وينادونه: «يا دكتور».

وأمه وزّعت الضيافة «الحلوينه: ملبس عاقضامه، زبيب وتين». كانت تقول للناس إنّ ابنها عاد بشهادتين: واحدة في الطب، والثانية في التفوّق. أساتذته نصحوه بالسفر إلى أميركا ليتابع تخصّصه. لم يكن أحد في الجورة قد سمع من قبل، تلك الكلمة: «التخصّص». سألوه عن معناها، وشرح لهم بالتفصيل. وقال لسائليه إنّه لم يقرّر بعد ما إذا كان ناويًا على السفر. قال لهم إنّه يحب أن يفتح عيادة في حاصبيا، ليتسنّى له تطبيب المرضى وخدمة أهالي المنطقة. وهو في حاجة إلى الراحة لمدّة شهر، أو شهرين... لكنّ عيون السلطان كانت ترصده، ولم تدعه يكمل الإجازة. «طبّوا عليه، في ليلة ما فيها ضَوّ قمر. خطفوه وراحوا. قالوا لأمّه فيه نقص بالأطباء، والجيش بحاجة إليه»... وأمه بكت بحرقة. وانحنت تقبل أقدامهم وترجو منهم أن يتركوه... نفضها العسكري عن جزمته مثلما ينفض الغبار، وساق مختار مع بعض الشبان، إلى الخطوط الأمامية من الجبهة: «هون محتاجين لخدمتك. هون القتلى والجرحى بالمئات»... هكذا تروي الأمهات الحكاية.

وكان مختار شابًّا، في مقتبل العمر، غير مجرّب في الحروب، راح يتلقى الصدمات الواحدة تلو الأخرى. ولم يَقْوَ على احتمال المشاهد الدامية، فانهار، وصار الطبيب في حاجة إلى من يداويه. ولم يُفِدْه خضوعه للفحوص، ومن ثمَّ العلاج؛ فقرروا إعادته إلى الجورة.

وعاد إلى أهله، وقد فقد الكنز الذي ميّزه عن سائر الشباب: عقل العالِم الذكي. فقده بسبب صدمات أقوى من طاقته على الاحتمال. اعتزل الناس، وأقام في غرفته، لا يبرحها، ولا يتكلم مع أحد. حتى أمه فشلت في إخراجه عن

صمته وعزلته. واكتفت بالسهر على حاجاته الجسدية، وأحاطته بالعاطفة، آملة أن يعيده حنانها إلى حالته الطبيعية.

وقد عاد الجسد، إلى طبيعته، لكنّ الطبيب ظلّ غائبًا. وبَدلًا من أن يمارس مختار مهنة الطب، عاد إلى الفلاحة... راح يحرث ويحصد، مثل أيّ فلاح أصيل؛ حتى إذا ما فرغ من عمل الحقل، قبع في غرفته، بعيدًا عن الناس، بعيدًا حتى عن أهله...

91

عاد مرشد يتابع حواره مع فارس:

– قلت إنّك مرتاح بالسكن يا ابني؟

– الحمدلله يا معلمي.

– وأنا اليوم بدّي ريّحك... الثلج سكَّر الطرق...

– بس أنا حاضر للعمل في البيت. بزحف الثلج عن السطح، بفتح الطريق للبيت وللمدّ.

– البركة فيك يا ابني، البركة في همّة الشباب.

تغلّفه الكلمات بدفئها ويغمره شعور عذب، يصل حتى أعماق وجدانه، سيّده راضٍ عنه ويناديه: «إبني»!

أول مرّة يسمع ذلك النداء. وتساءَل عمَّا إذا كان مرشد يقصد أن يقرّبه منه... ولم يجرؤ على المضيّ أبعد من حدود التساؤل. وبالرغم منه، عاده حديث أم سليمان: أتراه في الطريق إلى تحقيق ذلك الحلم؟ أوَيُعْقَل أن يقبله مرشد صهرًا؟

الأسئلة تتزاحم. تفتح الأبواب وتغلقها. وتزيده قلقًا وحيرة.

نهض مودِّعًا فاعترضه الشيخ مرشد:

– خَلِّصْ شغلك وارجع تْغَدّى معنا. خالتك أم رامز طبخت كبّة حيلة بكشك بقاورما...

حاول أن يعتذر، فرفض عذره:

– اليوم ما في شغل. صاقبت.

– الله يديمك يا معلمي.

وكانت الدعوة بداية الطريق إلى حمى العائلة. جلس فارس، لأَول مرّة، حول طبق القش، وكأنه فرد من الأسرة. وأحضرت ليّا أطباق الحواضر: زيتون، تين معقود، لبنة بالزيت، وباذنجان مكدوس ولفت مخلّل. وراحت أم رامز تسكب الكبّة. ودعاه ربّ البيت ليأكل: – تفضّل، ما تستحي يا ابني. أهلا وسهلا فيك.

وكان فارس، من قبل، قد شارك سيّده زاده، إنّما في الحقل لا في البيت. والدعوة ترفعه، من حيث هو، فوق الأرض الترابية، ليحلّق على أجنحة الأثير. لم يجرؤ على الانطلاق بعيدًا، خشية أن يفتح عينيه، ويكتشف أنّ هذا الذي يجري هو حلم، وليس الواقع. ومع أنّه لم يسمع كلمة واحدة من ليّا، طوال فترة الغداء، إلَّا أن وجودها طغى عليه، فكرًا وعاطفة. وأحسّ بأنها تأسره بصمتها، بنظراتها الخفرة، ثم بانكسارها. تمنّى لو كان بوسعه أن يخاطبها فقط ليقول لها إنّه مستعد لأن يزيل عنها كلّ ألم، ويعوّضها من حزنها... مستعد لأن يعمل ويشقى، العمر كله، ليوفّر لها الراحة والسعادة. ويقول لها إنّ فتاة مثلها تستحق كل هناء وتكريم، وهو قادر على توفير ذلك... إذا أُعطِيَت له الفرصة.

حين رجع إلى غرفته مساءً كانت ليّا تسبقه، وظلّت حاضرة في عينيه، كما في وجدانه. وأحسّ بأنها ستقيم هناك إلى الأَبد. ولن تستطيع قوّة أن تطردها.

ليّا، فَرَحُه وسعادته... فهل تشعر بوجوده؟

كيف له أن يعرف؟

92

سمعت أم سليمان وقع خطاه، فراحت تناديه من خلف بابها المغلق، ولما أطلّ عليها قالت مداعبة:

– مين شَافْ حْبَابو، نسي صحابو...

وبقيت عيناها تتجوّلان فوق ملامحه، تحاولان سبر أعماقه، ومعرفة سرّ الغياب:

– طوّلت الغيبة اليوم، شو رحت عالكروم؟...

أدرك معنى السؤال، وقرّر أن يبقى عاديًّا:

– اليوم اشتغلنا بالزحف والجرف. الثلج سدَّ كل الطرق والمعابر.

فقالت:

– بسّ الثلج له حسنات. شو الهيئة عزمك الشيخ مرشد عالغدا؟ والأكل طيب من تحت إيدين الصبايا؟...

ابتسم للدعابة:

– والله تكرّم وعزمني، وما قبل عذري...

نهضت جالسة في الفراش، وبرقت عيناها:

– وليش بَدَّكْ تعتذر؟.. هو كريم وإنْت بتستاهل... يلَّا، اغتنم الفرصة. وأنا مستعدة إمشي قدامك...

قفز قلبه رهبة، وتأتأ الكلمات:

– لا... لا... خالتي أم سليمان. بعد بكّير...

فطيّبت خاطره بقولها:

– طبعًا ما رَحْ أعمل شي غير برضاك. يلَّا، قوم نام وارتاح، وما صبح إلَّا فتح.

نام، على جناح الأمل والحلم، وراح خياله يسرح، ويبني له عمارات فوق قوس السحاب. وكانت أيامه التالية ممتلئَة بذلك الشعور الرضيّ، يتلذذ بمضغه... حتى إذا بلغ به الخيال حدًّا يلامس وجودها، ارتدّ إليه، قلقًا، مرتبكًا.

عَلَّمَتهُ حياة الكفاح والشقاء أَلَّا يسترسل في أحلامه. لكنّ أحاسيسه تقوى عليه وتخرج من إرادته المدرّبة وذهنه الواعي، الساهر أبدًا لتسديد خطاه وردِّه إلى الصواب... هكذا كان، حتى هذا اليوم الذي يقف حدًّا بين فصلين من عمره.

وأحلامه كانت السبب في نهوضه المتأخر صباح اليوم التالي. ارتدى ثيابه بسرعة ولفّ «عروس» زيت وصعتر، ترويقة الصباح، وخرج.

كانت السماء صافية، غيرها بالأَمس. «ثلجتْ فرجتْ»، يقول الناس في الجورة. والليلة البارحة أنهت الحسابات مع الطبيعة العاصفة. أَوَيكون هذا النهار بداية الصحو في عمره؟ أحسّ الفرح يغمره. يفيض من داخل صدره، ويملأ كيانه. راح يُصَفِّر ويرندح لحنًا شعبيًا، ويتصور وجه ليّا مشرقًا عليه من خلال الأنغام.

93

من بعيد أبصرها. كانت تحمل الرفش وتعمل على جرف الثلج عن مدخل البيت. ثلج الليلة الماضية. بادرها بتحية الصباح، واقترب وسحب الرفش من يدها:

– هيدا مش شغل الصبايا، خلّي عنك.

لم تعترض. جرف الثلج عملية متعبة، وشعرت بأنّها لن تستطيع المضيّ فيها حتى النهاية، لكنها تابعت العمل، ترتاح لحظات، ثم تعاود الجرف، وكأنما تنتظر وصوله في الوقت المناسب.

ومن داخل المنزل، كانت هناك عينان تراقبان ما يجري.

كان مرشد واقفًا أمام النافذة، يُجيل بصره في اللوحة البيضاء أمام بيته، عندما أطلّ فارس، ثم رآه يهرع بنخوته المألوفة ويخطف الرفش من يد ليّا ورآها تقف لحظات تتأمّله، قبل أن تقرّر الدخول إلى المنزل...

«هالولد صاحب نخوة»، قال ذلك لنفسه، وهو يحسّ بأن ثقته بفارس تزداد يومًا بعد يوم. وقرّر أن يبحث عن طريقة لإبقائه ضمن محيط العائلة.

ولم يكن يفكر في عرض فكرة الزواج من ليًّا، فللبنت كرامتها وعليه أن يصونها. إنّما فارس وحيد، لا أب له ولا أم، وهو في مكانة أب له. تبنّاه عاملًا، والآن يشعر بالأبوة العاطفية نحوه. لكن، ومهما كانت الأحوال، لن يعرض عليه فكرة الزواج.

راح يقلّب المسألة من كل الوجوه، ويفكر كيف يمكن أن يطرق موضوعًا حسَّاسًا، وعلى تلك الدرجة من الأهميّة، من دون أن يشعر بالحرج... وأشرقت في رأسه فكرة يمكن تحقيقها: لماذا لا يمتحنه. وكان فارس على وشك الانتهاء من جرف الثلج حتى الطريق العام، وعينا أبو رامز تراقبانه من خلف زجاج النافذة: – تعال يا ابني، دَفِّي إِيدَيك واشرب فنجان زهورات.

– كثر خيرك يا معلمي. بعد رفشين، وبخلّص.

«وآخر رفشين» وصلا به إلى منتصف الطريق العام. عندها، فقط، شعر فارس بأَنَّ في وسعه أن يرتاح. يستحق الراحة تحت سقف الرجل الطيب.

خلع حذاءه عند العتبة، وسار متمهّلًا باتجاه الركن الدافئ. وكان مرشد قد سكب الماء الدافئ في فنجان وأضاف إليه ملعقة كبيرة من الدبس، ونَاوَلَ الفتى الفنجان مع مبادرة اجتهد أن تكون عفويّة: – صار لك سنة معنا يا فارس، وما خبّرتنا شي عن حالك...

فاجأه السؤال. تريّث قليلًا ثم أجاب:

– أنا بأمرك، شو بتريد تعرف يا معلمي؟...

– بريد أعرف كلّ شي... كلّ شي... منعرف إنّك نشيط، وآدمي، بس شو ناوي تعمل بالمستقبل؟ بالطبع بتكون عم تفكّر بالمستقبل، مثل كل الشباب...

يُحيّره كلام سيّده، هل يفكر، حقًّا، في مستقبله العمليّ؟ أم في حياته الشخصيّة؟ مهما كان الأمر، إنّه مهتمّ به، وعليه أن يقف في مستوى ذلك الاهتمام. شعر بقوة جديدة تنهض من أعماقه، تمدّه بالشجاعة والثقة بالنفس... وتدفعه ليردّ بطريقته البسيطة: – المستقبل بإيد الله يا معلمي... مثل ما الله بريد.

وهزّ مرشد رأسه موافقًا:

– هيك صحيح... بس الله قال: «قُمْ يا عبدي، تاقوم معك».

لم يعرف فارس بماذا يردّ بعد ذلك، فلزم الصمت. وحين شعر بأنّ جليسه لم يعد مستعدًّا لاستئناف الحوار، استأذنه، وخرج.

94

كانت أم سليمان تنتظر بفارغ الصبر. تريد أن تسمع من فارس أحداث ذلك النهار، فهي تائقة إلى أن ترشده. واطمأنّ هو إليها، بل جاء مشتاقًا للجلوس معها، والردّ على أسئلتها:

– كيف كان نهارك؟ شو، قمحة ولَّا شعيرة؟ خبّرني كل كلمة... كل حركة...

كانت مستعدة للإصغاء، وكان يريد أذنًا تصغي إليه، فقصّ عليها كل ما جرى معه، ولمّا فرغ، سمعها تقول بحماسة:

– شفت ان الحق معي؟ بو رامز ناطر كلمة منك. بس مليح إنك ما تسرّعت.

وقاطعها بسؤاله:

– شو بتشوري عليِّي خالتي أم سليمان؟

فطمأنته قائلة:

– قبل الضَوّ، رايحة زور الجماعة، وجسّ النبض.

95

لم ترحّب سيدة بالسؤال الذي حملته أم سليمان للوقوف على رأي العائلة، بل اعتبرت طرح الموضوع إهانة لِلِيَّا، وجرحًا في صميم كرامة العائلة:

– ليّا ما بدها عرسان...

هكذا اختصرت الجواب.

ولم تتراجع أم سليمان. كانت مصمّمة على المضي بإلحاح، لبلوغ نتيجة. وساعدها دخول والد ليّا في تلك اللحظة فاغتنمت الفرصة وحوّلت مجرى الحديث باتجاهه:

– خلّينا نشوف خيي بو رامز شو بيقول؟

تأمّلها لحظة قبل أن يسألها:

– خير انشالله. الهيئة الجلسة سرّية...

فردّت على الفور:

– ما في إلَّا الخير... كنت عم احكي كلمتين مع اختي أم رامز. ما فيه عليك أسرار.

– يعني ممكن إسمع!...

فحنت أم سليمان رأسها وخفضت نظرها إلى الأرض وقالت بهدوء:

– فارس إلو خاطر بِليَّا. الشاب عايش بفضلكم، ومش ناقصو شبوبية أو صحّة. وبالشغل بتعرفوه أكثر منِّي، كامل المْرُوِّة وآدمي تايفضل عنّو... اسمو فارس وهو فارس.

قرّب مرشد كرسي القش، وجلس، متابعًا إصغاءه، ومنشغلًا بلف سيجارة تتن. ولما انتهى، مرّ بطرف لسانه على حرف الورقة ليُحكم إلصاقها، ثم سحب من جيبه حجر الصوّان، فقدحه، وأشعل الفتيل، ومنه أولع السيجارة. كان يفعل ذلك، وكأنّه يستعين بحركة يديه، وشفتيه لاستجماع فكره.

الموضوع يهمّه، وعليه ان يُعطيه حقّه من الإنصات والمعالجة.

سحب مجّة من اللفافة ونفث الدخان فتسرّب من بين شاربين، حوّلت عادة التدخين لونهما إلى ما يشبه القش اليابس:

– منشكر غيرتك، ياخْتي أم سليمان... الشَّبّ، مثلما تفضَّلتي، فيه كل الصفات الطيبة. وبالحقيقة، أنا صرت اعتبرو مثل أولادي. بس...

فقاطعته أم سليمان، مستغلّة طيب مزاجه:

– بس شو؟

ولم تنتظر جوابًا، بل تابعت:

– فارس عاقَدّ إيدك؛ بيستلم الرزقات، وبيكمّل، مثلما هو معك... فقير؟ بسلامة معرفتك خيي بو رامز، الرجال بتصنع المال.

كانت تتكلم، وتنقل عينيها بين مرشد وزوجته تقيس حرارة الجوّ، وتستجيب لذلك الشعور الواثق الذي استولى عليها، ودفعها إلى أن تتحدّث من موقع القوة.

ظلّت أم رامز صامتة، وقد غطّت وجهَهَا سحابةٌ قاتمة:

أَوَتكون هذه آخرة ابنتها الجميلة؟ تتزوج أجيرًا؟

لكنّها مغلوبة على أمرها، راضخة لذلك القدَر الذي اختار تلك الإبنة كي يجرّبها. أعادها إلى الجلسة صوت زوجها:

– كلامك معقول ياختي أم سليمان، بس لازم نتشاور مع بعضنا. امهلينا كم يوم...

فهتفت بحماسة:

– خوذ وقتك خيي بو رامز... أنا بْريد مصلحة البنت. ليّا جوهرة... بس الحظوظ من الله.

لم يردّ فعلًا. ولم تكن زوجته على استعداد لتقول كلمة. وفكرت أم سليمان في أنّ هذه فرصتها للخروج. أدّت دورها، يكفيها أنّها غرست كلامها، والأرض لم ترفض. والفلاح سيّد من صَبَر وانتظر.

وبعد أسبوع، قامت بزيارة العائلة مرّة أخرى؛ وكانت في غاية الحماسة، ومستعدة، هذه المرّة، لإقناع الأم، التي لزمت الصمت خلال الزيارة الأولى. ولم تُخْفِ هذه الحقيقة عن فارس. وحين سألها ماذا كانت نتيجة زيارتها الأولى قالت: – الهيئة خير. الأب مْطَرِّي الجوّ. بس عم جرّب جيب الأم للدقّ... بعد ما طَبَقَتْ.

ولم تَزد على ذلك خشية أن تُفْلت منها كلمة تفضح حقيقة مشاعرها تجاه سيدة. ستبقى ماضية في مَسعَاها الحميد... وقد استعدت لكل الاحتمالات قبل أن تقوم بالزيارة الثانية. وراحت، في الطريق، تُسَمِّع الخطاب الذي حفظته عن ظهر قلب: «شو يَخْتي أم رامز رَحْ تظلّي قالبة خلقتك؟ مين ناطرة من غير شرّ؟ شباب بالجورة يُوق. الكل سافروا، والبنات عالبوار...».

حاولت أن تختار كلمات تستفزّ المرأة من دون أن تجرح كبرياءها. لم تذكر قصّة زواج ليّا وطلاقها، لا من قريب ولا من بعيد. كانت تريد أن تأكل العنب، لا أن تقاتل الناطور.

96

ولم تكن مهمّة أم سليمان أصعب من المهمّة التي تصدّى لها مرشد، فقد دعا ليّا إلى جلسة حميمة، كما لم يفعل منذ سنين، وراح يمهّد للموضوع. وأدركت الفتاة بالحَدْس، ما تُبطِنه الكلمات. وكانت زيارة أم سليمان قد أثارت فضولها، ثم حين عادت في المرّة الثانية، باتت شبه أكيدة أنها هي في صميم ذلك الاهتمام: «مشاوير أم سليمان مش بلا...» قالت لنفسها، وتابعت: «أم سليمان غير أم هاني، ما بيهمها القال والقيل... لازم تكون مكلّفة من فارس»...

وتوقّفت أفكار ليّا، لا تتجاوز هذا الحدّ. فكرة الزواج لم تعد تخطر لها في بال. والأحلام التي تملأ رؤوس الصبايا في عمرها، فارقتها حين تحوّلت إلى آلة تعمل في الليل وفي النهار. وتعمل بعيدًا عن المجتمع، وما يدور فيه من أحداث.

حتى اللقاءات التي تجمع الصبايا والشباب في المواسم والأفراح، لم يعد لها حصّة فيها، ولم يَرَ الناس في ذلك أمرًا مستغربًا. كانوا يتوقّعون أن تُقيم الفتاة في شرنقة عزلتها ووحدتها كي تحافظ على خيط الحياة في وجودها. وحين تُفلت تلك المشاعر من خلال جدران العزلة، وتُذكّرها بأنها لم تمت نهائيًّا، كانت تلجمها، وتحتال كي تعيدها إلى خط الصرامة. إنّما، وبرغم كل القسوة والصرامة، ظلّت تلاحظ وتقدّر صفات فارس، مواهبه الفَنِّيَّة، شبابه ووسامته وطيبة قلبه... وتلاحظ وتحسّ، ذلك الشعور المرهف، ينطلق من أعماق عينيه، باتجاهها. وتراه، من دون أن ترفع إليه نظرها، يخترق الأسوار، ويتغلّب على كل وسائلها الدفاعيّة.

وحين فاتحها والدها بالموضوع، كانت قد عرضته على نفسها، وتساءلت حوله عشرات المرَّات: هل تتصوّر أن تصبح زوجة لفارس نمر؟ وإذا رضيت به، هل يرضى والداها؟

وها أبوها، يفاتحها، ولا يدري كيف يختار الكلمات:

– يا بنتي، وجود هالشاب بيننا خَلّاني أشعر أنُّو واحد من العيلة. صرتِ تعرفيه، فشو رأيك؟ باعث أم سليمان تطلبك. فَكّري بالأمر، وردّي عليّ خبر.

حرّرها والدها، حين أمهلها، ولم يحشرها بالجواب. وكانت تحتاج إلى بعض الوقت، لتختبر حقيقة شعورها، وهل هو الاهتمام الذي يعيش في القلب، مدى العمر؟

وهي تعرف أنّ الزواج وحده يمكن أن يكون بطاقة الهرب من ماضيها، والتحرّر من العار المفروش فوق كيانها، والمخيّم على عائلتها.

ردّت على والدها في صباح اليوم التالي. فَكَّرَت وقرَّرت، وقالت له:

– أنا تحت أمرك، وأمر الوالدة.

بتلك البساطة فكّ أسرها. وسرى الخبر في شرايين الجورة، وعاد اسم ليّا يزهر، ويتفتّح فوق الشفاه. لكنّ التزامها بعزلتها، حماها من ردود الفعل وتأثيرها. هناك رجل، يقدم على الزواج بها، فتى شاب، كامل الرجولة، ويحبها.

أحسّت بأنّ سلسلة عظامها الفقرية تنتصب من جديد، لتستجمع الكيان الذابل، وتشدّه حولها. وفوجئت هي بالشعور الجديد، بالانتعاش المتسرّب من كل مسام كيانها. وتساءلت عمَّا إذا كانت تحبّ فارس من دون أن تدري؟ أم أنّها أحبته لحظة علمت أنه تقدّم يطلب يدها للزواج مجتازًا كل الحواجز، وغير مبالٍ بالإشاعات؟...

ومهما كان السبب، خلف الأمواج الجديدة التي تحملها، فإنها تنعم بلذّة فقدت طعمها سنوات، وتدغدغ أحلامًا وآمالًا كانت مدفونة في ظلمة نفسها الكئيبة... وقفت أمام المرآة، تتأمل وجهها وتلاحظ النور المنتشر في عينيها، وفوق وجنتيها، وكان قد خبا منذ زمن بعيد.

لقد أعاد إليها فارس صباها المفقود.

97

كان زواج ليّا وفارس مختصرًا، اقتصر على مراسم دينيّة أُجريت في منزل العروس، وبحضور والديها والأشابين. «زواج سترة، لا طبل ولا زمر»، علّقت أم هاني يومها، وكانت تتوق إلى معرفة التفاصيل الدقيقة المرتبطة بالزواج. وهي تفاصيل مهمّة جدًّا، ومن شأنها أن تقلب الميزان، وتُعيد تقويم الأحداث لصالح ليّا، فتمحو لطخة العار من حياتها. لكنّ تلك التفاصيل، بقيت في حدود العائلة؛

حتى أمها لم تصدّق ما أبصرت عيناها، حين دخلت غرفة العروسين، في صباح اليوم التالي للزفاف واكتشفت أنّ ابنتها، ليًّا، العروس المطلقة، لا تزال عذراء...

قال فارس بلهجة متحدّية:

– رَاحْ اطلع عالسطح، ونادي بالحقيقة.

وأم رامز كانت من رأيه:

– لازم ينتشر الخبر، ويمحي العار...

لكن مرشد اعترض بقوة:

– إعقلوا، وما تْخَلُّوا الناس تِحْملنا وتقوم... شبعنا متاجرة...

واعترضت زوجته:

– بس الناس لازم تعرف... لازم نردّ للبنت اعتبارها.

فَرَدَّ بلهجة متهكمة:

– بتظلّي حاملة الناس عاكْتافك!... لازم تفهمي ان الناس بتفكرها طَبيقَة بيننا وبين فارس... يا مَرا، إعقلي... ما تحركشي بالنار. الناس ما بيهمّها الحقيقة. بيهمّها الخبر اللي بيشعّل نار الفضيحة.

وصمتت أم رامز على مَضَض، فالكلمة الفصل هي للرجل، زوجها وتاج رأسها. إنّما الخبر لم يَلبَث أن تسرّبَ من الشقوق الخفيّة... وعرفت أم هاني. اكتشفت السرّ الذي قَلَبَ المعادلة لصالح ليّا وعائلتها، وحملته إلى جلسة الصباح في بيت أنجول: – ما بيصحّ إلَّا الصحيح.

قالت، قبل أن تجلس. وانتظرت أن تسمع تعليقات النساء. ولم يَصحّ توقعها.

كان خبر آخر يدور على الألسن، ويثير الاهتمام. قصة جديدة تتعلق بزوجة الطحان مخايل بو عزقة، فضيحة جديدة تثير الاهتمام وتوقد نار الحماسة: أبصروا رجلًا يخرج من بيتها عند منتصف الليل، وكان إنسًا لا جنيًّا...

ودخلت ليّا دورة الحياة العادية في الجورة.

وبقيت الحكاية دائرة معلّقة فوق بابها.

98

نهضت أم هاني مع شق الفجر. قامت إلى عملها، مثل عادتها: الأعمال المنزلية تتجدّد مع صباح كل يوم جديد، وهي تنهض في تلك الساعة المبكرة،

حتى لا تقصّر في تنظيف أو طبخ.

ساعات الصباح الباكر ثمينة، تقضيها مثل سواها من النساء، في خدمة المنزل والعائلة... والآن، العائلة تقلَّصَت. الأَولاد كبروا ورحلوا. وبقيت هي مع أبو هاني: «شيبتو عا شيبتي»، كما يحلو لها أَن تصف الوضع. وهو ينهض باكرًا مثلها، وأحيانًا قبلها، يفكّ رسن دابته «الغبرا» ثم يتوجَّه إلى الكروم، ويترك زوجته، تطنّ كالنحلة في أرجاء البيت.

في ذلك الصباح ضاعفت أم هاني سرعتها في العمل. عليها أن تنتهي كي تخرج باكرًا. ففي الليلة الماضية، وقبل أَن تنام، اتخذت قرارها. لم يغمض لها جفن، قبل أن تقرّر: «لازم زور ليّا... قبل الضوّ. شو رَحْ يصير؟.. ما رَحْ توقع السما عالأرض... هي زيارة».

وكانت تعد نفسها بالنجاح: «أم سمير امرأة طيبة. وهي غير ألماظ. بحياتها ما آذت مخلوق، لا بالقول، ولا بالفعل»... وهذا السلوك الملائكي، هو ما جعل الجورة، «من بابها لمحرابها»، تلغي تلك النقطة السوداء من دفتر ماضيها... الجميع نسوا، ما عدا رحمة «الله لا يرحمها»، قالت أم هاني، تُذكّر نفسها، وهي تردّ الطرحة فوق رأسها، استعدادًا للخروج... ثم تابعت التسبيحة، وهي تسعى في الزاروب الذي يقودها إلى دار فارس النمر: «أم زنبور... الله يغمّقلها... يحرق باطها، أكثر ما احترقتْ... راحت من الدنيا وظلّت مْعَنْفْصَة... على شو، يا بعدي؟»...

المسافة بين البيتين، رمية حجر، غرستها أم هاني بالكلمات والذكريات، فهي لن تنسى مواجهات سابقة لها مع رحمة. وحين بلغت دار ليّا، كانت قد تخلّصت من آخر مشاعر الغضب، وارتدت وجه الأنس والمرح.

99

– صبّحتك بالخير، ياخْتي أم سمير...

– يسعد صباحك، يا أمّ هاني، تفضّلي.

– زاد فضلك، ياخْتي...

جلست على أقرب كرسي، وتابعت مراقبة ليّا وهي تُقرّص العَجْنة:

– شو وحدك، من غير شرّ...

– ما يْصيبك شرّ. بو سمير راح عالكرم، وتْلَقّسْ... وأنا مثلما شايفة، غاطسة بالشغل...

أحسّت أم هاني أنّ المنديل ينزلق عن رأسها، فأعادت حزمه متابعة الحوار:

– يعطيك ألف عافية، ياختي أم سمير. صار لازم تخففي شويِّه. العمر له حق...

قالت ذلك متجاهلة فارق عشرين سنة بينها وبين محدّثتها.

وظلّ القلق المتململ في صدرها موصولًا بحركة عينيها. الكلمات تقف، في مواضعها، وهي تريدها جسر عبور إلى صميم الموضوع. ولمعت في رأسها فكرة: لماذا لا تسأل عن أخبار المهاجرين، وتقترب بذلك من غايتها: – شو أخْبار الغياب؟ انشالله عم يكاتبوكِ يا أم سمير؟

تنبّه الحسّ الداخلي في صدر ليّا. أم هاني تبدّل اتجاه الكلام. وفي الحقيقة، أنّها حدست، لحظة أبصرتها، بأن للزيارة غاية. لذلك ردّت باختصار:

– الحمدلله... عم يكتبوا.

جوابها يقفل منفذًا آخر حاولت أم هاني فتحه. لكنّها لن تتراجع:

– انشالله عودتهم قريبي؟

ويزداد حذر ليّا:

– والله هيك، علمي علمك... والسفر مكلف...

– معك حق يا أم سمير... بس الصيف بيخلينا نفقد للحبايب.

– الله كريم.

ردّت ليّا، باقتضاب، وهي تنفض يديها من آخر قرص في العجنة، ثم تنهض لتعدّ القهوة:

– فنجان قهوة طيّب، صبحية...

حاولت أم هاني أن تثنيها، كما ينتظر من ضيفة خفيفة الظلّ:

– قهوتك مشروبة، ياختي أم سمير...

– كُرْمَى لِوَاجبك.

– يكبّر واجبك.

مجاملات لا تنتهي. عبارات جاهزة. راقدة في قاع الوعي، تُستخرج، من قوالبها، وتُسكب على مائدة الحضور.

كلمات.

في خلال لحظات، كانت القهوة جاهزة. أحضرتها ليّا في الركوة، مع فناجين بداوية فوق الصينية الحلبية، ثم دعت ضيفتها إلى المصطبة:

– طعم القهوة أطيب، بالفضا... تحت العريشة...

وردّت الضيفة:

– قهوتك طيبة كل وقت، وين ما كان... انشالله دايمه.

– يديم حياتك.

من جديد أحسّت باب الحوار يتحرّك ليُقفل في وجهها، فسارعت أم هاني تسترده بسؤالها:

– يمكن خبّروكِ عن وصول الحِلْوة، ما غيرها، مَرْة الأجلَح... قال يا بَعْدي، راجعة تْزور القرايب.

لم تُظهر ليّا أيّ ردّ فعل. قالت من دون أن تُحمِّل كلماتها أيّ اهتمام:

– شو لنا دعوة معها. يلّي بيجي، ويلّي بيروح، مثل بعضو عنّا.

تابعت أم هاني، متجاهلة البرودة في الجواب:

– عينك تشوف أولماظ بهالأيام... بلا دفّ عم ترقص.

نهضت ليّا، معلنة ختام الحوار، حملت الصينية، وعليها الفناجين الفارغة، وهي تردّد:

– الله يهنّي كل الناس... كل عنزة معلّقة بعرقوبها.

وقبل أن تتوجّه إلى الداخل، كانت أم هاني تنهض بدورها منفرجة الأسارير، وقد ارتاحت إلى تبليغ الخبر:

– تقعدوا بالعافية يا أم سمير.

100

لم تكن أم هاني وحدها المحرورة بوقع الزيارة؛ فالجورة، من بابها إلى محرابها، «تشغى» مثل قفير النحل. وازداد «الشغي» عندما حميت الشمس، وانفتحت أبواب البيوت والنوافذ وعاد الناس من الكروم والحقول.

كان وصول نزهة الخبر المثير، الذي حرّك ترسّبات السكينة، والرتابة في الصدور. والعادة تقضي بأن يقوم الجميع، بواجب السلام. وبما أن وفاة عبدالله

كانت حديثة العهد، فإنّ الواجب يتضاعف، ولا بدّ أيضًا، من الأخذ بالخاطر. والتقاليد، قد تتهاون في واجبات الفرح، أما الحزن، فله الصدارة في النفوس.

وكانت أم هاني تعرف موقع المكان المفضّل لرصد حركة التنقل: المصطبة الشرقية في دار أنجول، فهي تطلّ على الطريق العام، وعلى المنعطف الذي يقود إلى دار جبران، وبوسعها، إذا جلست عند طرف المصطبة، أن تراقب، بل وتحصي أنفاس العابرين. ومثلما توقّعت، كانت الجلسة الصباحية ملتئمة مع وردة، ونصف دزينة من نساء الحي.

في تلك الساعة، عندما تتلاشى برودة الصباح، وتبدأ حرارة الصيف تتمدّد في عروق الجورة، وتختلس طريقها إلى المساكن الحجرية الترابية، تذكّر نحلات القفير بحلول موعد الراحة... في تلك الساعة السابقة لموعد الظهيرة، تلتقي نساء الحيّ، للاستراحة بعد جولة العمل الصباحي، مع فنجان قهوة مطيبة بحب الهال.

بدت الطرق خالية، ما عدا خيال نيازي الجلبوط، «خادم بيوت الأكابر»، كما تلقّبه أم هاني. كان يروح ويغدو، حاملًا السلال، والأكياس، وزجاجات الشراب البارد.

«أولماظ عم تتحضّر للوليمة»، أكدت أم هاني لنفسها وهي تقتحم خط الحديث، مدركة بالحَدْس بأنّ موضوع الجلسة لا بدّ من أن يكون زيارة نزهة لبيت السلموني. ثم تابعت من دون أن تسلّم: – هلَّا... هلَّا... إجا مين يجبر أولماظ تفكّ الكَمَر... والله لولا جبران، ما كان حدا بيدعس بيتها.

فَرَدَّت وردة تغمز من قناتها:

– انت شهادتك فيها مجروحة...

وتدخلّت أنجول توجّه الحديث في سياق آخر:

– شو وين كانت الصبحية، يام هاني؟ بكير بعثنا وَرَاكِ، وما كان في حدا بالبيت.

طوّقتها أنجول. إذًا أرسلت من يبحث عنها، فلا بدّ وأنها تعلم، وشاءت أن تضع علامة. لذا اختارت أن تواجه الأمر بصراحة:

– عملنا صبحية عند أم سمير...

واستلمتها وردة متحدّية:

– يعني ما هِدي بالك، حتى رحتِ تزفّي الخبر؟... لمعلوماتك، أم سمير ما نَطَرت حتى تهلّي عليها...

قاطعتها أم هاني:

– كنت مارقة، وعزمتني عا فنجان قهوة... ممنوع؟

وردّ صوت من بين الحاضرات بسخرية عابثة:

– إيه... مشروب الهَنَا.

ولم تردّ أم هاني، في تلك اللحظة بالذات، أبصرت كاهن الجورة، وثلاثة رجال، يسعون في الطريق الصاعد إلى بيت السلموني.

لم يجرؤ أحد من السكان، أن يتوجّه للسلام على الضيفة، قبل أن «يفتح الطريق» الكاهن والمختار، والشماس، ووكيل الوقف.

كان للجلسة المعقودة فوق مصطبة أنجول أكثر من غاية، فإِلى جانب غربلة الناس، كان في مقدمة المواضيع السلام على نزهة: هل يذهب الأهالي لزيارتها، مثلما تعوّدوا أن يفعلوا، عند رجوع الغياب؟ أم يعتبرون نزهة غريبة، ولا لزوم للقيام بالزيارة التقليدية؟

إنّ التشاور في ذلك ضروريّ، حتى لا يقع العتب.

وجاء الجواب عن هذا التساؤل، في بطاقة، كتبها جبران بخطه، وراح نيازي يطوف بها على البيوت: «ندعوكم إلى حفلة استقبال في منزل جبران السلموني، لمناسبة وصول الضيفة العزيزة نزهة بو مرعي، من أميركا».

وكانت هذه خطوة جديدة: دعوة إلى الاستقبال؟ ولماذا في ليلة واحدة؟ أوقفت أم هاني الفتى نيازي وراحت تستجوبه، وفهمت منه أنّ الضيفة تزور لأيام معدودة، ولن يتسع وقتها للاستقبال طوال أيام إقامتها، لذا ارتأت، مع ألماظ وجبران، الحل الذي يتفق ويتماشى مع عادات المدن: حفلة استقبال.

101

تحت عتبة جبران، سقطت كل الخلافات القائمة بين الناس...

تلقّى سكان الجورة الدعوة بترحيب. منهم من لبّى، ومنهم من فضّل السهر في الحقل، على حفلات «طقّ الحنك».

ما كادت تغرب شمس ذلك النهار، حتى راح الناس يخلعون ثياب العمل والحقل، ومعها ينفضون تعب النهار ليخرجوا بالثياب الجديدة، والوجوه الفرحة.

من زمان بعيد، لم تستقبل دار جبران السلموني أهالي الجورة، كبارهم وصغارهم، من زمان... من تاريخ عودة جبران، قبل خمس وعشرين سنة.

تحوّلت الدار إلى خَلِيَّة نحل، فُتحت قاعة الاستقبال، وباتت الغرف المحيطة بها مكمّلة لتلك القاعة. وحين امتلأت، راح الناس يتوزعون فوق الشرفات والمصاطب. واعتلى الأولاد أسوار الحديقة، وأشجارها. وكانت الأعين جميعها تبحث عن وجه واحد تتعرّف إليه عن كثب... وهو الوجه الذي يزور الجورة لأول مرّة: وجه نزهة.

لكل عائلة مقيمة في جورة السنديان، عدة عائلات في المهجر، من جيل نزهة ومن قبل، ومن بعد.

الهجرة من الجورة بدأت مع مطلع القرن، ولا يزال الحبل موصولًا. والهجرة مقيمة في أعماق النفوس، حنينًا وأسى، ولها في حياة الناس طقوس وتقاليد.

وزيارة نزهة، فتحت الباب للأَشواق الكامنة. وعادت الذكريات تهدر في مجاري الدماء؛ منذ أن تسرّب الخبر، وهو يدق الأبواب، ويهزّ الوعي، ويوقظ النفوس من خدَر، ويغرس في رتابة الأيام حلاوةَ الوعود.

طافت الضيافة، فوق الصواني: حلوى، وشراب الورد، ثم ملبّس عا قضامي، وفستق سوداني للأولاد...

وكانت الضيفة جالسة في صدر القاعة وقد بدت متميّزة عن سواها من النساء بالقيافة، والأناقة المنتمية إلى مجتمع يرتع في نعيم الرفاهية: الثوب البنفسجي الحرير، يتهدّل حولها، والشعر مصفّف بعناية، والعينان تحيطهما لمسات متقنة من الكحل والظلال، تنسجم مع لون الفستان، ومع الأحمر فوق الشفتين.

وزيّنت عنقها بالعقود، وأذنيها بالأقراط، وزنديها بالأساور وأصابعها بالخواتم... وكلّه من الثمين النادر، مِمَّا جعل النساء يتأملن بإِعجاب، ويُصَعِّدن آهات مكتومة، ثم ينقلن الصورة إلى جلسات السمر.

وحين يعود المغتربون إلى الجورة يحملون معهم «الشيكات»، من الأقارب في المهجر، والهدايا يوزعونها على أصحابها: ساعات، ماكنات حلاقة وشفرات، أقراط، بروشات وأدوات زينة... كل ما خفّ حمله، وندر وجوده في الجورة.

لكنّ هذه الضيفة ليست من أهل الجورة، ولم يتوقعوا أن تحمل إليهم الهدايا، ولم يُعرَف، برغم تحرّيات أم هاني، ما كانت هديتها لجبران وألماظ.

102

عائلة واحدة، في الجورة بقيت خارج دائرة الضوء، في تلك الأمسية، هي عائلة فارس نمر...

فارس وليّا. وراءهما ربع قرن من الحياة الزوجية الناعمة، وخلفة خمسة أولاد، «خمسة بعين ابليس» تقول أم هاني، وهي تتابع وصفهم «تربّوا على البركة، وخوف الله وحبّ العمل».

نالوا قسطًا من العلم في المدرسة الحكوميّة، ثم انتقلوا إلى العمل في الحقل. وراحوا يغرسون الزيتون، والأشجار المثمرة، من تفاح ودرَّاق وخوخ وكرز. وتضاعفت خيرات أرضهم، والعطاء الذي جاء ردًّا طيبًا، على ما بذلوه من تعب وجدّ. لكن، ومع مرور الأيام، لم تعد الأرض تكفيهم، فاختار ثلاثة منهم الهجرة، لاحقين برامز ويعقوب. «سبعة، يخزى العين... والأرض ما عادت تكفي»، تروي أم هاني «ولولا مساعدة المغتربين كانت الحياة صعبة».

على مدار الفصول، تصل «الشيكات» من أميركا، وتوفّر للزوجين حياة كريمة.

لم يتمكّن فارس من حفظ مبادئ القراءة، وكم حاولت ليّا أن تعلّمه كيف يوقع اسمه من أجل المعاملات، وفشلت، لا لنقص في ذكاء زوجها، بل بسبب كبريائه «فارس ما بيحطّها واطية».

وكان يقول لها متهرّبًا من تلك المهمّة: «انت مكفّية وموفّية يامّ سمير. اسم الله عليك بتكتبي وبتقري عنّي وعنّك».

إنّما ذلك لم يقلّل من محبة الناس وتقديرهم واحترامهم له، بقي فارس، في سلوكه وأخلاقه، «الآدمي»، اللطيف، والمحب للناس وللحياة. وعلى خطّه وخطّ ليّا نشأ الأولاد. وباتت تربيتهم وسلوكهم مضرب مثل لسائر الأولاد في مثل سنّهم: «روحوا تعلّموا من أولاد النمر»، تردّد الأمهات في أوقات السخط على خلفتهن.

لكنّ شعورًا آخر بالنقص، ظلّ يتململ في أعماق الرجل، من دون أن يلاحظه الناس: كونه وافدًا على الجورة. غريب.

لم يولد هنا، وليس لعائلته بيت أو مقبرة. ضيعته «برشْتا» أصغر من الجورة، وأدنى مستوى. منها يأتي العمال في موسم قطاف العنب، ومشق الزيتون. حتى الأشجار المغروسة في بساتين برشتا، تشهد على حداثة عهدها؛ إذ لا وجود فيها لشجر الزيتون العتيق، المعمّر، مثلما هو في الجورة، ومنذ مئات السنين...

ثمة فارق آخر يقوم بين الجورة وبرشتا، هو الفارق الطائفي بين سكانهما. «ماروني قحّ»، يعتبره سكان الجورة، لكنه لا يتخلف عن حضور القداس في كنيسة مار جريس الأرثوذكسية: «السلام على إسمو بو رمح»، يردّد وترمش عيناه خشوعًا. وفي ساعات الغضب، يتحوّل الفارق الطائفي إلى عصا تهديد في وجهه، ووجوه أولاده.

حتى سيدة، جدّتهم، كانت ترفع تلك العصا في وجه حُفَدائها في بعض الحالات: «نعم، عظمو أزرق... ماروني، وعظمو أزرق... وانتو طالعين لبيّكن»...

وكان الصغار يتأمّلون جلودهم، محاولين اختراقها بنظراتهم، ليبلغوا تلك العظام، ويكشفوا سرّ اختلافها، عن عظام سواهم من أولاد الجورة.

103

من هناك، من جبل لبنان، جاء أجداده، في زمن مضى. هجروا قريتهم في الجبل ونزحوا مع أفواج النازحين.

وعاش على حكايات ذلك المكان البعيد: جبل لبنان... ولم يشعر مرّة، برغم كل الشواهد الرسمية، أنّ الجورة هي كذلك في دولة لبنان.

بالنسبة إليه، ظلّ لبنان ذلك الجبل البعيد المحبوب.

تناقضات ونزعات غريبة كانت، أحيانًا، تطفو على صفحة الوعي ولا يفهمها فارس، أو أنّه يتجاهلها في لا وعيه. ولا يعرف لماذا تمتدّ يده لتصفع وجه طفل من أبنائه، أو تهوي كفّه القوية على رقبة ولد، فتكاد تعطبها. قلبه المجبول بالحنان والمحبة، كان يبلغ حدًّا قصيًّا من القسوة، بحق أولئك الأولاد، أبنائه، وبعدما يضربهم، كان يلجأ إلى الزاوية، ويبكي. وحده يبكي، نَدمًا، وخجلًا.

وكانت ليّا تشاهد ما يحدث وتبتلع ألمها فلا تجرؤ على رفع الصوت، أو الاحتجاج. ظلّت تخفض جناحيها وتحسب، أنها السبب وراء هذا السلوك الغريب.

تغيّر.

فارس الذي دخل منزلهم «غنمة قرعا» مثلما تقول أم هاني، هو غير الزوج الثائر، العصبي المزاج.

لكنّ حاله تلك لا تدوم، إذ ما يكاد بركان غضبه يخمد، بعد الفوران، حتى يرتدّ إلى حلاوته ولطفه وحنانه، وتنسى الإساءة.

لطالما تساءلت عن السبب وراء هذا التحوّل المفاجئ، حتى توصّلت إلى الاعتقاد أنّه يُرَدُّ فعلًا إلى تعامل الناس معه، وإلى رذاذ الكلام الذي يبلغه في أوقات الغضب.

يعيّره الناس بفقره وأصله وغربته، ثم بزواجه بها!

إذا اختلف ولد من أولاده مع رفاقه في الساحة، تنهال الشتائم «التشاقيع» مثل قصف عنيف: «ابن الفاعلة التاركة... روح شوف مين عمل وسوّى بأمك يا ابن الش...هامة»... مثل رؤوس الحراب المسمومة، مثل سلك مكهرب تخترق الكلمات كيانه، فتصيب فيه مقتلًا. تؤلمه الكلمات، أكثر من طعنة حربة. القتل يقضي على الجسد، وتلك تهدم الجسد والروح معًا. وحش مفترس لا يشبع من لعق دماء الضحيّة...

هكذا هي الكلمات.

وتخرّ الضحايا بلا حساب...

حاولت ليّا، بلطفها، وطيب عنصرها وسلوكها أن تغرس الثقة في نفس زوجها فتوارت إلى حد المحو التام. ظلَّت تقف وراءه، تتنكّر لنفسها، من أجل أن يبرز هو. وكانت رياح الغضب، أقوى من جناحيها الرقيقين، فلم تقدر على مساعدته كي يبدّل تصرّفه. وقد لاحظت أنّ صفة العناد والكبرياء كانت تنمو فيه مع مرور الزمن.

ومثلما كان أولاده يهربون منه، حين يطلع طبعه، فقد كانت هي أيضًا ترتعد أمام غضبه ولا تؤاتيها الجرأة، كي تتصدّى له أو تحاوره، وربما تتوصل إلى إسكاته.

وتابعت خفض الجناحين وإحناء القامة كي تبقى قامته شامخة. لكنّ ذلك الخضوع، بل الاستسلام، لم يجرّدها من رهافة الحسّ والذكاء الفطريّ، والقدرة على بلوغ الأعماق، وفهم الأحوال.

كانت تحسّ بأنّ شعوره بالنقص وراء تلك الثورات وتأجّجها، فتداريه بدلًا من أن تلومه.

وفي أحد الأيام، بلغت ثورته أعنف ذراها، فحمل ليّا والأولاد، وغادر الجورة عائدًا إلى برشْتا، ضيعته، حيث استأجر بيتًا متواضعًا، وراح يمارس المهارات التي يتقنها، عمل في كل الكارات: حلاقة، سكافة، بيطرة، جزارة، تقليم وتطعيم الشجر... لكنّ دخله ظلّ مقَصِّرًا عن دفع النفقات للعائلة الكبيرة، وعرف أولاده قسوة الفقر والحرمان. وكانت ليّا تجتهد، لتوفّر للعائلة حياة كريمة، تبقيها مرفوعة الرأس، فلا تنكسر للذلّ. راحت تخيط الثياب لأولادها، وتحوك الكنزات والسراويل من الصوف الجزّ. تعلّمت باكرًا في حياتها كيف تغزل الصوف، وتُحَوّله إلى خيوط صالحة للحياكة. لكنّ الأولاد صاروا يتعرّضون لسخرية الرفاق في محيطهم الجديد، لاختلاف لهجتهم ولباسهم، وحتى طريقة قص شعرهم! (تعوّد فارس أن يقوم هو بقصّ شعر البنات والصبيان، كان يضع طاسة نحاسية فوق رأس الولد، ويجزّ الشعر حول دائرتها، وكان يستخدم طاسة عميقة للبنات، وأخرى طائشة للصبيان).

حتى الأحذية، كان فارس يصنعها بيديه، في الليالي الهادئة، وبعدما يأوي من عمل يوم طويل؛ ويضيف بذلك سببًا آخر لتعريض الصغار للنقد الجارح من رفاقهم. سَالَت دماء كثيرة من جراح أصابت جلود الأولاد، وحتى بعدما شفيت تلك الندوب بقيت آثارها في أعماق نفوسهم...

دامت تلك الحالة ثلاث سنوات قبل أن تصل رسالة من أخوة ليّا في أميركا رامز ويعقوب وأسماء، وفيها يرجون من فارس أن يعود عن قراره، ويرجع إلى الجورة: «يا صهرنا العزيز، ليس لنا عندك سوى هذا الرجاء، أن تحمل العائلة وتعود إلى بيتك، ونحن قدّامك حتى آخر العمر»...

بل إنّ تلك الرسالة حملت عبارة عوّضت فارس من كل شعور سابق بالنقص، قالوا في الرسالة: «يا أخانا فارس، من الآن فصاعدًا أنت المالك الوحيد للرّزقات، وتجد طيّه صك التطويب»...

104

كانت السهرة في بيت جبران السلموني مناسبة لقاء الجورة، من بابها لمحرابها، مع الضيفة القادمة من أميركا.

تلك المناسبة لن ينساها الناس، ولن تنساها نزهة.

حضروا سلَّمُوا عليها، الواحد تلو الآخر. الرجال والنساء، وحتى الأولاد أحاطوا بسور الحديقة، مغتنمين هذه الفرصة الفريدة، متجرّئين على ألماظ ووجهها الناشف.

بالحَدْس والسليقة، كانوا يشعرون بأنها مشغولة عنهم بما هو أهم: أن ترضي الضَّيفة، وتحافظ على سمعة عائلة السلموني. وكان بعض من أولئك الأولاد العفاريت الصغار قد تسلل إلى الداخل، بدافع التحدّي وحبّ الاستطلاع.

وسار راجي الزغيّر في الطليعة، فالمهمَّة التي قام بها في اليوم الأول من الزيارة، أكسبته جرأة وثقة، بل كان يحسّ، ضمنًا، بأن تلك السيدة الأميركانية الأنيقة سوف تعرفه وتميّزه من بين سائر الأولاد، وربما اختارته ليجلس في الداخل، أسوة بالكبار. وخاب ظنَّه، فقد بدا الداخل مكتظًّا بالناس، ضيِّقا حتى بنسمات الهواء، والأجسام الصغيرة الليّنة، مثل جسم راجي، التي يمكنها أن تتلوَّى بين اللحم والأظفر، وجدت أن الانسياب مهمة مستحيلة. لذا اكتفت بالانتشار فوق السلالم أو أغصان الشجر، تتسلّى بحفنات زبيب و«ملبّس عا قضامي»، وضعتها ألماظ في «لَكَنٍ» صغير، وكلَّفت زوجة المختار بتوزيعها «حلوَيْنه». وعند البوابة الرئيسية وهي المعبر الوحيد إلى داخل الحديقة، وقف اسطفان، في جماعة من الفتيان، يراقبون ما يجري، ويسنّون شفار ألسنتهم بتعليقات لاذعة، يتقنها أولاد الجورة، ويتمرّسون بها في تسلّقهم دروب الكبار.

والكبار زحام هائل داخل الدار... تتورّم بهم جنبات البيت، على رحبها، وتكاد تلفظهم النوافذ والشرفات. الكبار، نساءً ورجالًا، حضروا للسلام على الضيفة الغريبة عن الجورة. طمأنتهم عن الغيّاب في المهجر. كانوا يقتربون منها، الواحد تلو الآخر ويتلفظون الأسماء... وتقطّب حاجبيها لحظات، تتذكر. تستعيد الوجوه والأسماء. وحين يعصاها ذلك، ينجدها جبران، مقرِّبًا الشبه باستخدام الاسم الجديد في المهجر وتهز رأسها متابعة: «ايه، يا دير... أوكي، يا هني... كلهن بخير»...

بعد السؤال والاطمئنان إلى أحوال الغياب، أُفسح في المجال لصواني الضيافة... الدعوة للسهرة، لا للعشاء، لذا اكتفى أصحاب الدار بالشراب: الليموناضة، وشراب الورد. تتبعهما صينية حلويات: ملبّس، نوغا، وشوكولاطة

و... «قدومك غالي علينا، يا نزهة»، صوت ألماظ، ينقّط اللحظات، يذكّر، بأنّه مهما ازدحم المكان، فالجميع هناك وقتيًّا. وسريعًا تلفظهم الدار، دارها. وتبقى، هي، حافظة الدار، السيدة، تجترّ الذكريات.

لم توزّع نزهة الهدايا، مثلما تَعَوَّد المغتربون أن يفعلوا، ولم ينتظر الناس ذلك؛ فهي، ربما عادت على عجل، ثم إنّها ليست بنت الجورة أصلًا، وقد لا تعرف أهلها المنتشرين في المدن البعيدة. لكنها أبدت استعدادها لتنقل، في طريق عودتها، رسائل إلى الأحباء في الغربة. هنا تدخّل جبران مؤكّدًا: «رسائل فقط، حتى لا يأخذ عا خاطر حدا»، وبذلك قطع الطريق على كل من تسوّله نفسه بتحضير الهدايا التقليدية: «كشك وصعتر، وصنوبر وسمّاق». وتابع جبران موضحًا: «يا إخواننا، الدنيا تغيّرت ما عادت مثل أيام زمان، الله يبارك بالمواصلات، والمأكولات اللبنانية واصلة لأصغر مزرعة».

صوت جبران صريح، حازم. تبلّغ الحضور الرسالة، والتزموا بالمطلوب، وإن لم يقنعهم كلام الأستاذ. في نظرهم، ليس في الكون، ألذ وأشهى، مما تعدّه أيدي الأمهات والجدّات في جورة السنديان.

اقتصرت السهرة على السلام والكلام، واختُصر الرقص والموسيقى، بداعي الحداد. فمرور سنة على وفاة عبدالله ليس مدّة كافية لعودة الزغاريد إلى الحناجر...

وكان أبونا الياس بين المسلّمين، فاغتنم الفرصة ليدعو نزهة كي تحضر القداس صباح اليوم التالي، وكان نهار أحد؛ اليوم الوحيد المختلف عن الأيام العادية، حين يفتح أبواب الكنيسة، ويقدّس لهم جميعًا ويذكر من حضر منهم ومن غاب في المهجر وخصوصًا من غاب في الرحلة الأبديّة. وقبلت نزهة دعوته شاكرة. وحين خلا لها الجوّ، استشارت جبران في ما يتوجب عليها، وما هي التقاليد المرعية في الجورة، فأطلعها على العادات وما يتوجب على المغترب أن يقوم به: «كل واحد، حسب قدرتو»... ونزهة قادرة؛ وهذه مناسبة مهمّة، لا لتقيم جسورًا مع أهالي الجورة، وحسب، بل لترفع أسهمها في نظر جبران، وتُرضي نفس الزوج الراحل: «الله يرحمك يا عبدالله»...

ذلك الصباح، ازدحمت الكنيسة بالمصلّين، وهذا قلَّما يحدث في أيام الصيف حين ينشغل الناس، بالحقول والكروم، عن عبادة ربّهم. فالشغل، هو أيضًا عبادة. فلاحة الأرض وغرسها، الحصاد والقطاف، عبادة يمارسونها على مدار السنة. للأرض تنحني الرؤوس، وتخشع لها كما للباري الأَعظم. ولكي يخفّفوا من تأنيب الضمير لذلك الغياب، حفظوا أمثال السلف: «اشتغل الحدّ والعيد، ولا تحتاج جارك السعيد». وفي بعض الأوقات يردّدون: «وين ما طلبت ربّك تجده». وجبران، يمضي أبعد من ذلك محاولًا أن يشرح ويفسّر، ويستشهد بالآيات: «السماء كرسي الرب، والأرض موطئ لقدميه»، ويصغي إليه الناس، في خشوع، وخصوصًا غير المتعلمين منهم، الذين لا يفكُّون الحرف. يصغون إليه جيدًا، إذ يتسرّب كلامه، كقطرات الماء تروي جفاف الصحراء، وترتاح النفوس. وإذا خامر أحدهم الشك، كان يلجأ إلى أبونا الياس، زيادة في الاستفهام والتحقق. ولا يعترض أبونا على الآيات. جبران رفيقه، من أيام المدرسة، من أيام العمل في الحقول، وحتى الساعة. والثوب، ثوب الكهنوت، لا يفرّق بينهما، ويقول لسائليه: «الأصل النوايا»... لم يحاول ذلك الكاهن، مرَّة واحدة، أن يقف في الناس واعظًا. أهل الجورة يعرفونه، ويعرفون مصدر معلوماته. مثله مثلهم. ومنذ اليوم الأول لسيامته كاهنًا، طمأنهم إلى بقائه في موازاتهم، ولا يرتفع شبرًا أعلى من قاماتهم، إلَّا حين يقف في باب الهيكل، ليؤدي واجب الصلاة، ويعلن عن مواعيد المناسبات والأعياد، ومتى يبدأ الصوم ومتى ينتهي. أما مواعيد الصلاة فمعروفة، ولا حاجة إلى التذكير بها بالكلام... ويترك أمرها لتلك الدقّات المألوفة والمنتظرة من الجرس الشامخ وسط قبّته البيضاء فوق كنيسة مار جريس.

في الجورة لا يدقُّ جرس الكنيسة لإِعلان بداية القداس وحسب، بل تعبيرًا عن كل حدث: لإعلان المناسبات السعيدة والأَعياد، والأنباء الحزينة، بالأخص، الوفيات في الوطن أو المهجر... تُدَقّ عند ذلك، تلك النغمات الحزينة، وتترجّع أصداؤها بين الكروم، والحقول، وتبلغ أعماق الأودية وذرى التلال والجبال، وتحفر طريقها بين ثنايا القلوب والأحشاء... فتجمع الناس من مطارحهم المتناثرة في الحقول أو الكروم.

آه من دقّات الحزن بين أزقة الجورة ومساربها!...

وفي ذلك الصباح، كان الجرس يرسل دقاته القويَّة، المرنّمة، ويضيف فرحة جديدة إلى بقايا أفراح غرستها مناسبة الأمس في الصدور. وحرص الناس على حضور القداس، رجالًا ونساءً، ولم يتخلّف منهم سوى المرضى والعاجزين.

بعضهم سبق الضيفة، واحتلّ مكانه المألوف، وانتظر آخرون إطلالتها ووقف في مقدّمهم المختار ووكيل الوقف، حريصَيْن على البقاء قرب الباب، إلى أن وصلت نزهة يحيط بها جبران وألماظ، وحولهم، جمهرة من المصلين، انضمّوا تدريجيًا، خلال مسيرها، من بيت السلموني الواقع عند الطرف الآخر، من الجورة، حتى باب الكنيسة... وحين دخلت، سار الجميع في إثرها.

106

تلك الأبّهة، وذلك التجلّي، حضورها.

توجّهت إليها الأنظار، وطوّقتها. مئات الأعين، تحوّلت إلى ناحيتها، مغفلة وجوهًا أخرى تطل من الأيقونات، ومن واجهة الهيكل: الأيقونات الملوَّنة، وجوه القديسين، الهالات الذهبية المحيطة برؤوسهم، تلاميذ المسيح الإثنا عشر، يحيطون به، وقد رفع يده يباركهم، وتنطبع بركته على كل وجه يرتفع إليه ضارعًا... وأيقونة السيدة العذراء، مريم في ثوبها الأبيض، بثناياه والملاءة الزرقاء الشفافة، تحيط بها هالة قدسيّة... لكنّ الذي يرتفع ويعلو فوق الأيقونات الصغيرة، والتي تكاد تكون متساوية في الأحجام، هو تلك اللوحة القديمة والكبيرة، لراعي الكنيسة مار جريس، «بو رمح، عليه السلام»، بالعباءة والخوذة والرمح... الحصان لا يشيخ، والتنين المنهار أدنى من مستوى قدميه...

ونزهة دخلت بخطى وئيدة، محسوبة، تمامًا مثلما حسبت لمظهرها: «التايور» الكحلي، وقبّته العريضة البيضاء، والقبعة الكحلية، يحيط بها شريط أبيض، وتتدلى منه شبكة شفافة، ناعمة، تنسدل فوق العينين، وتشكّل قناعًا يتلاءم مع موضة أيامها... أمّا الحذاء، وحقيبة اليد، فيتداخل فيهما اللون الكحلي بالأبيض، بتصميم جذّاب، ومختلف، عن كل ما أبصرته نساء الجورة؛ حتى اللواتي يتميّزن بالأناقة والعياقة.

لكن جبران لم يلفت نظر أحد، بلباسه التقليدي للمناسبات: بدلة رسمية رمادية وقميص أبيض وربطة عنق خمرية، منقّطة بالأسود. وقد اعتمر البرنيطة الإفرنجية، الباقية منذ ربع قرن. وتكون بذلك «مجايلة» للقبعة التي تجرأت ألماظ في تلك الصبيحة، وأخرجتها من مخبأها، متشجعة بمظهر ضيفتها، مقتدية بها... قلّما ارتدت ألماظ تلك القبعة؛ إنّما ظلّت محافظة عليها، حتى جاءت الساعة... وفي الأيام العادية كانت تستبدل بها ملاءة من «الدانتيل» الأسود الشفاف...

وحده أبونا الياس، لم يحفل بما يجري حوله، وظلّ متابعًا القداس، طالبًا، متضرّعًا، يحمل المبخرة ويتوجّه بها، من الباب الملوكي في الهيكل، نحو الكل بلا تمييز. لكنّه إبّان الصلاة على أرواح الموتى، ميّز الأسماء التي قُدِّمت الرحمة عن نفوسها في قداس ذلك الأحد. ومن بينها نفس عبدالله: «اذكر يا رب عبيدك السابق رقادهم: منصور، شيحا، لطيفة وعبدالله»...

لدى ذكر عبدالله، تحوّلت الأنظار تلقائيًّا، باتجاه نزهة، وكانت يدها ترتفع بحذر، بالمنديل الأبيض المهفهف، تمسح دمعة... أو هكذا يفترض.

ثم عادت الأنظار، تتابع ما يجري في الواجهة، بعيدًا عن جناح النساء. وقد جلست نزهة، وألماظ، في الدور الأول منه. وعادت الأبصار، تختلس طريقها إلى الضيفة، حين طاف وكيل الوقف، بالصينيّة. كان الجميع يتوقعون المفاجأة الكبرى، والمبلغ «الحرزان» تضعه في الصينيّة. لكنّ حركة يدها، لم تَشْفِ غلّهم أو تشبع فضولهم. امتدّت إلى الصينيّة، وألقت فيها مظروفًا مقفلًا، وتلك عادة يتذكّرها الناس أحيانًا، إنّما لا يمارسونها، ربّما لعدم توفّر الظروف. ثم لا أسرار في الجورة... فلماذا يكون هذا البذل سرًّا؟ كل واحد، حسب قدرته.

أبونا الياس، لا يحاسب.

وكيل الوقف يرعى الأمور الدنيويّة وصندوق المحاسبة. تعوَّد أبونا أن «يترك مال قيصر لقيصر» وينصرف، على البركة، إلى ما هو لله.

يعيش أبونا في منزل صغير، «الأنطش» الملاصق للكنيسة. وهو يتألف من غرفة واحدة للنوم والاستقبال، وحمام ومطبخ، فيه طاولة وعليها بابور كاز،

ونمليّة، حُشدت فيها أطباق للزيتون والصعتر، والدبس. أما الخزانة الأرضيّة فتحوي القدور والصحون ومراطبين المؤونة.

والغرفة، تضم السرير الحديد، مع ثلاثة كراسي، وطاولة، وخزانة مقفلة معظم الأحيان؛ مثلها مثل جسد صاحبها، الملتف بالعباءة السوداء، وفي كل الأوقات والحالات: العباءة، و«القلّوسة»، واللون الأسود، ولحيته البيضاء، تشع فضّية نقية، مشابهة، في النقاء، رُوحَ صاحبها... وكان أبونا الوحيد، الذي أجمع عليه الناس، من الحزبين: «ما إلو مبغض»، تقول أم هاني، ويخرس لسانها الذي لا يطيعها إلّا في سرد المثالب...

وتحاول أنجول تجاوزها، وتسرد حسنات هذا الكاهن القديس، وتهرع لاستقباله وأخذ البركة حين تبصره قادمًا من بعيد، تنحني على يده، تقبلها من دون أن تلمسها ثم تتبرّك بطرف أردانه: «دعستك على أرضنا بركة، يا أبونا»... وتدعوه الأمهات، حين يمرض طفل أو طفلة، ليصلّي فوق رؤوسهم وبالماء المقدّس المبارك، يطرد الأرواح الشريرة.

وأبونا، لا يتخلف، ويلبّي دعوات الجميع، الفقراء قبل الأغنياء. ومشهد قدومه واحد: يسير بخطوات لطيفة، هادئة تناسب عمره وقد جاوز السبعين. يحمل الصليب الفضيّ بيد، والبطرشين باليد الأُخرى. ويتضوَّع البخور من أردانه، ويبقى لحظات في خط عبوره، يتنشّقه المارّة، ويعمّقون بذلك صورة الشيخ الجليل وحضوره المقدس في وجودهم؛ ويكون جو البيت، بيت المريض، متجهّمًا، قاتمًا، والسحب معقودة فوق الجباه، والخوف جاثمًا في النظرات وفوق الرموش. وحال وصول الكاهن، تتبدّل المشاهد ويحلّ السلام بحضوره ويتلاشى الخوف وينبت الإيمان، مكان القلق المرعب، فيتحرّك المريض، طالبًا جرعة ماء... أو يفتح عينيه الغاربتين، وينِدَه أمه...

«حضورك بركة يا أبونا».

ظلّت البركة، مخيّمة فوق الجورة، وسكانها، سنوات.

ونزهة استفادت من تلك البركة، ولم تَكتَفِ بحضور القداس، بل طلبت منه أن يذكر الزوج الراحل، ويصلِّي عن نفسه، ويحرّك بذلك العواطف، ويستدّر دمعة تلقّفتها يدها بالمنديل الأبيض المهفهف.

الأنظار مسلّطة عليها. هي الضيفة، ولها مقام الصدارة. واليها تتجه العيون، وحولها يدور الكلام. لذلك، لم يلاحظ أحد تلك النظرات المختلفة، المركّزة عليها. منذ أن خطت داخل العتبة، ورفعت يدها ترسم إشارة الصليب، وتتمتم: «باسم الآب والإبن والروح القدس»... بل ومن قبل... ومن قبل... منذ أطلّت سيارتها الفخمة عند مطلّ الجورة.

108

من عادته أن يتمشى فوق الطريق «يُكَسْدِر» مع واحد أو أكثر من الرفاق. ديب بو عبسي، ابن العائلة... العائلة التي كانت...

اليوم هو «أشبهي»، وعاطل عن العمل. لديه كل الوقت للتأمل، والمراقبة. هوايته، منذ سنوات، ملاحظة الصبايا، وإيقاعهن في هواه.

في الحقيقة، لم يكن صعبًا على صبية صاعدة «بنت أربتعش»... لم يكن صعبًا عليها أن تقع «على وجهها طبّ» في حب ديب... زينتهم... زينة الشباب... يعرف كيف يرتدي الثياب الأنيقة... وهذا كل ما حفظه من ماضيه. قميصه منشاة، نظيفة دائمًا ومكوية. في الصيف يطوى الكمّين، قليلًا، فيبدو ساعداه الأَسمران المفتولان. أما «بنطلونه» الإفرنجي، فمستقيم لا تلاحظ فيه ثنيّة؛ وكأنما الرجل لا يجلس، بل يختار أبدا التمشّي. وأهمّ من الثياب، الوسامة: سمرته المشربة باللون الوردي، لون العافية، فمه المستعد أبدًا للابتسام، وفي بعض الحالات تُحاط البسمة بلمحات سخرية... أما عيناه، فهما حلم كل صبية، تتموّج فيهما ألوان الكروم وتلال الصنوبر، وحقول الزيتون، وترقص في أعماقهما الوعود... وقد علا رأسه الأنيق شعر كستنائي هائج، متناثر فوق جبينه العريض. ولا بأس إذا استطال الأنف الدقيق أكثر من معدّل المقاييس الجمالية: «ما في حدا كامل... والأنف الطويل من علامات الرجولة»، تعلن أم هاني، مختصرة الحوار، حين يدور ناقدًا.

أما شغل ديب فهو «الكَسْدَرة». طبعًا، هو ملَّاك، مثله مثل سواه من أبناء الجورة. عنده الحقول وبساتين الزيتون. وهو الابن الوحيد لعائلة بو عبسي، وهذا ما يعطيه بعض الامتيازات، فلا يكدح مثل غيره من الشباب بل يستأجر فَعَلَة يقومون عنه بالعمل الشاق.

يعيش ديب مع والد جاوز العقد السابع من عمره، ويُشكل عبئًا ثقيلًا عليه، عندما تشحّ المواسم، وتبخل الأرض بالعطاء. وأمّه رحلت عن دنياها باكرًا في أثر نوبة قلبية. ومن الطبيعي لفتى مثله أن يقيم في الترقب وانتظار فرصة تُتيح له التحليق وتجاوز الواقع الرتيب. أما علاقاته الغزلية مع الصبايا، فظلّت في حدود النظرات، واللمحات، والبسمات، إذ كان طموحه يدفعه إلى مدّ بصره أبعد من آفاق الجورة، وحدودها الضيقة.

وحين وصلت السيارة لاحظها. وعندما توقفت عند مدخل الجورة، وأطلّت منها السيدة تسأل عن بيت جبران السلموني، كان هو فوق شرفة داره المطلّة على الساحة. ولم يكلّف نفسه عناء السؤال، ليعرف سرّ السيارة، ومن فيها. فالخبر سرعان ما يتفشّى مثل بقعة الزيت. هبّت عليه نسمة انتعاش، وهو يتلقى الأخبار ويسمع الناس تروي عن مكانتها وثرائها، وفكّر في أنّ العقدة الوحيدة الفاصلة بينهما، هي عقدة الزمن... كان في الخامسة والثلاثين من العمر، وهي تجاوز الخمسين. فهل يجوز؟

في تاريخ الجورة، لم تُسَجَّل زيجة تكون فيها المرأة أكبر من الرجل. بينما التقليد العام كان يقضي بزواج الفتاة برجل يكبرها. أما إذا كان مغتربًا، وقادمًا، بالطبل والزَّمر، وموكب الثراء، فتسقط القيود المألوفة ولا تعود تنطبق عليه التقاليد والنظريات: «المال ستّار العيوب»، تقول أم هاني. والمال ينجح حتى في تجميل الصورة ومحو تجاعيد العمر.

وهكذا ارتفعت حرارة الشوق والرجاء في صدر الفتى، وهو يسمع الحكايات، تُروى عنها وكل حكاية ترسم له حلمًا جديدًا.

إنّما لديب عزّة نفس، جعلته يُبقي الحلم سرًّا، فلا يبوح بما يخالجه، حتى إلى أقرب الأصدقاء. وهكذا، مضى في الغزْل والنسيج، مكتفيًا بالنظر إليها من بعيد. وحين التقت الجورة في سهرة الاستقبال، لم يشارك الناس الحضور والترحيب، ظلّ يتمشّى مع رفاقه في الطريق الرئيس الذي يشطر الجورة إلى شطرين متوازيين. وظلّ يرصد الأحداث من بعيد، وينتظر.

غياب ملحوظ، سجّله المختار بالحبر الأحمر، في مفكرته الدقيقة، الجامعة والشاملة وأبقاه، إلى أن تحين الفرصة.

وديب الآن، في الكنيسة، يحتلّ المقعد التقليدي المخصص لعائلته والمتحدّر إليه من جدّ جدّه، وإلى جانبه جلس والده، يُصلّي بخشوع وإيمان.

وظلّ هو يتابع الخط العام، يقوده الكاهن، فيطلّ، من حين إلى آخر، من باب الهيكل الملوكي، ليعيد الساهين من شرودهم. ويردّهم إلى الصراط المستقيم. وكان الفتى يطيع ذلك النداء لكنه لم يتمكَّن من مقاومة نداء آخر، جديد يدقّ بابه: كانت عيناه، ترحلان إليها تحصيان الحركات وتسجلان عليها كل نَفَس، وشرود بال...

109

خرجت نزهة من باب الكنيسة محاطة بالأنظار المعجبة، المتسائلة، وبدائرة من الناس، وكان أقربهم إليها جبران، ووجوه الضيعة من الرجال. وسارت في صف آخر جمهرة من النساء، من أعمار متفاوتة... وكان موضوع واحد، يحتاز على انتباه كل فرد ويستقطب وعيه: حضور تلك الضيفة المميّزة. ولم يكن صعبًا أن يلاحظ الناس اهتمامًا خاصًّا من نزهة لجبران، فهي تخاطبه باللطف، وربما بالحنان... وتنظر إليه تلك النظرات الطويلة، المستفهمة، وتبتسم عن صفين من الأسنان اللؤلؤية... ويشعّ بريق خاص في عينيها السوداوين المتوثبتين، لا يلبث أن يتفشّى فوق أسارير وجهها، يُفشي أسرارًا دفينة...

تلك اللمحات، لم تَفُت أم هاني، لكنها لزمت الصمت، والانتظار. فهي برغم حبها للمعرفة، وسعيها لكسب السبق في اكتشاف الأخبار، لا تنقصها الدراية والحكمة في مداراة الأمور؛ والأمور مرهونة بأوقاتها... لكنّ نظرها النقّاد سرعان ما كان ينتقل إلى المرأة الثانية السائرة بمحاذاة الضيفة، وقد ازدادت قامتها انحناء، لتغلّب الحدبة على ضعف الكتفين، ومعها انحنت القبعة السوداء المخملية، فبدت من تحتها عيناها كنقطتين تائهتين. ابتلعت أم هاني ضحكتها ولفلفت سخريتها، مكتفية بعبارة لم تجاوز حدود الشفتين: «كان ناقصها هالطنجرة حتى تصير مثل الكراكوز»...

لكنّ كلّ الكلام والاهتمام، يظل عاجزًا عن شدّ الانتباه بعيدًا عن الحضور الأهم: حضور نزهة.

واكبتها الجماعة على طول الطريق، وكان الموكب يخفّ تدريجيًّا حين يعرج كل واحد على بيته، حاملًا حفنة فرح وانشراح ملأت الجو وغمرت النفوس.

ولم تكن نزهة واعية أنّ خطواتها تسجِّل، مع كل نقلة، فصلًا من حكاية سوف تحتفظ بها سجّلات الجورة وترابها؛ بل وتُغرس للأجيال الصاعدة، تمامًا كما يُغرس فيها شجر السنديان والصنوبر والزيتون.

أما جبران فبدا مرتاحًا في تلك الصبيحة، وقد زال عنه قلق الساعات الأُولى لوصول نزهة، واستطاع ان يُغرق همومه الخاصة في بحر الناس الذين ملأُوا داره الليلة الماضية، وظلّوا ساهرين حتى منتصف الليل، ثم عادوا يطوّقونه الآن ويوقظون في نفسه مشاعر بقيت غافية، طوال سنين...

والموكب الذي ابتدأ عريضًا، كثيفًا في بداية مسيرته، خفّ بشدة، ولم يَبقَ منه حتى النهاية سوى ثلاثة: الكاهن، المختار، ووكيل الوقف. ثلاثة وجوه اختارها جبران ودعاها في اليوم السابق لتشاركه والضيفة طعام الغداء...

110

اغتنم المختار تلك الفرصة الفريدة ليغازل فكرة تجول في رأسه منذ علم بوصول نزهة: «لماذا لا يعقد زواج جبران ونزهة؟»...

وفيما كان يواكب الجماعة، ظلّ بعض منه يحلّق في ذلك العالم البعيد، يبحث عن صيغة توصله إلى فتح حوار... وخرج عن تفكيره الصامت ليطرح السؤال على الكاهن، حالما جمعتهما خلوة: – شو قولك، يا أبونا، بمسعى خير بين جبران ونزهة؟ هو عازب، وهي أرملة، وغنية.

ردّ الكاهن بهدوئه المعهود:

– الله يديمك لمساعي الخير، يا مختار. ما في مانع تحاول.

وتشجّع المختار، فتابع بصوت ثابت قوي:

– بس عاوز مساندتك. انت كلمتك مسموعة، ورأيك محترم من الجميع.

فقال الكاهن، من دون أن يبدّل نبرة صوته:

– مش المهم رأيي، يا مختار... المهم أصحاب العلاقة.

لم يحمل هذا الجواب أيّ وعد، أو يغرس بريق أمل. لكن حماسة المختار دفعته إلى تجاوز الكلام، ليمضي في المحاولة. وكانت حماسته نابعة من حدس قويّ اعتمده، في مسيرته الطويلة، في تدبير شؤون الجورة وسكانها... نامية من ثقة تكوّنت، مع مرور الزمن وكأنّها أديم يلفّ كيانه البشري، فيقوّيه ليصمد

مهما اشتدّت الأحوال... وناهضة من أعماق فِكْرِه الصاحي أبدًا، للسهر على الجورة، وشؤون أهلها.

وحين استشار الكاهن، كان قد اتخذ القرار لكنه شاء أن يزيد تثبيت الفكرة وتوضيح الصورة لنفسه قبل الآخرين.

وها إنّ المختار والكاهن، مدعوان إلى الغداء. وكأَنّما هناك يدٌ خفيّة ترتّب الأُمور في الاتجاه الصحيح، والمرغوب.

– تفضلوا... أهلا وسهلا.

صوت ألماظ يرحب بالضيوف، وقد سبقت الموكب، واستبدلت بثياب الأحد فستانًا بسيطًا ترتديه في البيت لاستقبال الضيوف، تحزم فوقه المريول في أثناء انشغالها بالطبخ.

– أهلا وسهلا...

يردّد الترحيب من بعدها جبران، وهو يقود الضيوف إلى صدر الدار: الكاهن أولًا ثم نزهة فالمختار، وأخيرًا وكيل الوقف... وتبعهم، وهو يردِّد عبارات التأهيل. وارتاحت ألماظ، فانصرفت بكليّتها إلى المطبخ. صحيح أنّها أعدّت الطعام منذ الليلة البارحة، لكنّ ذلك لا يعفيها من الانهماك في ترتيب السفرة وسكب الطعام.

111

من عادة سيدات الجورة، أن يتبادلن المساعدة في المناسبات، لكنّ ألماظ تخلّت عن تلك العادة، من زمان. وحين احتاجت إلى يد تعينها في المطبخ، لم تجد سوى سلمى، وهي «حاضرة ناظرة»، وقد اعتمدت لعيشها، الخدمة في بيوت الأكابر، ولم تقصر نشاطها على تنظيف الكنيسة وساحتها، مرّة في الأسبوع... ومعها، كان نيازي «مِرسال الهنا»، وحيثما توجد سلمى، تكون ابنتها، رمزية، لا تفارقها، كظلّها: «جحش الرجود» في تعبير أم هاني. وهذا ما أتاح للطفلة أن تطّلع على أمور كثيرة وأسرار حميمة، لم تَتَوفّر معرفتها لسواها من أطفال الجورة.

وها هي الآن، في ثوبها الأحمر الجديد وقد عقصت شعرها الكستنائي، ضفيرة جميلة تتدلّى فوق ظهرها وتُبرز استدارة وجهها الأَسمر، المشرّب بحمرة العافية، وشعاع عينيها السوداوين، الشرهتين، وابتسامتها المتردّدة.

– بنت مين، اسم الله عليها؟، سألت نزهة، وابتسمت لها.

فردّت ألماظ:

– بنت سلمى الغزال. إيه... رمزية بنت شاطرة.

كانت رمزية تحمل صينية فضّية تبرق، وفوقها كؤُوس الشراب الشهية... وتمشي بحذر وقد تكمّشت يداها بطرفي الصينية بشيء من الخوف.

– يا معلمي، تفضّل...

قفز جبران من مقعده، حالما أبصرها في باب الصالون. فتناول الكؤوس وراح يقدّمها إلى الضيوف، كل كأس، مع صحنها والفوطة المطرّزة، المنشّاة. قدم الشراب إلى الكاهن أولًا، ثم إلى المختار، وأخيرًا إلى وكيل الوقف.

وكان الثلاثة في الصالون مع جبران بينما استأذنت نزهة لترتاح في غرفتها بعض الوقت، وبذلك، خلا الجو للمختار ليطرح فكرته.

كان يرشف الشراب بلذّة، ويهرس حبّات الثلج الطافية فوق سطحه، ثم يرسل نظرات هادئة إلى جبران وكأَنه يتحيّن الفرصة الملائمة لمفاتحته بالموضوع...

112

جلس جبران يصغي ويتحدث إلى ضيوفه، حديث الساعة، المستولي على أفكار الجميع: زيارة نزهة، المفاجئة. وكان يردّ بهدوء على أسئلتهم عن أحوال الشغل بعد رحيل عبدالله، فاغتنم الفرصة ليشيد بكفاءَة نزهة وقدرتها على إدارة العمل، قبل وفاة عبدالله وبعدها: – نزهة، قَدّ الحِمل وزيادة..

سمعه المختار يردّ على تساؤل الكاهن عمَّا إذا كانت المرأة قادرةً على النهوض بالعمل وحدها، ثم أردف:

– نزهة، أخت الرجال يا أبونا.

قالها جبران بإخلاص، وبنبرة حياديّة لا تعبّر عن الإعجاب بقدر ما تسرد حقيقة... شهادة. وهو خير شاهد على ذلك، إذ عرفها في الغربة وخبرها خلال سِني عمله مع عبدالله... وربما قالها ليُفهم، من كان مستعدًّا للفهم، أنّه بعيد جدًّا عن استغلال وضعها والتفكير في التقرب منها.

لكنّ المختار، فهم العبارة كما شاءَ هو فهمها، ووجد فيها الفرصة السانحة ليطرح الحصاة في البركة ويفاجئ بذلك جبران، بل يُباغته:

– شو قولك يا جبران، لو منخلّي نزهة بالجورة؟ كنت عم إحكي مع أبونا، وفكرنا، يمكن زيارتها مناسبة خير وبركة.

تنبّه جبران للكلام المبطّن، والذي تحمله نبرة الصوت المتكلم، أكثر مما تحمل الكلمات؛ فاستنفر طاقات الحذر، لكنه لزم الهدوء، ولم يرشح من عينيه أيّ ردّ فعل، تاركًا الحوار للكلمات: – شو قصدك يا مختار؟

فابتسم المختار ليطرّي الجو، ثم استأنف:

– بسلامة معرفتك... عوّدتنا، يا أستاذ، تأخذها عالطَاير...

كلام المختار مشحون بالألغاز، وأسلوبه هذا ليس غريبًا على جبران، وهو من أهل الجورة، «خابز أهلها وعاجنهم»، ويدرك كيف يمكن للمرء أن يتزحلق فوق ظهور الكلمات لذا ردّ بحزم: – والله، عم تحكيني بالألغاز، وأنا رجّال بسيط، ما بفهم غير بالمشبرح...

كان هذا بالضبط ما ينتظره المختار، وبينما حاول جبران التهرّب من جوهر الكلام وجد نفسه، من حيث لم يقصد، أو يُرد، في خطّ المواجهة، وسمع المختار يقول:

– بدّك الدغري؟ ما رَحْ نخلّي نزهة ترجع عا أميركا.

فارتسمت بسمة ساخرة فوق شفتي جبران:

– وأنا، شو خصّني؟ نزهة حرّة، تجي وتروح عا خاطرها.

تأمّله المختار بعينيه الصغيرتين الخبيثتين، وتابع:

– بدنا نخلّيه يخصّك... نزهة إجت، والله جابها. ما لازم نخلّي الفرصة تضيع منّا...

قال ذلك وصمت برهة، قبل أن يستأنف من جديد:

– العمر عم يولي... ما عدنا صغار يا جبران...

فاستجمع جبران، كل الجدّ، في ردّه:

– يلّي بفكرك بعيد كثير يا مختار... هيه... بأيام اللولو، ما هلّلولو...

تلقف المختار الكلمة الأخيرة، مثلما يفعل المتبارون في لعبة القوافي، وقال:

– واللولو اليوم في دارك. والزواج يمكن ما بيخطر في بال الشباب لما تكون الدنيا معهم... بس بعمرنا، بيسوى نفكر لقدّام... ومثلما بتعرف: «المَرا

المصاقبة خير من العاقبة».

قال المختار ذلك، والتفت هذه المرة إلى الكاهن، يُشركه في الحوار:

– شو بتقول يا أبونا، معي حق أو لا؟...

وكان الكاهن، حتى تلك اللحظة صامتًا. يصغي، ويسجّل، واثقًا بأن المختار قادر على القيام بالواجب. لكنه يأبى إِلَّا أن يقحمه بتوجيه السؤال مباشرة، ثم ينتظر ردّه الذي أطلقه بهدوئه المعهود: – كلامك على الراس والعين يا مختار. بس الرأي راجع لصاحب العلاقة... يعني راجع لجبران...

وهنا أدخل المختار نكهة جديدة على الحوار، فقال بين الجدّ والهزل:

– كل هالعمر تاركينو على رأيو... وشوف شو طلعت النتيجة... على كل حال، الوقت ما فات. وأنا، من جهتي، مستعدّ طبِّق نزهة.

تأمّله جبران طويلًا، ولم يَفُه بحرف. فهو يعرف تمامًا أنّ المختار، في أيام الشباب، طبَّق نزهة. وكان هو وَرَاء زواجها بعبدالله. الجورة، بأسرها، تشهد على ذلك. وها هو لا يزال حاضرًا يقدّم خدماته، بعد انقضاء ثلاثين سنة على مسعاه الأول. واختاره هو، جبران السلموني، ليكون الزوج الجديد. فهل تلك مصادفة؟... أم أنّ لنزهة يدًا في الموضوع؟... وهل كان المختار يعلم، سلفًا، أنها قادمة للزيارة؟ مهما كان الجواب ومهما كانت الأسباب، فإن جبران باقٍ على رأيه، ولن يتزحزح عن موقفه قَيْدَ شعرة... وهذا ما أكده للمختار، حين كرّر المحاولة لاقناعه...

113

في ذلك الزمان البعيد، كان الحبُّ يعمي قلبه ويسيطر على وعيه: «نظرة واحدة منك يا نزهة، كانت تكفيني، في ذلك الزمان المتواري خلف ثنايا الذاكرة، حين كنتِ تقفين فوق أهداب عيني، لكنك زُغْتِ... تجاهلت الصدق في حبّي، وزُغْتِ... فَضَّلْتِ العبث على الجدّ، والخداع على الأمانة، و«استغليتِ» حبي لك، لترفعي فوقه بنايات طموحك، وتمدّي قامتك أعلى، وأعلى... في ذلك الزمان يا نزهة، هل تذكرين؟ وكنتُ أكتب لك الشعر، وأخاطب فيه عينيك. أسهر الليالي، أداري آلام قلبي، بينما يشغلكِ عنّي الوهم والعبث... فضّلت طَوْطَحْ عليّ. جعلتني أتورّط معه، وأنحدر إلى المهاترة الرخيصة. ذلك

السقوط لم أغفره لنفسي، لحظة... وهو بسببك، ومن أجل أن يبقى الألق في عينيك. من أجل نظرة حب في سواد عينيك»...

114

في ذلك الزمان المدفون بين تلافيف الذاكرة، أي في خلال الأَيام القليلة السابقة لسفره، طلب منه عبدالله أن يُنهي الحسابات، حتى تتسلّم نزهة الشغل مكانه، وقال له بثقة:

– نزهة صارت مدَرَّبة، وقادرة على مسك الدفاتر... شو رأيك يا خال؟

فردّ عليه باقتضاب:

– أكيد... نزهة قادرة على كل شي!...

ولم يكن يقصد أن تُفلت منه كلمة، تُفشي سرّه، لكنّه القهر يتسرّب من أيّ فتحة. وشكر الله على أنّ عبدالله لم يتنبه إلى السخرية في كلماته... كانت عينا عبدالله مقفلتين حيال نزهة، لا تبصران سوى حضورها المشرق والطاغي. وهو قرّر ألا يفتح معركة مع عبدالله، مهما بلغ به القهر والغضب. يكفيه شعور الهوان الذي انتابه بعد المعركة مع أديب الرّماح، واحتقاره نفسه ونزهة... وعبدالله لم يسأله عن سبب العراك، فقدَّر جبران أنّ نزهة قامت بواجب الشرح على هواها، وهي «القادرة على كلّ شيء»... أيِّ شيء.

انقضى الأسبوع. وكان أسبوع عمل جدّي وانفعالات مضنية. وكان من عادته، أن يترك الباب مفتوحًا لدى اجتماعه بنزهة، أو بسواها من الموظفين، وخصوصًا السيدات. لكنها حين دخلت في ذلك الصباح، كانت ترتدي جلد لبوة. ردّت الباب خلفها، وأحكمت إغلاقه ثم تقدّمت من مكتبه بجرأة وثقة، وسألته بصوت يقطر نعومة وإغراء: – بعدك زعلان يا غابي؟

صوتها يطرد الغيوم من ذهنه ويُزيل الدخان العابق في خياشيمه وينقله إلى العراء، حيث خضرة الغابات، ومدى السهول، وصفاء الجو، والصحو والنور.

وتخونه مشاعره وعواطفه معها من جديد. كان يستعد لتأنيبها، لمعاملتها بقسوة تستحقّها، ليجعلها تحسُّ لوعته وعذابه. وبدل ذلك، تنقشع من عينيه الغيوم، وينسى كل الكلام والديباجات التي أعدّها في وحدته وألمه، يشعر بالراحة والانشراح وهي تقترب منه، ومعها يهفّ عطرها ووهج شبابها المتألق ودفء جسدها وعذوبته، ويحسّ بأن قدرته على المقاومة تخذله، ويسمع

صوته، وكأنه صوت الآخر، يردّ عليها: – ليش بدي أزعل؟ ما بقدر أزعل منّك يا نزهة.

ابتسمت، بإغراء ودهاء، واقتربت من مكتبه لتضع رزمة أوراق كانت بين يديها. ثم مدَّت يمناها، إلى رأسه، وراحت تمسح جبينه:

– انت، آخر إنسان بريد زعّلو... وما في لزوم اشرح زيادة.

فردّ بلهجة فضحت مشاعره:

– أنا، ما عاد تفرق معي... بعد كام يوم مسافر، وبترتاحي.

وَمَضَ الغضب في عينيها، وسألته بلهجة حازمة:

– شو قصدك يا غابي؟...

فقال بلا مبالاة:

– انتِ عارفة قصدي... ما في لزوم اشرح لك.

واستمرّت في استغفاله:

– لا... أنا بحب إفهم... أرجو أن تشرح، وبالتفصيل. من يوم خناقتك مع أديب وأنا أتساءل شو القصة؟...

فردّ محاولًا إنهاء الحوار:

– القصة مضتْ... غمرها النسيان...

وقاطعته:

– ضروري أعرف، إِذا كان لي دخل... بدي أعرف شو خصّني...

فنهض واقفًا وهو يتمتم:

– قلت الماضي مضى... وختمنا على الجرح.

واستوقفته، بل جمّدته في مكانه، واضعة يديها حول زنديه، ثم راحت تهزّه وهي تحدّق إلى عينيه:

– تطلّع فيّي منيح... تطلّع، شو شايف؟ هه؟..

فوجئ جبران بتصرّفها، وحاول أن ينسحب من ذلك الطوق، لكنّها ضاعفت ضغطها عليه وهي تردّد:

– قل لي... شو شايف؟...

فتأمّلها بهدوء وحزن، وبقي صامتًا، منقادًا لصراع العاطفة، والواجب، إلى أن تغلّبت العاطفة وسحب نظره من عينيها وهو يردّد:

– ما عدت قادر لا شوف، ولا أقشع.

خرجت العبارة مبلّلة بدموع حاول أن يُخفيها، لكنّ حواسَّها المستنفرَة تتغلغل حتى أعماقه، تطوّقه، ولا تترك له مهربًا.

كان ذلك آخر ما أراده، أن تبصر نزهة الدموع في عينيه، ثم تقترب، وتغمره بذراعيها، مثلما تغمر الأم طفلًا، تروح وتقبّله بشراسة... وكلّما حاول أن يتحرّر، ويخلع عنه ذلك الشعور بالضعف، حيالها، ازدادت سطوتها، وسلطانها عليه. وإذا به يغرق أعمق وأعمق، في تيار إغرائها، وكأنما ضعفه بات مصدرًا لقوّتها. تراجعت خطوتين، وجلست على مقعد مقابل لمكتبه، من دون أن تحوّل عينيها عن وجهه: – أنا شعرت أن خناقتك مع أديب كانت بسببي، بس ما حبّيت صَدِّق شعوري... اليوم، صار شكّي يقين... صدّقني يا غابي، ما في شي بيني وبين أديب الرماح. ما في شي بيني وبين مطلق إنسان. كان لازم تكفِّي مشوارك، حتى تشوف بعينيك... شربنا فنجان قهوة، بعدها وَصَّلني عالبيت، ورجع على بَيتو...

أتسخر منه؟... أم تكذب عليه، مستخفّة بذكائه؟...

يحاصره الشكّ، وشبح سخريتها. وتنقبض نفسه، وتتقلّص... كم هي قوية، هذه المرأة!... كيف تقوى على تحويل لحظات انتصاره إلى ما دون الاندحار؟

حسب، في حينه، أنه انتصر عليها وعلى أديب، برغم كل الألم وتأنيب الذات... وها هي تردّ غيظه إلى نحره، وتتركه مع شعور بالندم على تسرّعه وتهوّره، وتبقى، هي شامخة فوق قمّة اعتزازها. ترمقه من علوّها، بنظرات مؤنّبة تردّه إلى ضعف الطفولة، وتغرقه في أعماق الحيرة، ولا يعود يدري أيصدّق كلامها؟... أم حَدْسه وما تصوِّره مشاعر الغيرة العمياء؟

والآن ما هو شعوره بالضبط؟ لقد تمكّنت من التسلّل إلى أعماقه، لتسلبه حقيقته، وتتركه أعجز من أن يُتأتئ الكلمات. ثم سمعها تكسر مسافة الصمت بينهما:

– بس أنا فرحانة ومعتزّة لأنّي أَثَرْت غيرتك... ما تحاول تخبّي يا غابي... غيرتك كانت سبب الخناقة مع أديب... وأنت، أول إنسان بيغار عليِّي...

فردّ محاولًا أن ينتشل نفسه من الغرق:

– هالحكي ما الو لزوم. أنا حضرت حتى أسلّمك الشغل قبل سفري.

وانفتح لها باب جديد للسؤال:

– فيك تخبّرني، ليش مسافر؟... ليش الهرب يا غابي؟...

لم يجب. لن يردّ عليها. وماذا يقول؟... هو هارب حقًّا! هارب وجبان، ويبحث عن زاوية يُواري فيها جبنه وتردّده. لكنّ صمته لم يخرسها. عادت إليه مستفرسة:

– لا تردّ... لا تحكي. أنا رَحْ ردّ عنك: انت واحد جبان، متردّد وجبان. هيدي حقيقتك. لازم تواجه حقيقتك، بدل الهرب منها.

انقلب حياده إلى غضب تشظّى من عينيه:

– ما تزيديها نزهة... لهون، وبسّ.

فقالت من دون أن تتراجع عن شراستها وحِدَّتها:

– انت عايش بالوهم، في عالم الشعر والخيال. بتغزل، وبتحيّك القصص، على مزاجك. ولما بتواجهك الحقيقة، بتتراجع، وبتصير تفتّش عن وسائل الدفاع عن نفسك. كنت حِسَّك أقرب إنسان منّي يا غابي. نعم، مِن أول يوم شِفْتَك، شعرت بأنك تفهمني، وانك قريب منّي، بشعورك، ورقّة حسّك. لكن طلعت مثل غيرك، ما بتفكّر إلَّا بنفسك... شو بتعرف عنّي غير الشكّ وصور خيالك؟... شو بتعرف عن الإنسانة المقهورة المعذّبة في ذاتي؟

لم يردّ. وكان يحسّ بما يشبه اللَّذَّةَ في سماع تأنيبها... ويوافقها على نعتها إياه بالـ«جبان»... بل يريدها أن تمضي في التأنيب، والتحقير، حتى تسحقه بكلامها... تسحقه كالحشرة الوضيعة، فهو لم يكن جديرًا بها...

ضغط عواطفه، وحاول أن يخرج من تلك الدوامة، ويعود إلى جو العمل، فقال بهدوء:

– اجتمعنا للشغل، مش للعتاب. خلّينا نغيّر الموضوع.

– معك حق.

قالتها بهدوء غير طبيعي، وكأنها استنفدت كل حوافز الدفاع والهجوم، واقتنعت بعدم جدوى الكلام... وتابعت، وهي تشعل سيجارتها:

– معك كلّ الحق... شطحت بالكلام... بس في يوم رَحْ تعرف إنّي مظلومة.

استوت على المقعد، ثم راحت تقلّب الأَوراق، مستعيدة قوتها لتقف في موازاته: سيدة الأعمال القادرة.

تأملها بنظرات طفل مذنب، ولم ينبس بحرف. وكانت نظراته كافية، لتشرح لها أحاسيسه الخفية، والتي يعجز عن تجسيدها في كلام.

115

تلك الأيام القليلة، التي سبقت سفره، كانت أصعب أيامه في الغربة. عاش جبران خلالها في صراع دائم مع نفسه: تارة يضعف، ويقرّر التراجع عن السفر، وطورًا يقوى، ويبصر الواقع ينجلي لعينيه، وتتضح خطوطه أمامه، ويشعر بانحرافه عن المسار الذي يُرضي عقله وضميره، ويحفظ شهامته... ويرى أن بقاءه بقربها سوف يُبقيه في دوامة العذاب والعبث بل ربَّما قاده إلى التشتّت والضياع، فهي قادرة على وضعه في خانة الشكّ مدى العمر.

وعبدالله يأتمنه عليها... زوجته، وأقرب الناس إليه. وهو لم يرتكب خيانة صديق أو عدو... الخيانة ليست من طبعه. لا تزال له عزّة نفسه وإباؤُه. تعوده هذه الصفات الآن، في لحظات الضياع والوهن. تنتشله من انسحاقه وسقوطه، وتردّه إلى الخط السَّوِيّ.

وكان جبران وحيدًا في صراعه، بلا صديق، بلا عمل، وبلا وعد للغد. وتحوَّل إلى الشراب يُغرق فيه نفسه، لعلّه ينسى، أو يغيب عن الوعي... لكن اللذّة التي كان ينشدها، في ما مضى، في شرب كأس، فارقته وتحوّلت الخمرة إلى نار تُلهب أَحشاءه. حتى إذا هرب إلى النوم، كان النوم يهرب منه، ويعصاه، فيقضي ساعات يتلوّى على فراش الأرق، ويتخيل له أنّها قُربَه، يناجيها، يعاتبها، أو يرتدّ على نفسه، يؤنّبها، إلى أن يستولي عليه نعاسه.

وكان على تلك الحالة من سويداء القلب، حين لجأَ تلك الليلة إلى فراشه. وقبل أن يغفو سمع نقرًا خفيفًا على الباب، حسبه في بادئ الأَمر من بعض هواجسه. لكنّ الطرقَ يتواصل، ويجعله يقفز من فراشه ويتّجه تلقائيًّا إلى الباب ليسأل من يكون زائره في تلك الساعة المتأخرة؟

قدَّر أن يكون الطارق واحدًا من أبناء الجورة المغتربين في توليدو... ربما أحدهم عرف بخبر سفره، فحمل إليه رسالة، أو هديّة لنقلها إلى الأهل هناك... ربما...

ولم يتابع تساؤله، إذ سمع صوتها يتسلّل هامسًا، من خلف الدفّة المُغْلقة:

– افتح، يا غابي.

اعترته الرجفة المألوفة التي يخلعها حضورها فتغمر كيانه، وسمع صوته يسألها، خارج حدود إرادته:

– خير؟! خير انشالله...

ولم يقو على إخفاء لهفته وهو يحسب أنّ أمرًا هامًّا يدفعها إلى الخروج... ربّما حصل مكروه...

فتح الباب ودعاها لتدخل، ولم تكن تنتظر دعوته. دفعت الباب ودخلت، وهي تُزيح لثامًا لفّت به رأسها، ثم هجمت تغمره بعنف، وتشدّ، بذراعيها، محاولة دمج كيانها بكيانه. ثم أجهشت بالبكاء.

كان بكاؤها حقيقيًّا. وكانت تلك أخلص اللحظات بينهما. وكان يمكنه أن يستسلم لشعور دافئ استولى على خلايا كيانه، وأنساه الماضي والحاضر، وكل الشجون. لكنّ منبِّهًا من الأعماق نهض يدقّ في وعيه: «انتبه... انتبه، يا صبي... أَبْعِدْها...».

فأَبعَدَهَا قليلًا عنه وبدا وجهها أمام عينيه وجهًا معذّبًا بائسًا... وجه امرأة تقف خارج مملكة الحب. وسمعها تتمتم، وكأنما تخاطب نفسها:

– ما قدرت نام يا غابي. كلَّما أغمضت عيني تذكرت سفرك، حسَّيت اني رحْ جِنّ... بتعرف شو معنى الإنسان الواقف على حافة الجنون؟...

تمنَّى أن يبقيها بين ذراعيه ويمحو الألم من وجودها ويبقى مدى عمره ملتصقًا بها، بجسدها الدافئ، ويغمرها بحنانه وعطفه، يدفع عنها الضيم ويحميها. نعم، يحميها... لكنّ سيف الواجب، المشهور فوق رأسه، يُبعده فتحلّ الكلمات الجوفاء مكان حرارة العاطفة: – وعبدالله؟ عرف عبدالله أنك خارج البيت؟

فسبقت الدموع كلماتها:

– خلِّيني إنسىَ عبدالله يا غابي. خلِّيني إنسىَ حياتي، وعذابي... ما عدت قادرة أتحمّل.

وطفقت تبكي، بكاءً لوعة وحرقة. ولم يَدْرِ كيف خالفته ذراعاه، وعادتا تطوّقان جسمها بقوَّة، وكأنّهما تحاولان اعتصار آخر قطرات الألم من كيانها. ولمَّا رفعت إليه من جديد وجهها الذابل وعينيها الدامعتين، انهال عليها بقبلات مجنونة. حرمان عمره كلّه سكبه في تقبيل وجهها، عنقها، صدرها و... عادت

إليه صحوة الغيبوبة، وتنبَّه وعيه، فأرخى ذراعيه من حول جسدها وتراجع خطوتين يعلن انسحابه: – نزهة... غلط يا نزهة. ما بيجوز. إنتِ مَرْة ابن خالي عبدالله. غلط هذا، يا نزهة... ارجعي عا بَيتك وانسي هالليلة.

وهي لم تكن مستعدة لتراجع أو رجوع... كان خروجها من البيت بعد انتصاف الليل دليلًا على بلوغها أقصى حالات اليأس والكآبة. وهي الآن معه، عنده، تطرح نفسها عليه، تستنجد به، متخلّية عن أي حسّ بالكرامة... وعليه أن يفهم حالها، ويهبّ لنجدتها...

لكنّه لن يفعل. كانت تأمل بأنّ تخطّيها حدود المعقول قد يجعلها تبلغ تلك النقطة البعيدة في وجوده، ويخرج إليها من محارته، وسمعها تردّ عليه بإصرار وتأكيد:

– لا... أنا مش راجعة عالبيت. مستعدّة إبقى معك. سافر معك عالبلاد. خذني يا جبران، خذني...

فلم يجب. ابتعد عنها بهدوء، وتوجه إلى ركن يحفظ فيه زجاجة الشَّراب، فأحضر لها كأسًا وسكب لنفسه كأسًا، ثم دعاها إلى الجلوس:

– إعقلي يا نزهة. وخلّينا نحكي عا رَواق. بتروحي عالبلاد، زيارة. ومش ضروري معي. يمكن ينفعك تغيير المناخ، وشَوْفِة الأهل والوطن. احزمي الشنطة وسافري...

لم تدعه يكمل عبارته، فقاطعته بحزم:

– اترك العقل والإرشاد. أنا مش مشتاقة للأهل... أنا مشتاقة إلك يا غابي، وما كنت أعرف معنى شعوري حتى استحقيتها الليلة... سفرك فتَّح عينيّ وخلَّاني شوف الواقع الرهيب. حياتي، بعد اليوم، قلق وفراغ...

فردّ بهدوء:

– حياتك بجانب زوجك. ما تفكّري إني إتسبَب بجرح كرامة عبدالله... القرار مش هيّن عليَّي... أَلَمي أضعاف أضعاف أَلَمِك يا نزهة، ورَحْ يبقى.

قالت تصبّ يأسها:

– عيشتي مع عبدالله، خيانة. فكّرت العِشرة بتولِّد الحب، وما حصل. بقيتْ حياتنا فارغة. لا حبّ ولا أولاد. وحسبت الشغل يعوّضني. الشغل والمال. لكن هذا كله كان سراب. الحقيقة هي الحب، وبلا حب الدنيا صَحْرَا قفرا، يا جبران.

فردّ موافقًا:

– معك كلّ الحق. بس يمكن قَدَرنا نعيش ألم الحب.

وعادت إلى سابق عنفوانها وهي ترفض تسليمه:

– نحن نصنع قدرنا يا غابي. أنا مستعدة أطلب الطلاق. لا تفكر الخيانة سهلة عليِّي... بدّي اترك عبدالله. بس اعطيني وعد. كلمة تقول إنك واقف معي.

جرأتها ترعبه. وتزيل مصارحتها الغشاء الأَخير عن عينيه، ويتململ شعور الخوف في كيانه، وهو يطرح على نفسه السؤال: «هل أنا مستعد؟ هل أجرؤ على تلك الوقفة؟ هي تحاول أن تخطو الخطوة الأخيرة، وتُجاوز الحدّ، فهل أنا سائر بموازاتها؟».

وكان هذا التساؤل الخبطة التي قلبت كيانه الداخلي، وزلزلت مشاعره، وأيقظت في صدره الشك، والارتباك، وشلّت حركته.

أمسكت ذراعه، وراحت تهزّها وتردِّد:

– قلها، يا غابي. كلمة واحدة... سمّعني انّك واقف معي.

ولم يكن مستعدًا. حاول أن يكسب الوقت كي يتخذ قرارًا حاسمًا:

– أعطيني فرصة يا نزهة... ما صَبَحْ إلَّا فتح. عودي للبيت، وبُكْرَه منلتقي.

فردّت في محاولة للتعلّق بخيط أملٍ واهٍ:

– خذ فرصة أيام، وشهور. بس وْعِدْني انّك ما بتسافر.

لم يَرُدّ. ولم يَعِد.

قام عن كرسيه وتناول معطفها بحركة تدعوها إلى الخروج:

– لازم ترجعي عالبيت. طبعًا أنا بوصّلك، ما بخلّيك ترجعي وحدك.

فاعترضت قائلة:

– ما في لزوم. مثلما جيت برجع.

ولم يسمعها. ارتدى معطفه، وردّ الباب خلفه، وسار إلى جانبها بصمت، يصغي إلى وقع خطواتهما على بلاط الرصيف.

لم تكن المسافة بين منزله ودارها بعيدة. بعد دقائق معدودة، كانَا على الباب. وكانت الطريق خالية، والجو هادئًا، إلَّا من نفح صقيع يتساقط من فضاء مغلّف بالضباب، ويعبر المسام، حتى أعماق الكيان.

انتظرها لتفتح الباب ثم استدار ليعود، فاستوقفته هامسة:

– منتظرة جوابك...

116

عاد إلى بيته وظلّت مشاعره تتخبّط عبر تلك المسافة الممتدّة بينهما. زيارتها عاصفة، زلزلت كيانه، وقلبت خطّته وتصميمه وتركته في دوَّامة الشك والضياع. تأمّل الصناديق «المُوَضّبة» للشحن، وأحسّ بوهن داخلي يستولي عليه.

كان في الماضي مسيطرًا على حياته، متحكِّمًا بخطاه، فما باله الآن، يقف في هذا الفراغ الرهيب؟

قضى بقية الليل يسترجع حوارهما ويفكّر في ما إذا كان قد أخطأ، ويتساءل عمَّا إذا كان تصرّفه يقوده في الاتجاه الصحيح؟...

هل يستجيب للعاطفة والنداء المتوسّل في عينيها؟... أم يقوى على ضعفه وأحاسيسه ويرفض أن تجرفه وتهدم إرادته وصموده؟

ظلّت الأفكار تأخذه وتَرُدُّه، مثل موج البحر، وهو فوقها، في اضطراب... يلهث محاولًا الوصول إلى الشاطئ، وكلَّما حسب أنّه يلامس مَرْسى الأمان، يقذفه الدُّوار مجدَّدًا إلى عرض البحر. وحين أغفى، مع بزوغ الشعاعات الأُولى من الفجر، كان يرضخ، منهكًا، لسلطان العياء.

ولم تكن حاله أفضل حين استيقظ ظهرًا. أحسّ دوارًا يلفّ رأسه وثقلًا في صدره، وقفزت إلى الذاكرة عبارتها الأخيرة: «منتظرة جوابك».

ماذا تراه يقول؟ وبماذا يجيبها؟

يكاد الزمام يفلت من يده ويفقد ثقته بحواسه وقراراته، فهو لا يشك بحبه لها، لكنه لم يسأل نفسه، من قبل، عمَّا إذا كان مستعدًّا لدفع الثمن، والوقوف إلى جانب ذلك الحبّ ومواجهة الصعاب... وهي تدعوه الآن، ليتخذ القرار. وكان، حتى ليلة أَمس، قد اتخذ قرارًا آخر، كي يبتعد عنها... يهرب، ويعود إلى البلاد. وفي سبيل تحقيق ذلك القرار باع كل ما يملك، وجمع ما تبقى له من حاجات خاصة جعلها في ثلاثة صناديق، جاهزة تنتظر الشحن... وجاءت هي لتعيده إلى نقطة الصفر، وتغرقه مجددًا في دوّامة الحيرة والقلق، ببضع كلمات.

قَلَب الصفحة، وأبصر على الوجه الآخر عبدالله، يقترب منه، بكل تَرَهُّله، وبساطته، وقد تحوّل وجهه إلى وجه نمر شرس: «هَيْكْ الأمانة بآخر زمان؟... صحيح الدنيا ما عاد فيها شرف، ولا ناموس... تْفُوه...».

ويخفض عينيه، ويصمت. كيف يقوى على مواجهته، والتحديق إلى عينيه؟... كيف يقوى على مواجهة نفسه، وَغَدِه؟ وهل خلت الدنيا من النساء؟... لماذا نزهة؟...

ويشعر، في أعماق كيانه، بأنها سوف تبقى معه، وتظلّ مقيمة هناك في أعماقه، تحتل المساحة كلها، ولا تترك مكانًا لسواها...

أمّا الآن، وهي تنتظر جوابه، فماذا يقول لها؟

117

ارتدى ثيابه، وخرج، متجهًا نحو المخزن، فهناك أُمور لا تزال عالقة، ودفاتر يجب أن يسلِّمها...

سار بحركة آليّة نحو مكتبه ولاحظ أنّ الباب مغلق. طرقه بهدوء، فسمع صوتها من الداخل، قويًّا واضحًا، ولا يشبه بشيء صوت المرأة التي زارته بعد انتصاف الليلة البارحة:

– أدخل.

كانت تجلس فوق كرسيّ وأمامها شاب وسيم. موظَّف جديد، لاحظه قبل أيام. بدت على وجهها علائم المفاجأة، ربَّما لم تتوقع حضوره في ذلك الوقت. حاولت أَن تخفي اضطرابها وهي تنهض، لترحّب به، بعدما صرفت الموظف: – أهلا، غابي، تفضَّلْ.

تفرّس في وجهها، باحثًا عن آثار الليلة الماضية، فَارْتَدَّ خائبًا. كان وجهها صافيًا، نقيًّا، ولا أثر فوقه لعاصفة الأمس. زينتها على أكملها، عيناها مكحّلتان، شعرها مصفّف بتسريحة «شينيون»، وعنقها العنبري يتجلّى بإباء.

في الطريق، إليها، كان يدبّج مقدّمة لحديثه معها. لجوابه عن سؤالها. وها هو ينسى ذلك كله الآن ويقف أمامها ذاهلًا.

أعادته من شروده، حين سمعها تقول:

– عبدالله عاوزك بشغل.

تأملها غير مصدّق ما تبصره عيناه، ثم سألها وكأنّه يسأل نفسه:

– عبدالله؟ شو بيريد مني عبدالله؟

ابتسمت بهدوء أثار شكوكه:

– عنده إلك مفاجأة...

ثم نهضت، ترافقه إلى مكتب زوجها، فسار بجانبها كالمخبول. ردّه من ضياعه، صوت عبدالله يرحب به، بحماسة وانشراح:

– أهلا، أهلا بجبران... حضرت بوقتك.

– خير انشالله؟...

سأله، وانتظر... فتابع عبدالله من دون أن يتخلّى عن حماسته:

– عندي اقتراح جديد... مشروع جديد...

فقاطعه:

– بس أنا راجع عالبلاد...

قهقه عبدالله ومطّ صوته مثلما يفعل في حالات الرضى:

– هيدا معلوم عنّا... المشروع بينتظر حتى ترجع. خمسة، أو ستة أشهر. يا سيدي سنة. خُذْ وقتك.

ولكي يُشبع فضوله، سأله:

– ممكن توضّحْ، شو هو المشروع؟..

فقال:

– اسأل نزهة... الفكرة فكرتها.

وفهم كل شيء، وانجلَت له الحقيقة. نزهة تحاول استبقاءَه، وبأيّ ثمن. وحين علمت أن أحد المغتربين ينوي بيع مخزنه، وجدتها فرصة ممتازة للشراء. ووافقها عبدالله، لكنه توقف عند فكرة الإدارة. وهنا قدّمت اقتراحها: «ليش ما بتسأل جبران؟ يمكن يغير رأيو».

كان ذلك قبل ربع قرن...

لكنّ جبران سافر. ولم يغيّر رأيه أو قراره...

118

أتمّت ألماظ إعداد الغداء وتفنّنت في تزيين المائدة والأَطباق. أخرجت شراشف الكتان، والفوط المنشّاة، المكويّة والمطويّة، بانتظار مثل هذه المناسبة. وكانت سلمى بين يديها، تعمل مثل آلة، بسرعة وبصمت... تَتَلَفَّت

من حين إلى آخر، تتفقّد رمزية، لترى ما إذا كانت تقوم بوظيفتها، أم أنّها تتلهّى، شأن الأولاد في عمرها...

ورمزية كانت تشعر بأهمّيتها، في ذلك النهار، كما لم تحسَّ بها من قبل. إذ كانت تخجل من عمل أمها، وتتحدّى الرفاق، حين يعيّرونها، وتشتمهم... علمت كيف تردّ الصاع صاعين فهي: «بلا ظهر»، كما تقول أم هاني ولا أب يدافع عنها، ولا مكانة اجتماعية، ترتفع حولها وتسوّر كيانها. كان على رمزية أن تتعلم كيف تُقرّص عجينها بيديها... وها هي الآن تشغل حيّزًا مهمًا في حياة آل السلموني.

نادتها ألماظ بلطف غير مألوف وهمست في أذنها:

– روحي شوفي إِذا فاقت الضيفة... عامهلك، دقِّي عالباب بلطف.

– نعم. خالتي أولماظ...

– وإذا كانت صاحية، ارجعي وخبّريني.

– نعم، نعم...

قالتها، وهي تخطف نفسها من المطبخ، وتتَّجه بسرعة إلى الغرفة الداخلية. «تنقوزت» عليها من ثقب المفتاح فأبصرتها مُمَدَّدَة فوق السرير، وقد أغمضت عينيها. ولم تجرُؤ على طرق الباب، استدارت لتعود وتخبر ألماظ بما رأت، ففاجأها وجمّدها في مكانها نداء من الداخل: – مين؟...

– أنا... رمزية.

– تفضّلي.

فتحت الباب ببطء، وتأتأت بصوت يكاد لا يسمع:

– خـ.. خـ.. خالتي... أولماظ... بعتتني...

فقاطعتها نزهة:

– قرّبي لشوف، شو إسمك يا حلوة؟...

– خادمتك، رمزية.

ابتسمت نزهة للتعبير الكبير، «المبهبط» على طفلة لا تجاوز العاشرة. وأشارت إليها لتقترب أكثر، ثم طوقت وجهها بيديها لحظة وهي تردِّد:

– انت حلوة... حلوة كتير، يا رمزية، بنت مين بتكوني؟

– بنت سعيد جبُّور. أمّي سلمى. بيي مات، من زمان. وأنا عايشه مع أمي.

– سلمى... آه، عرفتها. مبسوطة بعيشتك يا رمزية؟ بتحبي حياة الجورة؟

حنت الطفلة رأسها، ولجأت إلى الصمت. السؤَال فاجأها، لم يسألها أحد من قبل عمّا إذا كانت تحبّ... إذا كانت مبسوطة... الجميع يطلبون منها خدمات: «روحي يا بنت... تعي يا بنت... خذي... جيبي»...

عادت نزهة تلاحقها:

– ما جاوبْتِ على سؤالي، بتحبي تبقي بالجورة، أو تسافري لأَميركا؟

ابتسمت عيناها، وتعثّر لسانها بالجواب.

– بـ... بسّ ما عنّا حدا بأميركا...

أحسّت نزهة، بأنّ هذه هي الفرصة المناسبة لتجسّ نبض الفتاة، فعادت تُحكم سؤالها:

– قولي، بتحبي تسافري؟ أنا مستعدة أكفلك، رَحْ إحكي أمّك بهالخصوص، وباشِرْ بمعاملات الهجرة.

شهقت الصغيرة، واستدارت قليلًا، قبل أن تتوجه إلى الباب، ثم تسارع إلى أمها في المطبخ:

– يمِّي... يمِّي... الأميركانية بدها تأخذني معها... بدِّي روح عا أميركا...

استقبلت سلمى كلام ابنتها بابتسامة عريضة، من دون أن تُدرك جوهر الكلام. ولما استحقّت القول، قطّبت ما بين حاجبيها وعادت إلى طبيعة تعاملها مع ابنتها:

– روحي شوفيلك شغلة تنفعك، يلَّا... ساعدي خالتك أولماظ.

ولم تتبلّغ ألماظ الجواب المباشر من رمزية، كل ما فهمته أن ضيفتها صاحية، وعليها أن تسارع بتقديم الطعام.

وفي زحمة الانهماك بالضيوف، لم يعد أحد يتذكر رمزية، أو يلاحظ الفرحة التي غمرتها، وأنعشتها، فاندفعت تعمل، وتغنِّي وترقص، وهي تعيش الحلم الجميل.

119

خرجت نزهة من الغرفة، أنيقة منتعشة، ومرتاحة... كانت تحتاج إلى تلك الدقائق من الخلوة، لتتمدّد، مثلما تعوَّدت أن تفعل في إثر كل نشاط مرهق، وفي خلال الراحة، تغتنم الفرصة لتتأمل، وتستعيد الأفكار العابرة، والتي لم يسمح لها الوقت بفهمها والغوص في تفاصيلها الدقيقة. استعرضت رحلتها،

منذ بدايتها، حتى تاريخ وصولها إلى الجورة، وراحت تتذكر، بسرعة، الوجوه التي تعرّفت إليها لأول مرّة، بينما لم تكن في حاجة إلى التعريف عن نفسها. هي مغروسة في الذاكرة، وفي الحكايات وليالي السمر.

وأيقظها وجه رمزية من سهوم التذكر الآنيّ وردّها إلى الوراء، أربعين سنة إلى الوراء، حين كانت هي في عمر هذه الفتاة، وكانت مثلها، محدودة بحدود قريتها داريا. واحدة من عشرات الأولاد، مخلوقات، تدبّ بين الأَزقة، والساحات، ليس لها ما يصلها بالعوالم البعيدة عن أسوار القرية، سوى الأحلام... وتساءلت عمّا إذا كانت لرمزية أحلامها... وهل ترضى باقتراحها. هل يُعقل أن يتحقق مثل هذا الحلم، فتعود إلى أميركا، برفقتها، ابنتها بالتبنّي وتصبح أملًا لم تجرؤ مرّة على اشتهائه؟

أعادها إلى الواقع صوت ألماظ آتيا من خلال الباب المشقوق:

– تفضّلي يا نزهة، السفرة حاضرة والكلّ بانتظارك.

نفضت جسدها من تراكم الأحلام والذكريات، وقامت إلى المرآة، تسوّي زينتها، وتشدّ الحزام حول خصرها وتذرّ العطر حول أذنيها، وتستعيد من المرآة نفسها الحاضرة.

كانوا «بانتظار طلّتها»... جبران، وضيوفه الرجال... وألماظ تروح وتجيء مثل المكّوك وتردّد عبارات المجاملة، والضيافة، و... «تفضلوا»...

تقدّم جبران، وأمسك بمسند الكرسي، عند رأس المائدة المستطيلة، ودعا الضيفة إلى الجلوس؛ بينما تولت ألماظ دعوة الكاهن الواقف عند الرأس المقابل، إلى مباركة الطعام، ثم توزّع الآخرون على الجانبين.

سيطر الصمت قليلًا على الجماعة وكأَنما حضور نزهة أوقف مجرى الكلام، وقطع سحبة الأَفكار إلى حين. وكان جبران أشدّ الحاضرين وعيًا لذلك الصمت، بينما انشغلت ألماظ بسكب الطعام، وهي تدعو ضيوفها إلى تذوّق الأطايب الشهية من إعداد يديها.

لكنّ الطعام اللذيذ لم ينجح في قطع تيار التفكير لدى المختار. كانت يده وحدها منشغلة، وعقله يتشظّى، وأفكاره تتلاطم مثل موج البحر. إِذا لم يكن هناك من أمل في تزويج نزهة بجبران، فمن يكون المرشح الأنسب؟ (بل

المرشح التالي؟) فهو يعرف تمامًا أنّ جبران هو الأفضل، حسب المقاييس المألوفة، ومن عدة وجوه، وفي مقدّمها: السن، والتناسب، ثم تجربته في المهجر، ولكن...

المختار يتابع خيط أفكاره، وتشرق في باله فكرة لم تخطر له من قبل، ويتذكر ديب بو عبسي... لم لا؟... شاب، أشبهي، وعازب. وديب ينتظر مثل هذه الفرصة، وإِلَّا، فلماذا لم يتزوج حتى الآن، وقد تجاوز الثلاثين؟ لماذا لم يختَر واحدة من الصبايا المتهافتات عليه، وهن أصغر منها بسنوات؟...

صدمه فارق السن... فتوقف لحظة ثم تابع لنفسه: «وهذه عقبة يمكن تجاوزها»...

نعم، المختار ليس تقليديًّا، متحجّرًا. فقد تمكّن، خلال أربعة عقود، أَن يتكيّف مع الظروف السياسية المتغيّرة، ويواجه التحوّلات، ويعطي «لكل وقت حكمه»... إنّما ظلّ هو الحاكم، والمرجع. لم تكن الأمور بتلك البساطة. لا... إذ وَقَعت مشاكل كثيرة وحاول الحزب المناوئ له أن يزعزعه، ويشيله عن الكرسي... لكنّ شباب الحزب حديثو العهد في الساحة... وفي المهنة. وليست لهم حنكة المختار، وصبره، ومعرفته بخفايا الأمور، و«من أين وكيف تؤكل الأكتاف»...

وهكذا تبدّلت وجوه، وتغيرت أحوال، ووَلَّت دول... رحلت فرنسا، استقلّ لبنان... وبقي هو في مكانه ومكانته. تولد أجيال جديدة، وتنتقل العتيقة إلى رحمة ربها، وهو جاثم كالعقاب، فوق متن الكرسي...

والمختار الآن يفكر. وقد عاد إليه التوهّج والأمل... تحرّك في كرسيّه، وسوّى ياقة قميصه، ثم رفع كأس العرق بيده، واقترح أن يشرب الجميع كأس الضيفة العزيزة: «ليحمدوا الله على سلامة وصولها، والترحّم على من مات»... وتلاه الكاهن، فبارك الضيفة ودعا لها بالتوفيق والسعادة.

ونزهة ردّت بكلام يليق بالحضور وبالمناسبة: «بشكر الله لأَنو قدّرني على العودة للوطن... تراب الوطن أغلى من كل الجواهر»...

– صحيح...

وافقها الجميع، وهم يتابعون مضغ الطعام اللذيذ: كبة نيّة، فراخ وحمص بطحينة، وتبولة ومحاشي، كوسى وورق عنب...، وكل ما توصّل فنّ ألماظ إلى إتقانه. وكانت فوق طاولة جانبية، مائدة ثانية بالانتظار، وفوقها سلة عنب وتين، وجاط كنافة وبقلاوة، من بعض هدايا الضيفة، من «حلو البحصلي»...

في هذه الأثناء، كانت رمزية تساعد في الخدمة، بحماسة، وتلبِّي الطلبات، بين المائدة والمطبخ... ولم يخفَ ذلك الزوغان على أمها. كانت تتأملها بفخر مشوب بالفرح، عبّرت عنه لألماظ حين عادت تتفقد سير العمل في المطبخ: «مقصوفة العمر، الدنيا مشْ سايعتها»... وبقيت العبارة معلّقة في الهواء، ولم تبلغ سمع ألماظ المنهمكة الآن بما هو أهم من سلمى وابنتها. أما المختار، فقد بدأ يُغيّر مجرى تفكيره، بسبب الموقف السلبي لجبران: «الرجّال عايش بالوهم... شو أنا بعرف مصلحتو أكثر منّو؟ يمكن عندو أسباب»... وكانت عيناه مركّزتين على نزهة، يتأملها بإِعجاب، وأشرقت في عينيه شمس أمل جديد: «كتار بيتمنّوا عليها... بعدها فتيّة، وحلوة وغنية... وديب ناطر هالفرصة»... تيَّار أفكاره الداخلية يسري مثل سلك كهربائيّ ويبدّل مزاجه، فجأة، شعر بأنه فقد متعة الجلوس إلى المائدة، فالوقت يضيق وعليه أن يتمّ مسعاه، قبل أن يفوت الأوان.

وما كاد يلتهم آخر لقمة، حتى هبّ، يودّع:

– لا تواخذوني يا جماعة، عندي ناس بالبيت، وتأخّرت عليهم.

ارتفعت أصوات الاحتجاج من الحضور:

– بعد بكّير... خلّيك معنا...

وكان صوت ألماظ يعلو فوق أصوات الجميع:

– القهوة، يا مختار... ما شربت قهوتك...

– قهوتكم مشروبة... انشالله دايمًا بالأفراح...

122

كان الوقت عصرًا، عندما خرج المختار، واتجه في الطريق الذي يقود إلى داره، لكنه عرّج، في منتصفه، على بيت ديب بو عبسي.

كان الفتى قد نهض من قيلولة الظهر وبدأ يستعدّ للمشوار اليوميّ، «الكَسْدُورة مع الشباب». وأحسّ بقدوم المختار، من عبارته المرسلة، فاتحة

حوار: «وينكن يابا... مين في هون؟»...

– أهلا... تْفَضّلوا.

قالها ديب، وهو يزّرر قميصه، بعدما تأكّدت له أناقته المعهودة، تعكسها المرآة الكبيرة في غرفة نومه:

– أهلا... أهلا بالمختار. شرّف... تفضّل.

– يزيد فضلك يا ابني... شو وحدك؟... وين خيي بو ديب؟

– والله راحْ مشوار... تفضّل، ارتاح.

وارتاح المختار مرتين، مرّة لجلوسه فوق الكرسيّ، ومرّة لكون ديب وحيدًا في البيت؛ وهذا يعطيه حرية الحديث، مثلما يشاء.

تركه ديب لوحدته ودخل المطبخ ليعد فنجان قهوة، فأعاده الصوت الواثق بموقفه:

– أنا مشْ مطوِّل يا ديب. قهوتك مشروبة كل ساعة... تعَا، اقعد لنحكي كلمتين...

يحكي؟! ماذا يريد منه المختار، وبذلك التأكيد؟

– طيَّب، كباية شراب...

وضع ديب صينية، وفوقها كأسان من شراب الورد الأحمر الجذّاب، فوق «السْكَمْلا». قدّم لضيفه الكأس الأولى وتناول الثانية، ثم انتظره ليتناول الرشفة الأولى، قبل أن يشرب هو، بصمت، وبانتظار أن يفاتحه المختار بالكلام. ولم يُخيّبه، ولم يدعه ينتظر طويلًا. طرح سؤاله مثل طلقة مفاجئة: – شو رأيك، يا ديب، بنزهة؟ نزهة بو مرعي، ما غيرها...

برغم كل الأفكار التي سبق أن تجوّلت في رأسه، وهو يتأمل نزهة، ويواكب استقبالها من بعيد، فوجئ ديب.

لقد غازل الفكرة، وعاش وجهُها الجذاب في خياله، وتساءل عن إمكان الوصول إليها. أمّا أن يأتي المختار بالسؤال المباشر، المفاجئ، فلم يخطر له ذلك في بال. لذلك، أحسّ أنّ جرعة الشراب، تقف في زلعومه ويعجز عن الردّ، ولما لاحظ أنّ المختار جادّ وينتظر جوابه، لجأ إلى أقرب حيلة مُحَوِّلًا جوابه إلى سؤال: – شو قصدك يا مختار؟

– بسلامة فهمك يا ديب... أنت عارف قصدي. عندك فرصة عظيمة، ما تْفوِّتها...

لكنّ ديب ظلّ ماضيًا في تجاهله:

– يعني؟

– تخطب نزهة...

فابتسم بمكر وهو يسأله:

– هَيْك؟ من الباب للطاقة؟!

جَلجَلت ضحكةُ المختار، ورقص شارباه، فلجم جموحهما بأطراف أصابعه:

– ما تنسى، نحن في عصر السرعة... وفرصة مثل هالفرصة ما بتحصل كل يوم.

لم يكن عند ديب جواب، فخلد إلى الصمت، وشجّع صمته المختار فتابع:

– انت ما عليك... اترك لي أمر تدبير نزهة. رَحْ جسّ النبض، وبعدَين برجعلك... واسطة خير، لا أكثر ولا أقلّ.

همهم ديب:

– يديم غيرتك يا مختار... أعطيني فرصة للتفكير.

فارتاحت أسارير المختار واقترب يربّت كتف جليسه:

– بالطبع... حقّك. فكِّر من اليوم لبكرة... وما تنسَى، الوقت ثمين... جايْ نزهة تزورنا صبحية... إِبقَ خلينا نشوفك...

ودَّع المختار وخرج من باب الحديقة، مرحًا خفيفًا ومرتاحًا لتأدية الرسالة. وبدا النشاط في نقلات خطاه، وكأن زمانه عاد به ثلاثين سنة إلى الوراء... وكان غارقًا في تلاطم أفكاره، فلم يلاحظ طيفًا عبر الزاروب المقابل لبيت ديب، ثم لم يلبث أن توارى خلف إِحدى الدور...

123

أم هاني، العين الساهرة اليقظة... كان مرورها مصادفة... فهي لا «تتلصّص» على المختار أو سواه. لكنها «حاضرة ناظرة» لما يحدث حولها، لا تفوتها شاردة أو واردة. أحيانًا في استطاعتها قراءَة الضمائر وما يجري خلف الأبواب الموصدة، لذا، لم تفتها زيارة المختار لديب بو عبسي، فورًا، بعد الغداء مع نزهة: «خير انشالله... لازم يكون جدّ شي مع المختار»...

كان عليها أن تتبادل الرأي، وتبلّغ الخبر، لتكتشف ردود الفعل لدى سواها وتصغي إلى رأي غير رأيها.

أم هاني لا تطيق صبرًا.

وفي خلال لحظات، كانت تدقّ باب أنجول:

– العوافي، ياختي أنجول.

– يزيدك عافية، تفضّلي يام هاني.

– يديم فضلك، ياختي، كيف حالك اليوم؟ انشالله مريّضة...

– يْريّض بالك، شرّفي، اقعدي.

– تقعدي بالعافية، مش مطوّلة. بو هاني بيكون ناطر، بس قلت بمرق اسأل عنك.

– يديم غيرتك يام هاني.

مع العبارة الأخيرة، كانت أنجول تقدّم كرسيًّا لتجلس الضيفة، مقابل مقعدها، حيث تعوَّدت أن تمدّ ساقها الضعيفة بسبب «عصبي مزمن» أقعدها في البيت منذ سنين... وحالمَا ارتاحت، وأسندت ظهرها، بادرت زائرتها بالسؤَال: – شو في جديد عندك يام هاني؟

لم تتأخر أم هاني بالردّ. كانت حقًّا مستعجلة، فهذا موعد رجوع زوجها من الكروم...

قرّبت كرسيّها قليلًا، وقالت بصوتٍ هادئ:

– ضيوف الجورة، الهيئة رَحْ يطوّلوا...

– يعني؟ شو قصدك؟

فردّت همسًا وكأنّما للجدران آذان تتنصّت:

– في طبخة عالنار... شفت المختار خارج من بيت ديب بو عبسي... معلومك كان الغدا اليوم عند الأميركانية... وبعدها قام المختار، «طِرّ دغري» لعند ديب... فشو فهمتي؟...

هزّت أنجول رأسها إشارة واضحة للفهم وإدراك المقصود بهذا القول، لكنها لم تتمكن من إخفاء دهشتها:

– بس معقولة يامْ هاني؟ ديب ولد، ممكن يكون بعمر ابنها لو كان عندها ابن. معقول تتمّ هالشغلة؟

وجاء جواب أم هاني مصحوبًا بتنهيدة عميقة:

– إيه! نحن بعصر العجايب... انتظري، تَرَيْ...

تركت عبارتها وديعة بين يدي أنجول، ونهضت تستأذن وهي تردّ اللقحة فوق كتفها:

– تقعدي بالعافية يا أنجول...

– العافية تجيلك... مستعجلة كتير؟ ولو، بعده مطرحك ما سخن.

وقبل أن تغرب شمس ذلك النهار، كانت الجورة تتداول خبر زيارة المختار لبيت ديب بو عبسي، ويؤوِّله كلّ راوٍ على هواه.

أما نزهة، فقد استأذنت ألماظ وجبران، في ذلك المساء بالذات، لتقوم بزيارة، قالت إنّها واجب ضروريّ...

124

ظلّت الحكايات ثلاثين سنة دوائرَ معلّقة على بابها، ولم تَسْعَ ليًّا إلى اختراق دائرة، لتقف في وجه الشمس. وبقيت متوارية خلف قناع غامض في ذاتها، تكاد لا تبصره العيون، أو تلمسه الأنامل... ركّزت اهتمامها على المنزل والأولاد، فنشأوا برعايتها أصحاء أقوياء... إنّما منكسري الجناح في مواجهة الآخرين: أُمّهم مطلّقة، وأبوهم غريب... وكان في أصله أجيرًا.

كم سمعوا الإهانة، وابتلعوها مع ريقهم، وتنفّسوها مع الهواء! وظلت مهمازًا في خواصرهم، تحثّهم على السعي، كي يتقدّموا ويتميّزوا في العلم والأخلاق... الأخلاق رأسمال الفقير، حين لا يكون له رأسٌ أو مال.

وغربة فارس، في المكان، علّمته دروسًا قاسية، وبات يُقَدِّر النعمة، ويُعطيها حقّها. لم يعد يثور لأَتفه الأسباب مثلما كان يفعل في السابق... بل تحوّل إلى رجل عاقل هادئ، وعلى قدر من الحكمة والبصيرة... وهو، بدوره، ركّز جلّ اهتمامه على العمل؛ فحوّل البساتين إلى جنان وغرس نُورَ عينيه مع القمح، في حقول «السليخ»...

ومثله ليًّا دأبت في العمل، ولم تهدر وقتها، مثلما هو شأن سواها من النساء... فهي لا تقف فوق سطح، أو تتسكّع عند منعطف أو «زاروب»... حيث يقفن، ساعاتٍ طويلة يتحدثن، ينبشن الأخبار، يُذرين الفضائح، وينشرن في الهواء غبار كلامهن يُزكم الأنوف ويلوّث نقاء الجو.

وهي ظلت غارقة في العمل، من طلوع الفجر، حتى منتصف الليل. تعمل. والنتيجة تلك النعمة: أولادها الأصحّاء... فأصبحت مضرب المثل في الجورة، وبرغم كل شيء. وبفضل رامز ويعقوب، حصل الأولاد على شهاداتهم من معاهد بيروت. سمير صار محاميًا، ونبيل أستاذًا. أما ماري وهند فقد تخرجتا من دار المعلمات أستاذتين مرموقتين في فن التعليم والتربية، وبقيت الصغرى جنان، لم يكن لها ميل إلى الدراسة فانصرفت إلى تَعلّم مهنة، اتقنت فن الخياطة والتطريز. «ديّاتها من فضّة وذَهَب» تقول أم هاني في معرض المديح، ثم تضيف: «لو كان للجماد تم، لنطق بفضائل عائلة فارس وليّا».

هذا السلوك الذي، يكاد يكون مثاليًّا، رافقهم في الوطن وفي المهجر، وأثار الغيرة في صدور كثيرة لم تتقبل فارس النمر مواطنًا، مثل أهالي الجورة... لكنّ الكلام يبقى كلامًا، وأحيانًا يرتد إلى نحور أصحابه سهامًا حادَّة، تخترق القشرة الخارجية لترسو في الأعماق.

أمّا نزهة التي قرّرت، عَصْرَ ذلك اليوم، أن تقوم بالزيارة، بل «تفي نذرها»، كما قالت لنفسها، فلم تكن ملمّة أو واعية تلك التفاصيل في حياة العائلة الصغيرة.

كانت تضمّ، طيّ صدرها، سرًّا دفينًا عمره ثلاثون سنة، أي من عمر زواجها بعبدالله. ومعه، تحمل شعورًا بالذنب، إذ لم تتمكن من القيام بالزيارة فور وصولها... لكنها الآن مصمِّمة، وهي ماضية في تنفيذ الخطّة، ولن يردعها عن ذلك أيّ رادع...

125

شمس الأصيل، ترتفع ذراعًا فوق حرف الأفق الغربيّ، ونسائم المساء تدغدغ وجهها ببرودة لذيذة، تجيء بلسمًا بعد قيظ النهار. وتنتشر مثل النعمة، فوق السطوح والشرفات، ثم تنحدر فتلامس الأزقة، والبيوت الواطئة، وتعوّض الناس من حرّ يومهم... وكانت نزهة، في تلك الفرصة السانحة بين النهار والليل، تحثّ خطاها، في الطريق الرئيس، غير مبالية بظلّها الممتد قامات خلفها... ولا بالعيون التي ترافق خطاها، ومن خلف الأبواب المغلقة، في معظم الأَحيان.

أعلنت، لجبران وألماظ، وبصراحة، أنّها ستزور ليّا. ولم تسألهما أَن يرافقاها مثلما تقضي التقاليد، بين الضيف والمضيف في الجورة. ولم تخبرهما عن السبب الذي يدعوها إلى القيام بتلك الزيارة. ولم يعلِّقا بما يغشي ظنونهما، بل ردًّا بصوت واحد، وكأنهما تدرّبا على الجواب من قبل: – الله معك...

وفي الطريق، كانت النظرات ترافقها، مدهوشة، مرتبكة قليلًا، ومتسائلة: «ما الذي يدعوها إلى تلك الزيارة؟ وماذا وراء المظهر؟».

ولم يكن في وسع أحدهم أن يقدّر معنى الزيارة.

وفوجئت ليّا.

هي لم تنتظر أَو تتوقّع، أن يجيء يوم، تقوم فيه نزهة بزيارتها. ونزهة من دون الناس... المرأة التي أخذت مكانها. تجاوزت الأذى وانتصرت، ولم تسقط، مثلما سقطت هي، ضحيّة... نزهة الباقية، في ضميرها، علامة لانتصار الحكمة الأنثوية.

ولكن كيف تجرؤ نزهة على زيارتها؟

وماذا تريد منها؟...

غار قلبها داخل قفص الصدر حالما أبصرتها تعبر بوابة الحديقة، وسمعت دقاته مثل مطرقة قوية، سريعة ومتواصلة الإيقاع تُنذرها. وفكرت في أَنَّ أفضل ما يمكنها أن تفعله، هو الهرب. في وسعها أن لا تردّ على الطرق المتواصل على الباب. لكنها، بلا شعور منها، وجدت نفسها تندفع، صوب الباب، ثم تفتحه بهدوء وتصميم... لقد اتخذت قرارها، تحت ضغط اللحظة، لتواجه غريمتها وتستمع إلى ما تريد قوله.

وقفت نزهة لحظات، عند العتبة. أَتُرَاها كانت تجمع فكرها، أم تُعطي نفسها فرصة الولوج من الباب، بكل القوّة والتصميم؟...

ثم، ومن دون أي تردّد، أبصرت يدها تمتد إلى المقرعة، وتطرقها: «طاق... طاق...» ثم تقف، وتنتظر الجواب.

وجاءتها الدعوة، من خلف الباب المقفل، جماعيّة، وكأنما هي جمهور لا شخص واحد:

– تفضّلوا...

ثم فُتح الباب. ووقفت المرأتان، متقابلتين، للمرّة الأولى في ثلاثين عامًا.

انقضت اللحظات، وكأنها دهور، وكأنما الزمان توقف عند عتبة الدار. ثم، رقّت الأهداب وتواصلت العيون، واستأنف الزمان مسيرته، من جديد، حين مدّت ليّا يدها، مُرحبة، تُسلِّم على اليد الممتدة إليها، وتدعو صاحبتها إلى صدر الدار: – أهلا وسهلا...

وكان، خلفهما، يقف الزمان وثلاثون سنة حافلة بالتحوّلات والأحداث. ألوف الوجوه والمرايا، وأطنان الأحلام والذكريات.

126

الهواء يتجمّد، برغم حرارة تموز. والزمن يتحجّر، ويقف، تمثالًا من ملح. العين تصبّ في العين فتصطُّك الكلمات، وترتعش الجفون، ويُسمع وقع انهيارات الداخل، وكأنها زلازل، أو تصادم كواكب وارتطام مجرّات...

امرأة مُفاجَأة، تعتريها الدهشة، وثانية تتسلّح بالتصميم والقرار تقف قبالتها، مرتاحة، هادئة وعازمة على المضيّ إلى آخر مدى من المغامرة:

– أنا نزهة... نزهة بو مرعي... لي الشرف بأَن أتعرّف عليك، يام سمير.

– أهلا فيك... تفضّلي... شرفي.

قادتها اليد، متردّدة إلى ردهة الاستقبال:

– أهلا... شرّفتِ يا سِتْ نزهة.

تردِّد ليّا تمتمات تقليدية، وتتشاغل بالمساند، تضعها خلف ظهر الضيفة، أو تسند بها كتفها ومرفقها. ثم تتراجع بضع خطوات، وتجلس فوق مقعد مواجه:

– أهلا وسهلا.

وفي ضميرها، كانت تتساءل عن معنى الزيارة، ولماذا؟ لماذا تزورها نزهة؟ وماذا تريد منها؟

– حبّيت إتعرّف عليكِ يام سمير...

أجابتها نزهة، وكأنها سمعت تساؤلها الصامت ثم تابعت:

– سمعت كتير عن عيلتك الحلوة... بسّ، من غير شرّ شايفتك وحدك؟...

فردَّت ليّا بهدوء وهي تحسب كلماتها:

– الأولاد تفرّقوا، بين بيروت والمهجر. وبقيت أنا وبو سمير... شَيبتي عا شَيبتو، مثلما بيقولوا...

– الله يحفظهم، ويباركهم يام سمير.

محطّة وقف جديدة. ولا تدري كيف تعاود التقليع منها. لكن عزمها قويّ، وثقتها بنفسها لا تتزعزع، وخصوصًا أنّ ليّا وحدها، فلتغتنم الفرصة:

– يمكن تستغربي زيارتي يام سمير... ما التقينا من قبل، لكن هالزيارة واجبة... أَجّلتها كتير... ثلاثين سنة... واليوم أنا سعيدة لأنها تحققت، وشفت وجهك بخير.

– تظلّي بخير.

ردّت ليّا باختصار، من دون انفعال، لكنّ الأسئلة كانت تغلي في أعماقها: «لماذا؟ وما الذي يدفع نزهة إلى أن تقوم بهذه الزيارة؟ وماذا تريد؟».

ثم، سمعت نزهة تتابع، وكأنها تحادث نفسها هذه المرّة:

– مثل شوكة في الخاصرة ظلّت تنخز، ثلاثين سنة، وما كنت قادرة أوصل، أو وصِّلِّك خبر... اسمعيني مليح، يام سمير. أنا مظلومة، مثلك، ويمكن أكثر. ظلمني دهري. ما يخدعك المال. السعادة ما بتنشرى بمال الكون. أنا رهينة يام سمير. عشت حياتي رهينة للمال. يمكن، بالأول، ما كان الغنى هو السبب. لكن، اليوم، بعرف ان المال كان في أساس ارتهاني، ارتباطي بعبدالله بو مرعي. ولمّا صرت أعرف، كان الوقت فات، وما عدت أقدر إتراجع... نعم، أنا اليوم غنية. ربحت المال. لكني، خسرت أثمن ما أملك... خسرت نفسي.

كانت ليّا تُصغي، وتنتظر محطة وقف تنطلق هي منها، أو طرف جملة، يقرّبها من جوهر الكلام. ثم سمعت نفسها، من دون قصد منها، تردّ على كلامها، بسؤال:

– بسّ أنا، ما شايفه علاقة تربطني بهالحديث... أنا؟ شو خصني أنا؟

وردّت نزهة، من دون أن تخرج عن خط رسمته بيدها:

– قبل ما نوصل لجوهر الكلام، حبّيت حطّك بالجو... بالحقيقة، أنا مش عارفة شو هي القوة يللي دفعتني تازورك... الضمير؟ أم النفس المظلومة، بتظلّ تصرّخ، حتى تسيطر العدالة وتعمّ الكون؟ أو هو حبّ الانتقام لنفسي من رجل ظلمني مثلما ظلمك؟...

ما الذي تصرّح به هذه المرأة؟ وما هي هذه الصدمة، تتلقاها ليَّا، بين عينيها، وتتفجّر شظاياها في وعيها، وتتركها في حالة من الذهول؟...

ظلّت تنظر إلى محدثتها، مشدوهة، ولا تفهم ما تقول... وإذا فهمت، فإِن الكلام كان يعبر من خلالها، وكأنه موجّه إلى شخص آخر، سواها، يجلس خلفها.

هذه أول مقابلة لها مع نزهة. لا تعرفها. لم تتوقف مرّة لتفكر فيها، أو ترسم صورة لها في خيالها. وها إنّها تتجسد أمامها، دفعة واحدة، وبعد انقضاء مدة طويلة على موضوع حسبت أنّها دفنته... جاءت الآن، هذه المرأة تذكرها به، وتنكش جَمْرَةُ من تحت الرماد.

لم تعقّب على كلامها. وانتظرت بصمت، أن تستأنف محدثتها:

– يام سمير، جيت بلغك رسالة مهمّة، لازم تعرفيها: أنا عشت مع عبدالله ثلاثين سنة، وما زلت بكريَّة. حملت السرّ بقلبي، لأنّي وعدت حافظ عليه. سرّ الزواج مقدّس لكن الموت فك ارتباطي وحرّرني... وصار يمكن أن أعترف حتى يرتاح ضميري... انتِ، كنت بريئة، وضحيّة يام سمير.

خرجت الكلمة الأخيرة، نشيجًا، لكنّه لم يحرّك في ليّا شعور العاطفة، بقدر ما استنفر التحدّي والكبرياء:

– تْأَخَّرتِ باعترافك يا نزهة... هالموضوع صار بيخصّ الماضي، والزمان اللي ما عاد زماني، وبيخصّ صبية بريئة، داست براءتها وطهارتها قَدَم الوحش ومرّغت إيدو اسمها بالوحل. واليوم، صرت بعيدة، عن الصبيّة وعن الخبريّة... عندي رجّال بيعبدني وأولاد مثل النعمة. والحمدلله عايشين، كافيين الناس خيرنا وشرّنا...

لم يكن هناك كلام يُضاف مقابل هذه اللهجة الحاسمة، وقد قطعت الطريق، على التمادي في الحوار.

نهضت نزهة، تستأذن بالخروج فاعترضت ليّا:

– لحظة، حتى تشربي فنجان قهوة... ما بيصير...

– قهوتكم مشروبة يام سمير. صار لازم إرجع... بخاطرك...

– مع السلامة، يا نزهة.

وقفت ليّا في الباب، تشيّع ضيفتها حتى واراها المنعطف، ثم أغلقت الباب وحاولت أن تعود إلى استئناف عملها في المطبخ.

127

لم تعرف نزهة، في حياتها، شعورًا مثل الذي رافقها في طريق عودتها إلى بيت السلموني. كانت تسير، وحدها، بعد الغروب، وقد انتشر نور الغسق خجولًا ناعمًا، فوق الدروب، وذرى التلال. وامتلأت الساحة والأزقة والدروب بالناس؛ الأَولاد يلعبون، وقد استعادوا نشاطهم مع عودة البرودة المسائية، والفلاحون يرجعون من يوم طويل في الحقول، يعتلون ظهور الدواب، أو يسوقون القطعان والحيوانات، فتتناغم أصداء خطاهم مع الإيقاع الجماعيّ تخلّفه الأظلاف والحوافر ليرتفع، متآلفًا في الأجواء، ناشرًا نغمًا خاصًّا تتلقفه الأسماع، بفرح وراحة. وبرغم نعومة وطء قدميها فوق صفحة الدرب الذي يقودها باتجاه البيت، فقد كانت تشعر بأَن عبورها، يحدث نشازًا، يترك حيرة في العيون، والنظرات، وتساؤلًا فوق الشفاه: «أين كانت؟ وإلى اين تسعى؟»...

والزيارة، التي كانت همًّا لصيقًا بوعيها منذ سنين، صارت الآن، خلفها. وذكر اللقاء، يُريحها فتحثّ خطاها لتنطلق، حرّة رشيقة ومرتاحة الضمير... لقد حقّقت الهدف الأول من الرحلة، وبقي عليها أن تقوم بالخطوة التالية. أَتراها تنجح؟؟

128

أمّا القناع الخارجيّ لوجه الجورة، فكان يخفي طبقة بركانيّة متفجّرة... نزهة خرجت على العادات والأعراف، وتجاوزت المألوف والمحسوب، فأثارت بزيارتها الشكوك: «ما هي غاية الزيارة؟ وإلى ماذا تهدف؟»...

دارت الأسئلة، فوق الشفاه، وفي جلسات السمر، واحتلّت واجهة الكلام، في البيت والدروب والدكان، ولم تكن أم هاني بعيدة عن الجوّ، ولم تشغلها زيارة المختار لديب بو عبسي عن سائر التحركات. عينها الساهرة، لا تفوتها الشوارد...

وكانت بتلك العين أَول من رصد خروج نزهة، من بيت السلموني، وحدها. في البدء، لم تصدّق ما رأت عيناها: تجوُّل الضيفة وحدها، يبقى خارج التقاليد المألوفة، ويثير التساؤل، بل الظنون. لكن هؤلاء الذين يجيئون من خلف البحار السبعة، ومن أميركا بالذات، يجلبون معهم سلوكهم الغريب العجيب.

راحت تستعيد في ذاكرتها أمثلة على ذلك، وفي الطليعة، يبقى في ذهنها مثال جرجي الحاج، الذي حين لم يعجبه سكن شقيقته، اختار النوم في السيارة. وكانت سيارة فخمة – كاديلاك – لم يسبق أن وصل إلى الجورة شبيهة لها، حتى أنّ الأولاد، والكبار أَيضًا، ظلّوا أيَّامًا يغدون، لا للسلام على الضيف، الذي أبعدهم عنه سلوكه العجيب، بل للفرجة على تلك «القلعة» الحصينة...

ومثله فريد الفانوس. كان سلوكه مستهجَنًا، ولم يُفِد اعتذار عائلته، بأنه ينضو عنه ثيابه، ويمشي في الكروم شبه عارٍ، بناءً على نصيحة طبيبه، في أميركا، والذي وصف له الشمس دواء...

ونزهة، لم تبلغ حدود التطرُّف، مثل سواها. لكنّ الجورة تضنّ بأناسها، أن يخرجوا على خطّها التقليديّ المرسوم... وأم هاني تنبّهت لهذا الخروج. فراحت تسعى لمعرفة الدافع إليه، وفكرت في أن تلجأ إلى سلمى المقيمة، ليلًا نهارًا، عند بيت السلموني. وحدها، سلمى، يمكن أن تهدِّئ قلقها.

129

كانت سلمى ممدّدة فوق طرّاحة، عند مدخل بيتها، تستريح من تعب يومها، وتقلّب في فكرها الكلام الذي نقلته إليها، رمزية، ودعوة السفر إلى أميركا، لتصبح ابنة نزهة، بالتبنّي.

وكانت الصغيرة ترقص فرحًا، وهي تُعيد ما سمعته من نزهة، وتدور حول أمها المنصرفة إلى تقشير البطاطا، فتغمرها بساعديها، أو تحتضن رأسها، من دون وعي:

– يمِّي... رَحْ سافر لأَميركا.

طيف المغامرة يُقيم في وعي كل فتى وفتاة في الجورة. السعادة والثراء وكل ما يُشتَهى، يقيم خلف آفاق السفر... وكانت الصغيرة تكرّر ما تسمعه، ويعشش في أعماق الوعي، ولم تتوقف لتقرأ ردود الفعل في عينّي أمها وهي تسمعها.

هذه الأم الفقيرة تكدح، وتعمل تحت أَيدي الناس، من أجل أن تحصل على لقمة العيش، لها ولابنتها. ولا يمكنها أن تعدها بأكثر من ذلك، ويبقى الباب، في عيني الصغيرة، مفتوحًا لكل إغراء. حتى إذا ما انتقلت سلمى مع أفكارها إلى

أبعد من حدود العاطفة، راحت تُقلّب الفكرة من وجوهها العملية، واكتشفت أنّ موقفها ليس سلبيًّا، فالدعوة تفتح لابنتها بابًا على حياة واعدة: المستقبل الآمن ورغد العيش ثم تلك الثروة الكبيرة ترثها، بعد عمر طويل... فكيف لها هي أن تؤمّن لابنتها ولو شيئًا يسيرًا من تلك الوعود كلها؟...

كانت المرأة تجترّ تلك الأفكار، وهي تُجيل نظرها في السقف وتتأمل شقوق الخشب وقد تفتَّحَت بفعل الزمن، و«الدلْف»... وترحل، حتى أبعد نقطة يمكن أن تطاولها مخيلتها، فيعيدها إلى حاضرها وقعُ قدمين، ثم ترى أم هاني، واقفة في الباب: – مسّيكِ بالخير يا سلمى...

– أهلا... وميِّة مسا...

ردّت، وهي تنهض عن الفراش، مفاجَأة:

– خلّيكِ مرتاحة... هه... أنا بقعد قبالك، عالكرسي.

قالت ذلك، وهي تسحب كرسيَّ قش، واطئًا وبلا مسند. قرَّبت الكرسيّ وجلست، متابعة حديثها:

– شو، رمزية مش هون؟...

طرحت السؤال وهي لا تنتظر له جوابًا بقدر ما شاءته تمهيدًا لحوار. ولم تبخل سلمى بالجواب:

– بقيت عند بيت السلموني، أولماظ وحدها... وعندهم ضيوف...

وتمسكت بطرف الخيط غير مصدّقة.

– بالطبع... والهيئة الضيوف مْطَولين القعدة!

لم تُعَلِّق سلمى، بل لزمت الصمت تاركة لزائرتها مجال الكلام حرًّا. لكن أم هاني جاءت لتطرح أسئلة وتأخذ أجوبة، إذا أمكنها:

– بيظهر الضيفة كانت عند بيت فارس نمر... شو؟ خير انشالله هالزيارة.

– والله، عِلمي، عِلمِك، يام هاني. أنا، مثلما أنتِ قاشعة، مرتاحة ببيتي، وما عندي خبر فلان ولا علَّان.

لكنّ جوابها لم يقطع حبل الحوار، أو يقنع المرأة، فتابعت:

– ومعلومك، يا سلمى، البلد من بابها لمحرابها، سلّمت عا نزهة، ما عدا بيت نمر... بس مين بيعرف النوايا؟...

فقاطعتها سلمى، محاولة تغيير الحديث:

– شو قولك بفنجان قهوة؟

فاعترضت أم هاني وهي تنهض مودّعة:

– قهوتك مشروبة كل ساعة يا سلمى، مَرْقة طريق، قلت بسأل عنك.

– تسأل عنك العافية، يام هاني.

130

ونزهة وصلت إلى بيت السلموني مع الخيوط الأولى من عتمة المساء. استقبلها جبران عند الباب، ولم يسألها عن الزيارة، ولا ما جدّ معها، لكن لم يفته ارتياح بدا فوق وجهها. وكأنما كانت في مهمّة صعبة، تحققت. وإذا كان هناك توق للمعرفة، لدى ألماظ، فقد كتمته حتى لا تضايق الضيفة. لكن الخبر، لم يلبث أن انتشر في الجورة، وعاد إليهما على لسان رمزية، وقد عادت من الدكان، فوّارةً حماسةٍ ولهفة: – خالتي أولماظ... خالتي أولماظ... الأميركانية زارت أم سمير...

– سدّي بوزك، وليه... شو خصّك انتِ بهالقصص؟ روحي شوفي شغلك.

صدَّتها ألماظ. من أول الدرب ولا من آخره. وإذا لم تكن حازمة، فإنَّ الصغيرة ثرثارة، ولسانها فالت، ولا أحد يعلم إلى أي مدى.

ثم، وبعد تفكير جدّي، نادتها ألماظ إلى المطبخ، لتطّلع منها على مصدر الخبر:

– قولي وليه، مين خبَّر؟ وشو قالوا؟...

دوّرت الصغيرة عينيها في المكان، ثم ركّزت نظرها على وجه ألماظ وأجابتها بصوت لا يخلو من التردّد:

– قالوا زيارة مصالحة... لأن أم سمير كانت زوجة عبدالله، قبل نزهة... صحيح؟ خالتي أولماظ؟...

– يقطع لسانك ولساناتهم. وليه، ما تتدخّلي بهالقصص... وإذا سألوك عن ضيفتنا ما تردّي... فهمتِ؟... قولي ما بعرف.

– نعم... نعم، خالتي أولماظ...

برضوخ، أجابت، واستعادت مكانتها لدى ألماظ. ثم اغتنمت انشغالها، لتهرب إلى الحديقة...

وحين لجأ أهالي الجورة إلى مخادعهم، في تلك الليلة، كانت ترفّ، بين الجفون وفي الأجواء، ثلاث فراشات غريبة، أطلقتها زيارة نزهة لبلدهم، وتركت، لمن يهمّه الأمر، فَضْلَ اعتقالها: زيارة المختار لديب بو عبسي، زيارة نزهة لبيت ليّا، واقتراحها تبنّي رمزية.

131

تتحوّل الجورة باستمرار:

مع شروق كل شمس، ترتدي وجهًا... ومع انطواء كل فصل، تبدّل حلّتها... وتتجدّد مع رحيل الطيور وعودتها، ومن خلالها المواسم والزيارات التي بها تُذكَر الأحداث وتُسجَّل التواريخ...

وكان ذلك النهار جديدًا، من سائر وجوهه. جاءَ بعد انقضاء عطلة الأُسبوع، وقد حفلت بالأَلوان الزاهية، والحكايات الممتعة... وحين عادت الشمس، تشرق من جديد، كان الهدوء يسري في الخلايا الدقيقة، مستعيدًا مقرّه الطبيعي. وباتت تلك الخلايا مستعدَّة للنهوض، ومواجهة الواجبات.

الفلاحون انطلقوا إلى حقولهم، يقودون الدواب، أو الأبقار، تعينهم في حمل ما ثقل حمله، أَو في حرث الأرض، وقت الحراثة. والنساء بكَّرن في الغدو، لإِنهاء مشاغلهن البيتية قبل أن تحمى الشمس... وهي بالاسم مشاغل بيتية، فيما تُكَوِّن امتدادًا لأَعمال الرجال في الحقول. وحين تصبح الغلَّات في الداخل، فَإِنَّ أيدي النساء هي التي تتولّى أمورها: «تُصَوِّل» القمح وتجففه، ليصبح جاهزًا للمطحنة، مع كل ما يتبع من نخل، وعجن، وخبز... أمّا القمح المسلوق «قلبة» فيكوِّن ركيزة المؤونة الشتائية، حين يتحوّل إلى عدة أصناف من البرغل تتدرَّج، في خشونتها أو نعومتها، حسب الرغبة والحاجة... وعلى هوامش خدمات القمح والبرغل، يقع موسم «الكشك» وما يتطلّبه من عناية، وفنّ... هذا إلى إعداد اللبنة والجبنة المحفوظة بالزيت... والقوَرْما يحفظها الفخَّار... والدبس، والخل والنبيذ، من موسم العنب... ثم التين المجفف، أو المعقود بالسُّكَّر، من تدفق خيرات التين العسلي، والجبلي، والبوقراطي... ولا تبقى هذه الأسماء عناوين، فحسب، بل خلف كل منها، عوالم شاسعة، ومألوفة لدى أناس يعتمدون الأَرض مصدر الرزق، وضروع المواشي ولحمها، سببًا من أسباب قوتهم...

وماذا عن مواسم الزيتون والزيت والصعتر والسمّاق؟ وقطف العسل، وتخزينه في «النعاير»؟ وصنع «كواير» الطين، المبيّض، يحفظ للحبوب خصوصياتها... ومدّ الحوَّارَى على السطوح وأطرافها، حيث تبقى بذور البابونج كامنة، غافية، طوال فترة الشتاء، حتى إذا عاد الربيع، عادت، تخضرّ، وتزهو في أعاليها بزهورها الصفراء المتواضعة، تقطفها، وتجفّفها لتُغلى في الشتاء، شرابًا تصفه الجدّات علاجًا لكل أنواع السقم...

قدرة المرأة، ونشاطها، من الطاقات الأساسية المعتمدة في حياة الجورة. وهي تقدّر بنسبة بكورها، أو «تلقّسها»، في مغادرة الفراش... وخصوصًا في أصباح الصيف، حيث وقت البرودة محسوب، ومحصور بساعات قليلة.

أَما الأولاد، فيتوزّعون، حسب الحاجة إليهم، بين الحقول بمرافقة الرجال، والنساء أحيانًا، أو في البيوت، يُساندون الأمهات والأخوات في أعمال لا تنتهي... حتى إذا قاموا بالواجب تحرّروا إلى حين، وتوزّعوا بين الزواريب، وفي الساحات، يتسلّون بالحديث، أو العراك، أو ممارسة ألعاب من ابتكارهم...

وأم هاني متفوقة بنشاطها، هي أوَّل من يبكّر في الصباح بالنهوض، وآخر من ينام. وتُباهي بأَنها لا تسمح للشمس بأَن تشرق قبل أن تكون هي قد فرغت من غسيلها ونشرته، ومن بيتها فكنسته ومسحت غباره، ومن عجينها فقرّصته وتركته يختمر على مهل... بينما تطبخ للعائلة، وتملأ الجرّة من العين، وتسقي غرسات الحديقة، وتُطعم دجاجات القن...

جورة السنديان، خليّة نشاط. وأُم هاني أنشط النحلات.

132

وفي تلك الصبيحة، بكَّرت أم هاني في الخروج من بيتها، أكثر من العادة، وقصدت مباشرة دار أنجول، فقد قضت ليلة أرق، وذلك لسببين: الأول، عدم تمكنها من الوقوف على الدافع الذي جعل المختار يقطع الغداء عند بيت السلموني، ليقوم بزيارة ديب بو عبسي. والثاني، جهلها غرض زيارة نزهة بمفردها، لِليَّا، وليَّا لم تحضر للسلام، ولا حضر زوجها!

لذلك، لن ترتاح أم هاني، ما لم تقبض، بيدها، على زمام الأمور، وتعرف المداخل والمخارج لهذه الحركات كلها...

وشرفة أنجول الشرقية تطلّ على تقاطع الطرق، وخصوصًا الطريق الصاعدة إلى دار السلموني وتلك التي تنحدر إلى بيت ديب بو عبسي في الحارة التحتا؛ حتى إذا انحرفت قليلًا إلى اليمين، بلغت بوابة فارس النمر.

ثلاثة فروع، رئيسة، تستقطب اهتمام الناس. وأم هاني تراقبها بعين يقظة، كعين الحدأة.

وكانت أنجول قد فرغت من واجباتها الصباحيّة، فكنَّست الشرفة، وشطفتها، بعدما سقت أحواض الفلّ والحبق والياسمين المعرّش عند المدخل. وحين وصلت أم هاني، وجدتها جالسة، وأمامها صينية عدس، تنقيها قبل أن ترفعها على النار، لتعدّ صحن مجدّرة... لذلك، لم تزعجها الزيارة ولم تؤخرها عن العمل، بل شعرت بأنها وصلت في وقتها؛ فهي تائقة إلى سماع الأخبار الجديدة: – يسعد صباحك يام هاني... تفضلي ارتاحي.

ردّت على تحية ضيفتها بانشراح بادٍ، وأصغت إليها، تبدأ بالتذمّر من حرارة الجو.

– الهيئَة النهار مشوِّب، ما في غصن بيلوح.

قالت أم هاني، وهي تجرّ الكرسي، لتعدّل مكانه قبل الجلوس.

– أيّامُه... في تموز، بتغلي الميّ بالكوز... عاقولة المثل.

وافقتها أم هاني مضيفة من عندها:

– بتغلي بالكوز وبالجرّة...

ثم، وكأنها استمرأت فكاهتها، راحت تضحك والرضى يغمر نفسها.

انقضت لحظات صمت، قبل أن ترفع أنجول نظارتيها المغبَّشتين، وتتأمل وجه ضيفتها، ثم تضيف بلهجة لا تخلو من سخرية:

– بوجْهك حكي يام هاني... هالنشاط مش بلا... الصبح لك يا الله...

فابتسمت لها أم هاني بخبث مبطّن، وقالت:

– مبارح شفت سلمى. ما قدرت آخذ منها لا حق ولا باطل. يختي، حتى سلمى، صار عندها سياسه وكياسه.

وتنهّدت أنجول موافقة:

– إيه... ما حدا قليل.

قالت كلمتها ونهضت، متوجِّهة إلى المطبخ، ولم تلبث أن عادت، بسرعة، حاملة صينية وفوقها ركوة القهوة وفنجانان:

– حماتك بتحبّك يام هاني. تركت القهوة تروق، ونصيبي أشربها معك.

– قهوتك دايمه يا أنجول، كلّفتِ خاطرك...

– أهلا وسهلا. حضرتِ وواجبك ما حضر.

وكانت أم هاني تسمع، وتجيب. وترافق أنجول، بنصف وعيها. أما النصف الآخر، فكان ينتشر عند تقاطع الطرق المطلّة عليها... ثم، وكأنها عثرت على ضالّة منشودة، صرخت تلفت نظر مضيفتها: – نيازي... ومعه نزهة... شو قولك؟...

ولم تبخل أنجول بالشرح:

– أنا شايفة ان المختار عَمْ يسعى. شو غاية السعي؟ ما بعرف... طبّي فنجانك تانشوف...

لكنّ أم هاني لم تَعُد ترى، أو تسمع، سوى ذلك الصوت الآتي من مكان غامض، في بيت المختار؛ خصوصًا حين تأكد لها أن نزهة توجّهت إلى المدخل. ثم، وقبل أن تنقضي دقائق معدودة، أبصرت ديب بو عبسي بكل أناقته، وقد سرّح شعره، وجعّده، ولمّعه بالكريم، ومضى يتبختر مثل الديك الرومي، قاصدًا بيت المختار.

غمرتها فرحة، مشوبة بالقلق. فهي في حالة تخمين، وعليها أن تتأكّد من ظنونها، كي تكتمل فرحتها:

– داهية، هالمختار... ما حدا بيعرف فنونُه.

وافقتها أنجول وهي تقهقه:

– بَسّ داهية؟!... هادا بيجوّز الذكر للذكر... ما في شي بيعصاه.

نفضت أم هاني منديلها، قبل أن تعيد حزمه حول رأسها، ونهضت مودّعة:

– تقعدي بالعافية يا أنجول.

– عافية تجيكِ يام هاني. ما تطوّلي غيابك.

حين ردّت الباب خلفها، كانت أم هاني تُحسّ الأرض تحت قدميها تتخفف من ثقلها، وتتحوّل إلى أجنحة ترفعها، تخفّف ثقل الجسم، وتحملها على متن الأثير.

ولم تكن في حاجة إلى المزيد من الشرح، كي تفهم ما الذي يدبّره المختار، حين يدعو نزهة، كي تلاقي ديب: – طَبَق الدريس...

قالت لنفسها، مستخدمة تعبيرًا تسمعه من لاعبي الزهر، ثم أطبقت كفّها بصورة آلية، وكأنما تقبض على جواب عن أحد الأسئلة التي تشغلها.

133

اغتنم المختار فرصة وصول نزهة قبل ديب، فروى لها خلاصة ما دار بينه وبين جبران من حديث يخصّها:

– وجبران مش غريب عنك وعنّا. وقلت يا وَلَد، إسْعَ للخير. لكن، الحكي بيناتنا، يا ست نزهة، جبران ما بيعرف مصلحته. وإِلا ما بقي حتى اليوم، راسه وراس أولماظ... غشيم. شو طالع بالإيد.

أَصغت إليه، بهدوء، في الظاهر، لكنّ نارًا ظلّت تغلي في صدرها، وتثير غضبها: إذًا، جبران باقٍ على وضعه السابق، وبرغم غياب عبدالله...

وشعرت، بأنّ كل ما بَنته في أحلامها ينهار في تلك اللحظة، وعليها أن تنقذ نفسها فلا تنهار هي كذلك، وليس أمام المختار.

لكنّ الرجل المحنَّك لم يتوقف عند هذا الحدّ، بل انتقل، برشاقة، وعفويَّة محسوبة إلى النقطة التالية من خطته:

– سمحت لنفسي عرّفك على شاب، من خيرة الناس. ابن أوادم... قصدي نربحك من جديد في الجورة...

– بسّ...

ولم يدعها تُكمل، قاطعها، قبل أن يسمع ماذا تودّ قوله:

– فاهم موقفك... اللقاء ما فيه ارتباط. مجرّد تعارف، ولك كل الحرية تبدي رأيك... نحن في عصر الحرية...

أضاف العبارة الأخيرة بين الجدّ والدعابة.

وحين وصل ديب، استخدم المختار كل الحيل المكتسبة، والدهاء، ليجعل اللقاء، يبدو عفويًّا، وكأنه لم يخطّط له، أو يحسب حسابًا:

– كيف خطرنا عا بالك، يا ديب؟ أهلا وسهلا... شرّف.

تردّد الشاب قليلًا وهو يبحث عن كلمات أعدّها للمناسبة، لكنه، فوجيء بالترحيب، وردّ عليه بالعبارات الأقرب:

– دايمًا بالفكر يا مختار... ما لنا غنى عن أفضالكم.

– الست نزهة، ضيفة الجورة، بالطبع، بتعرفها... ديب بو عبسي، شيخ شبابنا...

– أهلا... تشرَّفنا يا سيد ديب.

– إلنا الشرف، يا ستّي.

134

لباقة، وكياسة، وسلوك أنيق، وشاب وسيم؛ ويده، حين امتدّت تصافحها، ناعمة وليست كسائر الأيدي الخشنة عند أهالي الجورة، رجالًا ونساءً. اليد الناعمة المرفّهة تستهويها؟ أم أنّ هذا التوهّج المقنّع في حضوره، يجعلها، تقبل منه أي شيء؟...

لم تَرَه من قبل وإلَّا لكانت تذكّرت. لماذا لم يحضر، ليلة الاستقبال. متكبّر؟ أم هناك سبب يمنعه عن الحضور إلى بيت السلموني؟ هي تذكر الحساسيّات، من أيام زمان، في قريتها... وعيناه جريئتان، ترقص في أعماقهما شيطنة محببة، تتلوّنان بلون محيطه فتبدوان تارة خضراوين، ثم يتقلب اللون، ليصبح عسليًّا، أو بلون الزيتون. وحديثه راقٍ، وكلامه مختار بأناقة وعناية. وهو ملمّ بما يحدث في العالم من شؤون السياسة والاقتصاد، وكأنه يعيش في بيروت، لا في جورة السنديان، وفهمت أنّ سبب هذا التواصل، هو مطالعته، ومتابعته لكل ما يجري في العالم، من خلال الراديو والصحف.

أثنت على نباهته ووعيه، وكانت تشعر بنظراته المعجَبَة، تحيط بكيانها، وكأنها ذراعان ممدودتان، لاحتوائها. ولم يفتها فارق السن بينهما، فهو لا يجاوز، حسب تقديرها، الخامسة والثلاثين، بينما هي تخطّت عتبة الخمسين قبل عام. لكن، هذا ليس ما تحسّه الآن، بل وكأنما نظراته تردّها إلى الوراء، فتكرّ على سلم السنين، انحدارًا إلى أيام المراهقة.

وهذا هو السرّ الذي يجذب المرأة إلى الرجل، أن تحسّ معه أنّها طفلة... مراهقة... محتاجة إلى عطفه وعنايته و... إعجابه.

– هل سبق أن سافرت إلى أميركا؟

تطرح سؤالها، وهي تقصد إبداء تقديرها إلمامه باللغة الإنكليزية، التي يستخدم بعض مفرداتها في حديثه معها الآن.

– لا. للأسف...

– إذًا، درست اللغة الإنكليزية في المدرسة؟

تمتحنه؟

تسأل، وهو يبحث عن جواب، يُقفل به الحوار حول موضوع مفاجئ، لا يحسُّ أنّه مُجَلٍّ فيه:

– بالمدرسة... وبالمطالعة...

وفي تلك اللحظة، دخلت زوجة المختار حاملة صينية القهوة، فتحوّلت إليها الأنظار وانتقل الحديث إلى مجال آخر.

135

لم تقصد أم هاني زيارة بيت السلموني، لكنها لم تفهم سرّ تلك القوة المغناطيسيّة، تجرّها من أنفها، وبرغم إرادتها، وتصعد بها في الطريق إليهم. حماسة غريبة كانت تعصف بكيانها، تجرّدها من إرادتها، وتقودها بذلك الاتجاه:

– صبحك بالخير، ياختي أولماظ.

– يسعد صباحك...

ردّت ألماظ، بحياديّة وتهذيب، وأتبعتها بدعوة: «تفضّلي»، غير نابعة من القلب.

وأم هاني تحسّ وتعي، «تلقطها عالطاير»، كما يحلو لها أن تصف... غير أنّها لن تسمح الآن للمشاعر الشخصيّة بأن تجرفها وتتحكّم فيها... عليها أن تتجاوز ذلك في سبيل ما هو أهم وما هو أوسع من دائرة كيانها المحدود. كانت تسعى لقضية عامة، طارئة، فهي تبحث عن جواب السؤال المطروح، وبإلحاح: ما هي غاية الزيارة التي قامت بها نزهة لبيت فارس نمر؟

لكنها لن تطرح السؤال على ألماظ مباشرة. المرأة ليست غبيّة. صحيح أن حماستها تبلغ أوجها في بعض الحالات لكنها تدرك أنّ في التروّي كسبًا لها، «وفي العجلة ندامة».

جلست مُواربة، على كرسي قش، عند المدخل، كي توحي لمضيفتها بأنها خفيفة الظلّ وهي هنا لغرض، ولبضع لحظات.

وألماظ، التي دعتها بتهذيب لتتفضّل وتجلس، لم تبدّل وجهة نشاطها، بل ظلّت تروح وتجيء، تطنّ كالنحلة، تعيد ترتيب المقاعد، تمسح الغبار عن

الرفوف والطاولات. تزاول عملها العادي، وكأنما دخول أم هاني، من بعض طقوسها اليوميّة، والتي لا تسترعي منها انتباهًا: – بيلزم مساعدة، يختي أولماظ؟

طرحت السؤال، متوسّلة به نقطة رضى في نفس المرأة، فردّت ألماظ باقتضاب، ومن دون أن تلتفت صوبها:

– الله يسعدك يام هاني... رَحْ خلّص، دقيقة، وبكون معك.

لانت اللهجة قليلًا، وعاد الأمل إلى أم هاني. فتحرّكت في مقعدها تسوّي جلستها وتُعيد حزم المنديل حول رأسها، وتستعد لمبادرة جديدة.

بحثت في ذهنها عن عبارة ملائمة، لاستئناف الحديث، وتذكّرت أنها لم تسأل عن نزهة فرشقت السؤال:

– شو بيظهر الضيفة مضحّاية بالنوم، من غير شرّ...

صبّ السؤال في فنجان القهوة، تقدّمه ألماظ على صينية نحاس محفور. فتجاوزته لتعلن:

– قهوة أهلا وسهلا... تفضّلي.

تُخرسها؟! تقطع عليها الطريق؟

ثم تسمعها تستأنف، خارج مدار الانتباه:

– كانت القهوة عالنار، قلت نشربها سوا...

– قهوتك مشروبة يا أولماظ...

وكانت أم هاني تتمنّع. هل تحاول أن تكسب وقتًا، أم تحمّل مضيفتها تأنيب الضمير على الإهمال وعدم الالتزام بقواعد الضيافة؟... فالسؤال ينتظر جوابًا، وعادت تبحث عنه:

– يمكن الضيفة نايمة؟... بكَّرْتْ بالزيارة؟

– الضيفة خرجتْ، بكّير...

باشرتها ألماظ بالجواب، مدركة أنه لا مهرب من دائرة أم هاني؛ سوف تبقى، تُلحّ، وتسأل حتى تنال ما تبغي...

الضيفة خرجت، بكّير!...

الجواب تأكيد لظنونها. وهي لذلك، تنطلق باتجاه آخر، متجاوزة غاية سؤالها:

– ياختي، الجورة من بابها لمحرابها عَمْ تِلْهَج بالضيفة. حاملين نزهة وقايمين، والكلام بسرّك، الناس بدها تعرف هدف زيارتها لبيت نمر...

برغم الحذر، والحيطة، تفجّرت القنبلة. وخرج السؤَال، فجًّا ومباشرًا. اضطرت إلى أن تلجأ إلى ذلك، خشية أن تُفلت منها الفرصة الذهبية.

لم يبدُ على ألماظ أثرٌ للمفاجأة أو الدهشة، فهي تعرف أم هاني جيدًا، بل تستعد، بكل طاقاتها، لمواجهتها بوعي، وحذر. وإذا كانت الآن تقصد إخراجها عن خطها فلن تنجح.

تأمّلتها ألماظ لحظات، ببرودة وجفاء، قبل أن تقذف جوابها:

– دخلك، يام هاني، والناس شو خصّها؟ وانت، شو دخَّلِك عالخطّ؟ مثلما قال المثل: «واحد حامل دقنو، والثاني تعبان فيها». نزهة مش من أهل الجورة ولا تربّت فيها. هي حرّة، بتزور اللي بتريدو... نزهة حرّة... سمعتيني يام هاني؟...

ابتسمت أم هاني، ناشرة قناعًا من السخرية فوق وجهها، وفي أعماقها، كانت تحسّ بانتصارها على ألماظ... على الأقلّ فجّرت غيظها، وجعلتها تثور وتغضب. بهدوء مدروس، راحت تستلّ الكلمات، وتُرَكّب منها جملة الردّ الملائم: – هدّي ذيالك شوي يا أولماظ... أُوعِي تطيري... ما بدها كل هالزنبور. غيرتي عليكن خلّتني إحكي. نزهة حرّة، أكيد. لكن عَلِّمي عا كلامي وتبقَيْ تذكريني: نزهة ما إجت للزيارة، إنّما لتحرَّك الجمر الغافي، ومن سنين تحت الرماد.

صبت أم هاني كلامها، وقوفًا، ثم استدارت، وغادرت بيت السلموني بلا كلمة وداع. لكن، في قرارة ذاتها، كانت مرتاحة، راضية، وعبّرت عن ذلك متناولةً أقرب مثل عبر ذاكرتها: «الصاع بدو صاعين وزيادة».

136

طالت جلسة نزهة وديب عند المختار. لاحظ ذلك الذين يرصدون حركات الضيفة، مِمَّا أَوقد حماسة جديدة، وأتاح الفرصة للقراءة في دفتر التوقّعات. فالزيارة ليست محسوبة. وقد نبتت «مثل الفطر، من فقس الرعد»، كما تقول أم هاني.

أمّا المختار، فقد استعاد شعورًا فارقه من سنين وعرف من جديد حالة الرضى التي تبلغها النفس في إثر عطاء ما أو إنجاز لمهمّة.

والمختارة شاركت، في بداية الجلسة، استقبلت مع زوجها الضيفين، ثم انهمكت في تقديم الضيافة، «تين وعنب (زرّوقة)» من باكورة كرم النهر، وصينية حلوى أعدّتها بيديها: كعك بحليب، تتقنه، كما لا أحد غيرها، و«ركوة» قهوة مطيّبة بحب الهال، تنشر عطرها في الجو، تنبئ بكرم أصحاب الدار وحسن استقبالهم. وبعد ذلك، انسحبت المرأة من القاعة ولم يعد يُسمع لها حسّ، تاركة المختار مع ضيفيه.

137

يطيب الحديث، مع القهوة، في هدوء الصباح. والشمس تتسلّل من خلال خيمة العريشة وتلقي ببعض شعاعاتها على المقاعد، لترتدّ وتنير وجوه الحضور. وعطر القهوة ينتشر في الجو يذكّر بالوقت الطيِّب، واللحظات الهانئة، والمختار يخوض غمار الكلام يتذكّر أيام الماضي، ويعود منها، ليحطّ فوق أغصان الحاضر، نضرة الخضرة، بهيّة الوجود، مستخدمًا كياسته، وسياسته، في إدارة دفّة اللقاء.

شجّعه الانسجام الكلّي بين الضيفين يتبادلان الحديث، لمزيد من التعارف والالفة. وكأنما المختار، في ذلك كله، نديم يحتسي شرابًا سحريًّا، يرتقي به سلالم المجد ويمدّه بالشجاعة، فَيُقبل على البوح بما يخالجه من أفكار، وما يرغب في إفشائه بلا مقدّمات تمهيديّة مثلما هي تقاليد الكلام: – اسمحوا لي عبّر عن فرحي بهاللقاء... انشالله قدومِك، على الجورة، خير، يا ست نزهة...

– الله يديمك، يا مختار... عم تخجّلني... أنا أقل الناس...

تقاطعه نزهة، مثلما تقتضي لياقة الحديث. لكنه يتابع، وكأَنّمَا سمعه مشدود إلى نقطة واحدة تخرج منها أفكاره المدبّرة، والجاهزة، تلبّيه، بطواعية فريدة:

– قال: الما عندو كبير، بيشتري كبير... والأكبر منك بيوم، أخبر منك دوم... مش هيك خيي ديب؟...

توجّه إلى ضيفه بالسؤال، وعيناه تغربلان بخبث ردود فعل الشاب، حتى إذا، تيقّن أثر المباغتة عليه، استأنف، وعيناه تتابعان حركة أصابعه تلف سيجارة جديدة من «التتن» الأشقر الناعم، «يموّنه» به صديق قديم من شْوَيَّا: – ديب، مثل أولادي، يا ست نزهة، وأنت بنتنا... قصدي قول ان الفرصة مناسبة حتى نخلّي لقاء اليوم يدوم مدى العمر.

قالها. العبارة الصعبة، خرجت، وراح يسعى في أثرها. يضرب، والحديد حَامٍ. عيناه تغزلان، بين الضيفين، بسرعة تجاوز الطاقة البشرية.

ونزهة تتصدى له، بجرأة لم يتوقّعها:

– كلامك على الرأس والعين، يا مختار. إنت بتمون... بسّ...

لم يدعها تُكمل:

– ما في بسّ، يا ست نزهة، فُرَص العمر قليلة... بتمرّ، إذا جاءت، مثل لمع البرق وأنا شايف إنها فرصة مؤاتية... فَشُو بتقولوا؟

حوّل الكرة إلى مرمى آخر. لاعب ماهر المختار. يقف في المواجهة، ويداه تمسكان بطرف حبل يبلغ الجهتين، ويصبّ في العمق. يستنفر كل طاقة لدى الضيفين، للردّ عليه... وتتابع نزهة: – بس أنا راجعة بكرا عا بيروت...

– عال... عال...

ردّ المختار موافقًا، ثم تابع:

– وبعد يومين، بيلحقك ديب... وهيك، منبعد عن القال والقيل. وبيروت مَلْفى الغريب مش هيك يا ديب؟..

عدَّل ديب جلسته على المقعد، وكأنه بذلك، يجلِّس وضع أفكاره، ويزِنُ كلماته، فلا يفرّط فيها، أكثر مما يستدعيه الظرف. ثم قال بهدوء:

– والله، يا مختار مسعاك كان دايمًا للخير. لكن المسألة بدها شوية وقت...

ولم يعترض المختار على كلامه بل تابع معه:

– بالطبع تحتاج للوقت... لهالسبب اقترحت أن يتمّ اللقاء في بيروت... ما حبّيت فوّت هالفرصة، وهذا سبب دعوتكم، اليوم، للتعارف. وكل واحد، بعدها، حرّ يتخذ قراره. ومعلومكم الجورة وأهلها، كل واحد محطّة رصد. في بيروت، عندكم حرّية اللقاء والتحرّك، والقرار عند اللزوم... وانشالله بالتوفيق...

قطع بقوله هذا مجرى الحديث. لم تَبقَ هناك كلمات تفيد، في القبول أو الاعتراض. فاغتنمها فرصة ليختم الجلسة بمحاضرة يكون لها وقع خاص:

– كونوا أكيدين، يا ست نزهة، وأنتَ، يا ابني، يا ديب، ما رح تندموا... واتكلوا على الله...

خرجت نزهة وحدها، من دار المختار. وتريّث ديب متَّقِيًا أَعين الناس وفضولهم. لكنّ عيون الرصد الساهرة، جاوزت كل حيطة، وسجّلت، ثم بثّت الخبر في كل صوب: «مشروع خطبة في دار المختار».

لم يكن صعبًا على نزهة، وهي التي تُخطّط، وتحسب لكل خطوة حسابها، أن تقبل الاقتراح الذي طرحه المختار. في عملية حسابية سريعة، تبيّن لها أن الربح يغلب الخسارة. في الحقيقة، لم تكن هناك خسارة، إِذا اعتبرت أنّ صدّ جبران أفقدها حلمها، وَمَحَا أملًا أبقته، بإرادتها، حيًّا، واعدًا...

تعرفه جيدًا، جبران انهزامي وجبان. وهي أخطأت الظنّ، حين حسبته تغيَّر. وكل ما حدث من تغيير، هو إضافات خارجية، ولا علاقة لها بجوهر كيانه... أضاف إلى عمره ربع قرن، وإلى رأسه كومة رماد، وإلى وجهه أثلامًا من التجاعيد.

كانت، في ما مضى، تظنه شاعرًا، وعاشقًا... وظلّ حبّه الشعلة المتقدة في كيانها طوال ربع قرن... وكانت تَأمل أَن يجيءَ يومٌ تنعتق فيه من أسرها، وتستعيد طبيعتها وأنوثتها المرتهنة، وحبه العتيق لها.

«كم كانت مخدوعة!»...

كلام المختار يتحوّل إلى مهماز يخزها، يحثّها على مضاعفة خطاها، لتتقدّم؛ يستنفر شهوتها لتنتقم، وبأسرع وقت... تنتقم؟ أتراه يشعر بالغيرة، أم فات الأوان فصار، مثل ليّا، بعيدًا عن مدى تأثيرها؟...

لم يمنعها تفكيرها في حالها وفي الوضع الجديد من أَن تتذكر أَمرًا هامًّا يتقدم على قائمة اهتمامها، وعليها أن تَبُتَّهُ قبل مغادرة الجورة: تَبَنِّي البنت رمزية.

وقرّرت أن تجتمع بسلمى حال وصولها إلى دار السلموني.

ومن حسن الحظ أنّ سلمى كانت قد سبقتها، لتساعد ألماظ في إعداد الغداء. نادتها، كي تتبعها إلى غرفتها، وراحت ترسم لها صورة المستقبل:

– يا سلمى، رمزية بنت ذكيّة. بقاؤُها في الجورة يقتل مستقبلها. في أميركا بتتعلم وبتصير صاحبة مركز...

ثم، وبعد صمت لحظات، أضافت:

– أنا ناوية اكتبلها حصة كبيرة بإسمها، مال وأرزاق... شو رأيك؟

لم تنبس سلمى بحرف، كانت تُصغي عيناها في الأرض، ويدها تتحرّك، عند محطات الوقف، لتمسح دموعًا صامتة... رفعت إلى محدثتها نظرات حيوان مُحَاصَر، ومغلوب على أمره، فهي تتمنّى لو تُتاح الفرصة لابنتها، كي تسافر، وتتعلّم، ولكنها لا يمكن أن تتصوّر أو تقبل فكرة التبنّي... رمزية ابنتها، وحيدتها...

وظلّت حائرة، لا تعلم بماذا تجيب... وكانت تخشى، إن هي أصغت إلى صوت العاطفة وحدها، أن تعطّل على رمزية، وتحرمها حياة أفضل من عيشة الشقاء والكدح التي تحياها... وأخيرًا، جمَّعت جرأتها وقالت لنزهة: – أعطيني فرصة، حتى فكِّر. شاوِرْ ضميري، وإحكي مع البنت.

فردّت نزهة بلطف:

– فكّري وشاوري هذا حقِّك لكن بريد الجواب قبل السفر.

– تظلّي بخير...

139

عادت سلمى إلى المطبخ، تتابع عملها. وكانت ألماظ منهمكة في إِعداد وجبة الغداء، وفي الوقت نفسه تتساءل عن سرّ تلك الخلوة مع نزهة، وحالما عادت بادرتها بالسؤال:

– خير انشالله... شو بتريد نزهة؟

ردّت بصوت مخنوق:

– ما فيه إِلَّا الخير.

وتابعت ألماظ:

– مش باين الخير. شايفة خلقتك مقلوبة... شو قالت لك نزهة؟

أدركت سلمى، أنّه لا مهرب لها من الإجابة، ثم إنّها في حاجة إلى رأي مخلص يوجّهها؛ لذا قالت، من دون أن تُحوّل نظرها عن القدر الغالي بين يديها:

– الست نزهة طالبة تتبنّى رمزية. تاخذها لأميركا، وتعلّمها، فشو رأيك يا ستي؟

فوجئت ألماظ. لم تحاول إخفاء دهشتها... تذكّرت ما سمعته من الطفلة، عن السفر إلى أميركا وحسبته في حينه كلام أطفال.

لا... الموضوع ليس سهلًا، ولا يعامل بخفة، ليس لسلمى غير هذه البنت. وهي بلا أقارب أو مقتنيات... تخدم في بيوت الناس، تتحمّل الحلو والمرّ في سبيل تلك الإبنة. فإِذا رحلت عنها ماذا يبقى لها؟

وبالمقابل، لم تكن ألماظ جاهلة، لما يمكن أن يقدّمه التبنّي والسفر إلى أميركا، بصحبة سيِّدة ثرية، لطفلة محرومة من كل الوعود... لذا شعرت بصعوبة موقفها. ليس سهلًا أن تقدّم رأيًا بتلك السرعة فراحت تبحث عن كلمات مقنعة، تردّ بها، من دون أن تؤثّر على قرار الأم: – إنتِ أمّها، وهي بنتك. ما فيه حدا يقرّر عنك.

قالت سلمى:

– الست نزهة بدها جواب قبل ما تسافر.

فردّت ألماظ بحزم:

– خذي وقتك. شاوري عقلك وقلبك، وضميرك، واتكلي على الله...

– اتكالي عليه، كل ساعة.

140

لكنّ ألماظ، التي ضبطت نفسها وسيطرت على هدوئها في خلال حديثها مع سلمى، كانت تُحسُّ بغليان في داخلها، ولا تدري، لماذا عادت إليها كلمات أم هاني، وقد رفضتها في حينها... عادت تصفعها بين عينيها: «عَلّمي عا كلامي... نزهة ما إجت للزيارة. إنّما لتحرّك الجمر الغافي... تحت الرماد...».

وفجأة، أحسّت بأنّ أمورًا كثيرة تجري حولها وهي «يا غافل إلك الله!»، لا تدري ولا تلاحظ، غارقة في المطبخ، وإعداد الطعام والضيافة... والماء يجري من تحت قدميها.

«ياما تحت السواهي دواهي!»، قالتها لنفسها همسًا، إِذ صعب عليها أَن تبدّل موقفها ورأيها في نزهة بتلك السرعة، وفي الوقت نفسه، شعرت بأَنَّها في حاجة إلى رأي جبران: «وحده يعرف أطباع الأميركان وتصرفاتهم الغريبة...».

مسحت يديها بمريولها ثم توجهت إلى الشرفة، حيث جلس أخوها منهمكًا في قراءة الصحيفة:

– لا كانت عالبال ولا عالخاطر.

بادرته بالقول، فالتفت إليها، مستلّا نفسه وحضوره من الشرود مع الأخبار والأحداث:

– خير؟ شو السيرة؟...

– نزهة، يا جبران... قال بدها تتبنّى رمزية، وسلمى طلبت رأينا. فشو قولك؟

استنفر كلامُها حساسية جبران إزاء تصرّف نزهة، وردّ على أخته محذّرًا:

– القول لسلمى ولبنتها. نحن ما دخلنا، لا من قريب ولا من بعيد. الموضوع فيه مسؤوليّة... مش استحلينا تنورة أو فستان... إبقَيْ خارج اللعبة.

ارتاحت ألماظ لما سمعته، فردّت موافقة:

– معك حق... لا ناقتنا ولا جَملنا. تصطفل منها لسلمى.

141

وسلمى غرقت في البلبلة، وفي بحر دموعها. وازدادت حيرتها حين اقتربت رمزية، تسألها:

– ليش عم تبكي يا أمي؟

مسحت الدموع بطرف كُمّها، وهزّت رأسها نافية:

– لا... مش عم إبكي. البصلة هي السبب. دمعت عيني من تقشير البصل.

لكنّ الصغيرة ذكية، بالحَدْس، ومن خلال نظرات أمها، أدركت أَنَّها موضوع الحزن، فسألتها:

– حكت معك، الأميركانية؟ هَهْ؟ قولي، شو جاوبتِ؟

طَرَفَت عينا الأم وهي تتأمل وجه الصغيرة فسألتها:

– وأنت، شو جوابك يا رمزية؟ بتسافري، وبْتتركيني؟

بدا على الصغيرة أنها لم تسمع سوى الشطر الأول من السؤال المتعلّق بالسفر. غمرت رأس أمها بذراعيها وراحت تقبلها، وتتوسَّل إليها:

– وحياتك يَمِّي... خليني روح معها. وبعدين أنت بتسافري. بحب السفر، بحب صير غنية يا أمي...

تأمّلتها سلمى بنظرات حزينة، ولم تنبس بحرف. لكنها، في أعماقها، اتخذت القرار النهائي: لن توافق. لا اليوم ولا غدًا... رمزية ابنتها، ربّتها بدموع عينيها، ولن تُفرّط بها. لن تتخلّى عنها لأَيّ وعد. وهذا ما قالته لألماظ، فورًا، ورجت منها أن تنقل قرارها إلى نزهة، قبل أن تسافر.

ونزهة كانت في غرفتها، منهمكة في «توضيب» أمتعتها وحزم الحقيبة استعدادًا للسفر، للعودة باكرًا، في صباح غد:

– نعم، يا هَني، نَوَيْت إرجع... جدّ عليِّي شغل.

قالت ذلك لألماظ، التي لم تَقوَ على إخفاء دهشتها:

– بسّ، الناس بعدها عم تْسلِّم عليك... ونحن، ما شفناك بعد...

– ما بينشبع من شوفتكم يا هَني، بس «كل غريب، عا ديارو راجع»... عا قَول المثل.

– لكن أنتِ مش غريبة يا نزهة... والبيت بيتك.

أضافت ألماظ، من بعض محاولاتها لردّ الضيفة عن قرارها... فتابعت نزهة الحوار، وكأنها تُمرِّن الذاكرة على حفظ اللياقات الكلاميّة في الجورة:

– الله يحفظ البيت وصحابو...

قالت ذلك، وصمتت، وكأنها تختم الحوار في موضوع السفر، لتفتح بابًا جديدًا...

ووجدت ألماظ في ذلك فرصتها المناسبة لتنقل إليها الجواب:

– كلّفتني سلمى بَلّغك... بيظهر مش قادرة على فراق رمزية...

انتظرت أن تبدي نزهة دهشتها، أو تحتج... لكنها تَلَقَّت الجواب بهدوء، ومن دون أن تبدّل لهجتها، سمعتها تقول:

– طبعًا، الولد غالي... أنا حَبَّيت البنت، وفَكَّرت بمستقبلها... على كل حال، ما رَحْ إقطع الأمل. إنتِ مطرحي، يا هَني، إذا غيَّرت سلمى رأيها، خلّيني أعرف... إشارة منك حتى أبْعث الأوراق، والناولون.

قالت ذلك، ثم مدّت يدها إلى الحقيبة، وأَخرجت مائة دولار وقدمتها لألماظ:

– هدية منّي لرمزية... خلّيها تشتري إسوارة ذهب.

تردّدت ألماظ بالقبول:

– الأفضل تعطيها لأمها.

وافقتها نزهة:

– يمكن معك حق.

ثم، ردّت النقود إلى حقيبة يدها بانتظار الفرصة السانحة، وقبل أن تغادر ألماظ الغرفة، دعت ضيفتها إلى تناول الغداء:

– السفرة حاضرة، تفضّلي لفضلك.

ثم هرولت إلى المطبخ، تسكب الطعام، وتنقله إلى المائدة. ولم تنسَ، برغم انهماكها، أن ترسل رمزية إلى البستان:

– نادي عمِّك جبران. الغدا حضر. خلّيه يتفضل.

143

يملك جبران قدرة غريبة على الاختفاء ساعة يشاء. يدخل شرنقة ذاته، ويتوارى. ولا يعود يُسمع أو يُرى.

عاد إلى ممارسة اختفائه منذ أن واجهه المختار باقتراح الزواج بنزهة. طبعًا لم يُضف قول المختار جديدًا إلى معلوماته عن نزهة. لكنّ الكلمة تحفر في الصفحة الخارجية الهادئة، والتي بناها واحتمى بها. وهو، منذ أَمس، يحاول استرجاع ذلك الركود الذي حققه طوال ربع قرن. تشاغل بالمطالعة، عاد يقرأ الصحف القديمة. وحين تعبت عيناه، خرج إلى الحديقة، يتفقد الغرس، يقلع النبات المعتدي، يُقَوِّم غُصنًا التوى، أو يَرُدُّ الشمس عن العناقيد، حين يغلِّفها بأوراقها الكثيفة الخضرة، أو يلفُّها بغصون الوزّال والطيّون.

الحديقة والبستان فردوسٌ صنعه بيديه، يعيش فيه عمره، مطمئنًّا، راضيًا ولا يشعر بالملل ولا يلاحظ العرق المتصبّب على وجهه، أو يحسّ التعب المتحوّل ألمًا بين كتفيه:

– عم جبران... تفضّل عالغدا.

أعاده صوت الطفلة إلى الواقع، هو يستطيع الهرب، إلى حين، لكنه لن يتمكن من التواري طوال الوقت. نزهة هنا، لفترة محدّدة، ثم ترحل. وتساءَل عمَّا إذا كان المختار قد نقل إليها ما دار بينهما من حديث بشأنها. وقدَّر أَن الرجل، لن يذهب إلى حدّ جرح شعور نزهة، الضيفة المقيمة في الجورة لأيام...

لكن المختار أقلع في اتجاه معاكس لأفكار جبران، وشاءَ بنقله خلاصة الحديث، أن يُذكي نار الانتقام في صدر نزهة، ويدفعها إلى التحدّي.

إنّما بقيَ ذلك كله بعيدًا عن إثارته، أو التأثير عليه. نزهة خرجت من حياته، ومشاعره منذ ربع قرن، ولن تعود.

توجَّه إلى الحمام، فاغتسل وبدَّل، بثياب العمل، ثيابًا تليق بالضيفة والجلوس إلى المائدة، ولم يفت نزهة أن تلاحظ أناقته، ووهج العافية البادية في وجنتيه:

– يعطيك العافية يا جبران.. صحيح، مناخ الجبل، ما بيتعوض. كله نشاط وحيوية.

وردّ جبران مسايرة:

– صحيح، أكبر نعمة أعطانا الباري: المناخ والطبيعة الحلوة.

– والبركة في الناس.

أضافت نزهة، وهي تتناول طبق «التبولة» من يدي ألماظ.

واغتنمت ألماظ الفرصة لتتدخل:

– نزهة ناوية عالسفر، بكرا، يا جبران. حاول تقنعها لتبقى معنا كم يوم... بلكي بتسمع منك.

تجرّه ألماظ، دائمًا، إلى نقطة الدائرة، وهو يحاول الخروج. ولا يسعه إلَّا أن يردّ من باب اللياقة:

– فاجأتينا يا نزهة! لشو العجلة؟

– يوسّع دياركم يا جبران. الحمدلله شفناكم بخير. وأَنا عندي شغل.

قالتها بلهجة وضعت علامة وقف للحوار. وجبران لم يشأ أن يتابع، خشية أن يجرّه الكلام إلى قول ما لا يريد الإفصاح عنه. لِذَا، انشغل بتقديم طبق جديد للضيفة:

– تفضّلي... طبخ ألماظ ما بيتفوت...

فردّت بمرح:

– ألماظ... نَفَسْها طَيِّبْ... من زمان ما ذقت مثل طبخها...

144

لم يفهم ديب سرّ ذلك الشعور الذي استولى عليه، وهو يتسلّل خارجًا من دار المختار! انتظر بضع دقائق، حتى توارت نزهة، تُواكبها النظرات المتلصّصة، ثم خرج يطأ الأرض برفق، ورأسه يناطح السحاب. أحسّ كيانه خفيفًا كفراشة، وفوجئ بتلك الأحاسيس تستيقظ في ذاته وتساءل: هل يمكن أن يُحبها؟... ثم

ابتسم ساخرًا من أفكاره، فهو لا يؤمن بالحب أصلًا. واكتفى بدور المتلقي المحبوب. كانت اللعبة تسحره. يتابعها، في عيون الصبايا الساذجات، يستجيب لها، بقدر ما يهبه التجاوب متعة الحسّ بالتفوق، والقبض على زمام العاطفة. وتبلغ متعته ذروتها، حين يرى الواحدة منهن متيَّمة به، هائمة، لا تملك قدرة على ردّ عينيها عن ملاحقته، أو وجهها عن اقتفاء أثره وكأنها، حياله، زهرة «عبّاد الشمس» تميل حيثما مال النور... ووجهه هو ذلك النور الذي يشرق، ويغيب، مقتفيًا خطّ عبور الشمس وظلالها من الشروق حتى المغيب.

وكان يحسُّ بالارتواء، والانتعاش حين يعود مساء، إلى بيت خاوٍ يشاطره سكناه والد نذر نفسه لتربيته، ولم يتزوج، بعد وفاة زوجته في إثر ولادة ابنه، بل كفله ورعاه، بقدر ما تسمح خبرته ومعرفته في التربية، تساعده في ذلك نساء الجورة، الجارات والقريبات...

وظلّت المرأة، بلمساتها الحميمة، بعيدة عنه؛ ولم يتغلغل حنانها ليطاول الزوايا الحساسة في كيانه، فيوقظها وينميها.

وها إنّه يواجه المرأة مواجهةً تختلف عمّا ألفه مع صبايا الجورة، من غَزَلٍ بريء في النظرات واللفتات، وهي امرأة ناضجة، ذات شخصية وسطوة.

راح يستعيد تعابير وجهها، أسلوبها في الجلوس والقيام، أناقتها الباهرة، رنّة صوتها والبحّة العميقة الحنون، ثم ذلك التألّق السنيّ في عينيها... أكثر ما جذبه إليها، عيناها، تموَّر فيهما أمواج العاطفة والدفء، تشده إليهما جاذبية خارقة، لم يشعر بها مرّة مع فتاة أو امرأة. وهذا أقصى ما يحتاج إليه من المرأة: الحنان، والوعد بإغداق عاطفة تعوّضه من حرمان عمر.

حين ودّعها، حاول أن يضغط يدها قليلًا، يفهمها بلا كلامٍ أنّها ربحت معه الرهان، من اللقاء الأول. ولم يَبْدُ عليها التجاوب، أو التبلّغ. وهكذا أَبقته في خانة الشكّ، وعاد يؤَنّب نفسه على سذاجتها، فهو ليس في مواجهة مراهقة من صبايا الجورة، بل أمام امرأة، عركتها الحياة، وخبزها زمانها.

كانت تلك المرّة الأولى التي يفقد فيها ثقته بنفسه وبانتصاره، في ما يتعلّق بالقلب والعاطفة؛ وعليه أن يسعى، ويجتهد، ليستحق الدخول إلى ملكوت حبّها. فحتَّى لحظة لقائها كان يظن نفسه ذكيا، محنّكًا، يُتقن فنون الغزل ويعرف كيف يثير العواطف في صدور الفتيات ويحرّك، حتى الجماد، بأَساليبه

الغنية، التي سهر على تعلّمها وإتقانها زادًا وسلاحًا وقد كرّسته أمير الغزل بين شباب الجورة.

كانت هذه الأفكار تشغله، وهو يحثّ الخطى، باتجاه داره. وكان والده على المصطبة، وحده، يتشاغل بلفّ سيجارة:

– شو، وين كنت يا ديب؟

في صوت أبيه شبه تأنيب لم يعهده من قبل؟ أَم تراه تأنيب الضمير، ينبري له الآن، لمغافلة الوالد، وهل جاء من أخبره عن الزيارة قبل أن يتمكن هو من نقلها إليه؟

ثم سمعه يردّد السؤال، بطريقة أُخرى:

– طَوَّلْتْ الكَسْدُورة!... شو شاغلك اليوم؟

ابتسم، يكشح ضباب شكّ راح يتراكم بينهما، ثم اقترب، مستعيدًا ثقة كادت تفارقه، وجلس على كرسيّ مقابل الوالد:

– كنا عند المختار.

تنحنح اندراوس بو عبسي، ومرّ بطرف لسانه على حرف الورقة، قبل أن يطبقه على السيجارة، ثم سأله:

– بهالوقت، عند المختار؟ خير انشالله...

– لا... ما فيه إلَّا الخير.

وصمت ديب، وبانتظار ردّ أبيه، ليقرّر صيغة الحوار التالي.

تأمله الوالد، بعينين صغيرتين ذكيتين، ثم قال متخابثًا:

– الهيئة عم تحلّ مشاكل البلد، أنت والمختار.

فَردَّ ديب، بجرأة، قاطعًا الطريق على المزيد من السخرية:

– وتعرّفنا عالضيفة الأميركانية.

حَدَجَهُ أبوه بنظرة عَرَّته من ثيابه:

– وانشالله عجبتك، الأميركانية؟

لم يتوقع السؤال؛ على الأقل، ليس بتلك السرعة، ولم يَدرِ كيف يلملم شتات فكره، ليردّ عليه... لكنّ الوالد لم يُعطِه تلك الفرصة، بل تابع «قَصْفَه» الساخر:

– البلد من بابها لمحرابها بسيرتك، أنت، وطربون الحبق... وأنا أبوك، مثل الأطرش بالزَّفِّة...

وردّ ديب بلهجة دلال:

– وإنت، بتسمع حكي الناس؟

– الناس، والطيور وغصون الشجر... مفكّر في بالجورة أسرار؟... وما بتعرف المثل شو قال؟ «كل سرّ جاوَزَ الإثنين شاع»... وانتو أكثر من اتنين، حسب تقديري.

فردّ ديب، بجد، محاولًا استرضاءه:

– كانت مصادَفَة بتعرف المختار، ما بيترك فرصة تفوت. المهم رأيك. شو بتقول؟

هزّ الرجل رَأسَهُ، وهو ينفث الدخان من أعماق صدره. وكأنه لم يسمع سؤال ابنه، تابع:

– هلَّا، هلَّا يا دنيا... صرنا نسمع أخبار أَولادنا من الغرباء.

واعترضه ديب:

– وانت بتحب تسمع كلام الناس أو كلامي؟ كانت صدفة، وأنا رجعت خصوصي، حتى آخذ رأيك.

– بنزهة؟

سأله أبوه بلا لفّ أو دوران، فأحسّ بأنّ جرأته تكاد تفارقه، استنفر شجاعتهُ ليرد عليه:

– نعم... بنزهة.

– ولَكْ يا ابني، ما متّ، ما شفت مين مات؟ معقولة تتزوّج مَرا بعمر أمّك؟ وحولك الصبايا مثل قلب النهار، وناطرين منّك إشارة؟ شو جرى لك يا ديب؟

قال بلهجة واثقة:

– بس نزهة غير شكل. ست قديرة، وناضجة. وأنا مرتاح للفكرة.

– وبالطبع، مرتاح للخرجية... وفرصة السفر لأميركا... إسمع يا ديب، المَثَل بيقول: «اللِّي بْيَاخُذ القرد عامالو، بيفنى المال وبيظلّ القرد قبالو».

انتفض ديب، وقد مسّته العبارة في الصميم، ثم نهض عن كرسيّه قائلًا:

– الهيئة ما رح نتفاهم يا بو ديب. نزهة ست الستات. ذكيّة وحلوة وفهمانة، وأنا ما اقتنعت بواحدة من بنات الجورة من قبل، وإلَّا كنت تزوجت من زمان.

وهزّ الشيخ رأسه مردّدًا:

– انشالله تكون عارف لوين واصل. الزواج مش لعب أولاد يا ديب... هيدي رفقة عمر، للسرّاء وللضرّاء.

وردّ ديب مدافعًا عن نفسه:

– وأنا مِشْ ولد صغير، ولا رايح إتسلّى. أنا شفت من مصلحتي اتزوج نزهة.

– ايه... الله معك... ومعها.

قال الشيخ ذلك، ثم سحب المجّة الأخيرة من سيجارته، قبل أن يسحقها تحت قدمه.

توارى ديب داخل البيت، وبقي أبوه مسمَّرًا في مكانه فوق الكرسيّ، يستمع إلى الأصداء، أصداء آخر عبارة تفوّه بها ابنه، ويفكّر في الماضي... الذكريات عادت تهاجمه الآن من كل جهة... قضى عمره، يحلم بهذه الساعة، ساعة يفرح من ديب، وحيده وسنده، وكل ما بقي له، في العمر، من ذكراها: رَحَلَت، قبل أن تمتلئ بها عيناه، كانت في مطلع الصبا، وفارقته:

روزينا، لو ترجعين ولو لحظة يا روزينا...

145

تزوّجها، بعد قصّة حب غريبة. كان بين أول أسراب الطيور المهاجرة، وعاد ناجحًا وحاملًا مدّخرات عمله طوال سنين... وكان ينوي الزواج ثم الرجوع إلى المهجر، ليستأنف أعماله، بعد أن يؤمّن حياته العائلية: الزوجة والذرية... هذا هو الخط الذي تبعه المغتربون، ولا يزالون يحافظون عليه. كان الرجوع إلى الجورة مهمًّا لكل مغترب. فهو الوقوف أمام الجميع، لتأكيد النجاح. وكل نجاح في ما عدا ذلك، يبقى سجلًا غيابيًّا.

مذ رآها، أصابه ذهول ودارَت به دنياه، فلم يُصدّق أنّ عينيه تبصران إنسانًا، من لحم ودم.

كانت تجلس على المصطبة، وقد زيَّنت شعرها بوردة جورية، وتركته مسدلًا على كتفيها سنابل قمح تتماوج تحت وهج الشمس.

بدت لعينيه حورية، قادمة من كوكب غير أرضي، أو خارجة من بين دفق الأمواج. وحين قامت عن مقعدها، تراءت له قامتها، شامخة وفوقها عنق غَزَالي، تحت وجه مشرق بالجمال والعافية.

– مَن تكون، تلك النجمة، الهابطة من الأعالي؟

سأل أمّه، غير قادر على ضبط الكلمات.

– روزينا؟

جاءه جواب أمه سؤالًا ثم صمتت وبدا من جوابها المريب أنّ وراء الكلمات سرًّا، مضى في استجلائه:

– شو يعني روزينا؟... بنت مين؟

وأنشبت الأم كلماتها، مثل الأظافر، في عينيه:

– إن كنت عم تفكّر فيها، خيّط بغير هالمسلة.

لم يفهم ما قالته أمه، وتابع مستوضحًا:

– شو قصدك تقولي؟...

فَرَدَّت عليه بحزم:

– الله يستر على كل البنات. يا ابني، البنت «مسكونة»... ساكنها الجنّ.

فقهقه ساخرًا:

– كَبْري عقلك يا إمي. بعد في حدا بيحكي عن الجنّ؟...

– يا ابني، أنا عقلي كبير. بتمنّى أنت يظلّ عقلك مطرحو.

ولم يَبقَ عقله، في «مطرحه». سلبته إرادته. راح يذرع الطرق، ويحوم حول دارها، ليحظى بنظرة. وظلّت هي غير مبالية بوجوده... تمضي وقتها في تطريز قماش بين يديها، وتغنّي.

حاول أكثر من مرَّة أن يلفت نظرها، يصفّر، يقحّ. وهي لا تبالي، وكأنها هائمة في دنيا بعيدة عن البشر، وعن دنياه.

هالةُ الغموض تلفّها بسحر خاص، يُميّزها عن سواها من فتيات عاديَّات، لا يُثرن فيه ذلك الشوق الحارق إلى المزيد من المعرفة.

ولم يكن له وسيلة، غير المألوف في تقاليد الجورة: أن تذهب أمّه، وتخطبها له. وقد رفضت أُمُّه ذلك، وأعلنت رفضها بصراحة:

– البنات أكثر من الهمّ عالقلب، وكل واحدة من بنات الجورة بتقول للشمس حيدي تا أقعد مطرحك... ما حطّيت عينك غير على المجنونة. قلبي ما بيطاوعني يا ابني...

لكنّ رفضها لم يُثْنِه عن عزمه، وراح يفكر في وسيلة أخرى للاتصال، فطلب من جارتهم أم داود أن تكلّم الفتاة وأهلها، فأبدت استغرابها، ثم سألته عما إذا كان يعرف تلك الفتاة، وغرابة أطوارها، فأكّد لها أن ما يجذبه إليها كونُها فتاة غريبة، وغير عاديّة.

ولم يصدّق أنّها رضيت به، وقبل والدها أن يستقبله. وفي خلال تلك الجلسة الأولى اختلى به، وشرح له وضع روزينا، بصراحة: الفتاة تقيم في عالم خاص بها، غريبة الأطوار والسلوك، والناس يا ابني، يطلبون فتاة عاديّة.

ولما أدرك الأب، أنّ الشاب الجالس أمامه، مصرٌّ على لقاء روزينا، أذعن لطلبه، وخرج على التقاليد المألوفة في الجورة، وهي لا تسمح للخطيب بأن يبصر، ولو كاحل خطيبته، قبل ليلة الزفاف...

دعاها أبوها إليه وأخبرها بصراحة معنى زيارة اندراوس بو عبسي:

– الشاب يا بنتي معجب فيك، وجاء يطلبك شو بتقولي؟...

– أنا تحت أمرك يا بيي.

وتمّ الزواج. وكان اندراوس ينوي العودة إلى أميركا. وبذلك يبعدها عن مجتمع يصنّفها، ويرفض قبولها. لكنها رفضت أن تهاجر.

وظلّ يسايرها، ولا يفرض عليها أفكاره، بل يحاورها، على أَمل أن تبدّل رأيها يومًا.

في خلال الوقت القصير، الذي عاشه معها، عرف سعادة لم يكن يحلم بها. كانت لطيفة مثل ملاك، جميلة، عذبة وغريبة... وكان يعشقها أكثر، بسبب تلك الغرابة في سلوكها، وحين تبالغ بتزيين شعرها، بالورد والزهور، أو تسرّحه كما لا عهد لبنات الجورة، بتسريح شعرهن، كان يجلس يتأملها ويتنعّم بحضورها، غير مبال بدويّ اللغط في الخارج، حيث تدور رحى الكلام، وتعجنه الألسن الثرثارة وتخبزه. وكان، يسمع أحيانًا، شظايا ذلك الكلام: – قِدرة ولاقَتْ غطاها...

– لَوْ ما كان مثلها، ما طَبَق ادريسه على ادريسها.

– يا للي مثلنا تعا لعندنا...

أقفل أذنه، وبابه، على ذلك كله، مكتفيًا بنعيم الداخل، مستعيضًا به من أنس الخارج.

وقبل أن ينقضي العام الأول على الزواج، ولد ديب، طفلًا جميلًا، توَّج الحياة السعيدة لهذه العائلة الصغيرة. لكنّ السعادة لا تكتمل في هذه الدنيا. فقد أصيبت روزينا بنزيف حاد، في إثر الولادة، لم تنفع في علاجه الوسائل التقليدية التي تتقنها أم منصور الداية المجرّبة في الجورة.

ومثلما دخلت حياته، خرجت: خفيفة، لطيفة، وكأَنّها من بعض أطياف عالم خرافيّ مجهول. وأقسم اندراوس، فوق نعشها، بأن لا يعرف من بعدها امرأة. وكرّس حياته، ووقته، لتربية ديب، ابنها، الأثر الوحيد الباقي، يذكّره بأنّ هذه المخلوقة، غير الأرضية، مرّت في حياته.

وكان حلمه الوحيد، أن يكبر ديب، ويفرح به ومنه، ويختار له عروسًا حلوة، من خيرة فتيات الجورة.

وها ديب يختار، ويخرج على المألوف، مثلما خرج هو من زمان! ولكن...

146

حاولت ليّا أن تعود إلى وصل الخط الذي قطعته زيارة نزهة، فلم تنجح. كان تأثير الزيارة حادًّا ومفاجئًا، هزّ كيانها حتى الأعماق. وقد بذلت جهدًا كبيرًا خلال الزيارة كي لا يرشح تأثيرها، من خلال الكلمات أو السلوك.

وقفت في الباب، تودّعها، وتتأملها، تسحب ظلّها، من عينيها، لتتوارى خلف سور الحديقة. ثم حاولت العودة إلى نفسها، وإلى جوّها المنزلي وحاضرها. لكنّ العودة لم تكن سهلة. وزاد اضطرابها وهي تفكر في فارس، وما يمكنه أن يقول. وهل يثور ويغضب، أم يتجاهل؟ طبعًا، لن يُخفى عنه الخبر، فإذا سكتت هي، سوف يخبره الآخرون.

قَدَّرَت أنّ الحكاية انتهت عند حدود ذلك الزمان البعيد. ولم تحسب أن أطرافها بقيت معلَّقة، وفي أيدٍ ليس في وسعها التحكّم بها.

وظلّت، مع زوجها، في حماية الأيام المليئة بالعمل، وما تفرضه تنشئة عائلة كبيرة، مثل عائلتها. وها إنّ امرأة غريبة، تخرج من حيث لم تحسب، تجيء من

باب ظنّت أنها أقفلته من زمان، فتمدّ يدها إلى داخل كيانها، وتهزّها، من أعماق الجذور.

هي لا تودّ الآن أن تُجري مقارنة بين حياتها المليئة بالنشاط، بالعمل المثمر، وبالأولاد الأصحاء، وحياة نزهة التي اختارت المال والجاه. لكن لماذا تشعر بالضيق؟ لماذا لا تحاول أن تنسى؟

والمرأة جاءت، بالرغم منها.

فتحت باب الماضي وعبرت إلى قلب دارها. ولم يحدث ذلك في الحلم، بل في الواقع.

ويعود الماضي، يختلط بالحاضر، وتستفيق في كيانها، جروح لم تلتئم نهائيًّا وبرغم مرور الأيام.

147

انتشلها من تأملاتها والذكريات المرّة، وقع خُطى في الخارج. ثم سمعت الباب يُفتح بطريقة تعرفها: رجع فارس من الكروم...

هرعت تستقبله، وكأنّها، باستنفار ذلك النشاط المفاجئ، تحاول انتزاع نفسها من سويدائها:

– يعطيك العافية يا رجّال...

– الله يعافيك...

لم يكن جوابه دافئًا، مثلما تعوّدت أن تسمع منه، وقدّرت أن يكون السبب، التعب والحرّ.

انصرفت إلى المطبخ وراحت تعدّ العشاء من حواضر البيت: لبنة وزيتون وصعتر وجبنة بلدية ودبس بطحينة... وسحبت رغيفين من «اللكن»، طوتهما، وجعلتهما في سلة القش الصغيرة... مدّت طبق القش فوق «السْكَمْلَة» وجلست تنتظر.

لم يلبث أن وافاها، بعدما غسل تعب نهاره، وأزال التراب المجبول بالعرق عن وجهه ويديه وجلس قبالتها، بعدما صلّب يده مبارِكًا الطعام قبل أن يتناوله. بقي صامتًا وكأنه يتجنّب خطابها، أو النظر إلى وجهها.

حاولت أن تقترب منه أكثر، فطرحت سؤالًا تقليديًّا:

– كيف كان نهارك يا رجّال؟

فردّ باختصار، يُفشي ضيقه:

– مثل كل الأيام... تعب وشقا.

– الله يعطيك العافية.

ولم يردّ. وكأنّه بذلك يعطيها إشارة لتخرس. ليس مُستعدًّا لحوارها، فخرست. وكأنّها بصَمْتها الطويل، عادت تَستَفِزُّه، فبادرها بلهجة لا تخلو من العدائية:

– سمعنا أن نزهة بو مرعي زارتك اليوم. شو سرّ هالزيارة من غير شرّ؟

إذًا أخبروه.

وقبل أن يبلغ الدار. ومع أنه لم يمضِ على الزيارة سوى بعض الوقت، دقائق... وأخبروه!...

لجأت إلى الحيلة في الإجابة، متظاهرة بعدم التأثير:

– شو، وصل الخبر عالكروم؟

فردَّ من دون أن تلين لهجته:

– ما في بصقة تحت حجر بتختفي... المهمّ، شو بتريد الستّ؟

السؤال حادّ. يطعنها. مثلما تخزها نظراته، الآن، مصوّبة إليها مباشرة يقدح منها الغضب الذي تخشاه... وتهرب من مواجهته... الآن، مثلما كانت دائمًا إذ تحسّه غضب البركان، لا تفيد معه المواجهة، تتركه يخرج حتى آخر قطرة، وتستنفر كل ما في طاقتها من لطف ولين، كي لا تزيد التلظّي.

بلعت لقمتها، وردّت شفتاها:

– ما بتريد شي... زيارة عادية.

– عادية؟ ليش من عادتنا نزورها؟ بالطبع، انت ما سلّمت عليها!..

– بالطبع لا.

– ومع هذا، إجت. لازم يكون ورا هالزيارة سبب مهم...

وقفت اللقمة في بلعومها، وقرّرت أن تضع حدًّا لخوفها، بالمصارحة:

– ايه... فيه سبب. نزهة أرادت تريّح ضميرها... قالت انها من ثلاثين سنة وهي حاملة السرّ، واغتنمت الفرصة حتى تعترف. بعد ثلاثين سنة زواج، قالت، بعدها بكريَّة.

سكبت كلماتها، مثل جندي يقذف الرصاصة الأخيرة، ولا تعود تهمُّه ردود الفعل. أبصرت يد زوجها تتجمد فوق الصحن، مثلما تتسمَّر نظراته في عينيها:

– وإجِت تعترف لك، إنتِ؟ ليش ما بتروح للخوري؟ للمطران؟...

تجرحها كلماته، مثل حراب تنغرز في أحشائها. فتحسّ معدتها تتقلص وتضيق أنفاسها.

نهضت من جلستها، وحملت صحنها إلى المطبخ. أحسّ فارس بأَن ردّ فعله كان قاسيًا... وبغير قصدٍ، آذاها حتى صميم أعماقها.

هذه الزوجة الصابرة، أحبّته واحتوته، كانت له الحضن والحمى، والخادمة المطيعة، ولم ترفع عينها إلى عينه، يومًا، بعتب. بقيت راضخة لإرادته، التي راحت مع مرور الزمن، تزداد تسلّطًا وقسوة وأنانية.

ماذا فعلت ليّا، لتستحق منه هذه السخرية؟ فهي لم تخطئ يومًا بحقه. كانت صريحة، واضحة، مثل الشمس... سخيَّة في بذل نفسها، ولطيفة، لطيفة... مثل ملاك.

انتظر دقائق، لكنها لم ترجع، بل راحت تتشاغل في المطبخ. قام، وتبعها على مهل، فرآها واقفة أمام المجلى، تُدير ظهرها وتنشج. سمع الصدى السطحيّ لعويل أعماقها، فاقترب يحتضنها ويتمتم: – ما تزعلي منّي يا ليّا... أنا مرّات بنسى، وبوقف في صف الآخرين. فيكِ تسامحيني يا ليّا؟

سمعها تردّ، وهي تمسح دموعها بطرف كفّها:

– يلعن اللي كان السبب...

أنهَت ترتيب المطبخ، وأَوَت إلى فراشها لكنّ النوم جافاها. وظلّت تُغالب دموعها، القناة الوحيدة لتصريف القهر والألم، فيما تحاول أن تغفو.

148

لا تذكر ليّا في أيّة حالة من أحوال اللاوعي كانت، حين شعرت بيد تمتد إليها وتلامس جبينها. ثم سمعت صوتًا عذبًا يناديها بلطف، يهدهدها ويَعِدُها بالفرح والسعادة، مؤكدًا أنه يفهمها، ويعرف كم هو مرّ عذابها... عذاب المظلومين، المقهورين... ثم يدعوها، لتتبعه، لتخرج من سواد ليلها لتسير، فوق خط من نور، راح ينتصب في الحال أمام عينيها، أرفع من قامتها.

نهضت، وتبعت النداء، مسلوبة الإرادة، مسحورة، ومدفوعة بقوة لا تُدرِك مصدرها، لكي ترتفع إلى أعلى، ثم تسير فوق خط النور. وفجأة، أبصرت نفسها فوق ساحة واسعة والناس من حولها جماعات. ينظرون إليها معجبين؛ وثمة صوت، يصرخ من بين الجماعة، ينصحها بأن تتمسّك بعصا انتصبت أمامها، كي تحفظ توازنها، فلا تهوي من فوق. وهي لا تبالي بالنصح، لأنها تعلم أن تلك العصا وقوتها هي ملكها وبين يديها؛ إنّما لشفافيتها، لا تبصرها عيون الآخرين. لم تردّ، ولم تحاول الشرح... اكتفت بابتسامة هادئة. ابتسامة الواثقة بنفسها وقدرتها، المسيطرة على الأوضاع، فلا تستطيع قوة، أن تسلبها قدرتها وحريتها وانطلاقها.

وهي واثقة بأن هذا الفرح، الذي تنسكب شلّالاته في ذاتها، سيكون، بعدَ اليوم، ملكها. يملأ وجودها وينتشر في كل مسام جسمها.

ظلّت تمشي. تُلاحقها الأصداء البعيدة لأصوات لا تهمها. فقد تخطّت المكان، الساحة، وتجاوزت المتجمهرين فيها، بمن فيهم وجوه تعرفها: وجوه أمها وأبيها وإخوتها... وظلّت تسير. وطلع، من مكان ما، وجه فارس النمر الفتى الأجير الذي أَحبَّتهُ، بنقاء، الحبّ كله... أبصرته يجرف الثلوج من حديقة بيتهم العتيق. لكنها لم تهتم لتسأل عن المشكلة. أبصرت فارس يتكئ على الرفش، ويمسح بيده على جبينه، وهو ينظر إلى فوق. وعرفها حين أبصرها، فراح يومئ بيده، كي تهبط إليه. ثم سمعته يصرخ، ينادي باسمها. لكن الصوت لم يلبث أن تلاشى، في دوائر من الأصداء الغريبة. وما كادت تتجاوز ذلك الحد حتى أبصرت طيورًا ملوّنة، مثل عصافير الجنة، مرحة وجميلة. وكانت الطيور ترقص، وتزقزق، ويلمع ريشها بكل الألوان، تحت نور الشمس. وتتولّد من تكسّر النور والألوان، أقواسٌ قزحية تبهر النظر... فكرت إنّها في عمرها كله، لم تبصر مشهدًا بتلك الروعة وذلك البهاء. وَدَّت لو تهبط قليلًا، إلى مستوى الطيور، وتُبدي لها رأيها... تُخبرها كم تبدو جميلة... وتحثُّها لتحافظ على ذلك الجمال، وهو نادر في الوجود... لكنها، حالما سَعَت لبلوغ الطيور، أبصرتها تتحوّل إلى فراشات تَرِفّ فوق مرج زهور... فقالت في نفسها: «وهذا، مشهد آخر، جميل ولا يقل روعة عن السابق. لو أُخبر الفراشات بذلك»...

وما كادت تسير خطوة في ذلك الاتجاه، حتى رأت الفراشات تصير أطفالًا، بنات وصبيانًا، يقفزون مثل الأرانب، فوق العشب، وقد ارتدوا ثيابًا من نور. وعرفت من بينهم أولادها، صغارًا. وكانوا الأجمل، الأنظف والأطيب. وكانوا ينظرون إليها، نظرات مشتاقة، تحنّ إليها، تناديها لتقترب وتعانقهم. لكنها تظلّ بعيدة، برغم الشوق والحنين... تُتابع سيرها، مقرّرة في سرِّها، أنّها ستراهم، حالما تعود. حالما يُفَكَ عنها هذا السحر الذي يسمّرها بخط واحد، ولا يترك لها مجالًا، للانفصال...

هكذا، ظلّت تمشي، وترتقي؛ والمشاهد تتكرّر، وكأنها شريط سينمائي يُعيد نفسه. وتبقى هي، مرحة، سعيدة بالمشاهد، متحرّرة من كل ما يشدّها إلى البشر والتراب، ومن كل ما يُقيّد فكرها، ويغلّ روحها، ويحدّ انطلاقها... تمنّت لو تبقى هكذا، هائمة، مسحورة، ولا ينالها أذى الآخرين.

عادت اليد من جديد، تُرَبِّت خدّها، ثم تتحوّل إلى وعاء يحتويها، جسدًا وفكرًا وروحًا. وسمعت صوتًا يهمس في أذنها:

– من هنا، انطلقي. هيَّا، لقد خبرت المسير فوق خطّ النور.

حاولت أن تفتح عينيها، لتتعرف إلى صاحب الصوت، فلم تنجح. أعادت المحاولة، مستعينة بأناملها لتشدّ جفونها؛ وكانت شمس الضحى تتسلّل إليها، من خلال النافذة الشرقية، وتوقظها من نوم عميق.

«على غير عادتها، تضحّت بالنوم»، فكَّر فارس، ولكنه لم يوقظها... لفّ زوادته، ثم انطلق إلى نهار عمل جديد.

حين نهضت من النوم، أحسّت جسدها ثقيلًا، وكأَنه مشدود إلى الفراش بقوة مغناطيسية. أصاخت سمعها قليلًا قبل أن تتقدّم من النافذة وتفتحها على نور نهار جديد، استقبلته بشعور، لم يكن لها في السابق، هو مزيج من فرح، وقوة وأمل.

ولم تتوقف لتسأل من أين جاءها ذلك الشعور. تقبّلته برضى، مثلما هي دائمًا، مثلما كانت منذ أيام الصبا الأول.

تنهمر الأيام على جورة السنديان، من فوق ذرى حرمون، وكأنّها أوراق تقويم سرمدي تنثرها يد خفيّة.

تتساقط الأصباح على الكروم والبساتين، فتسجد في محرابها الصنوبرات الشامخات عند سفوح التلال الشرقية، وتبدو رؤوسها مرصّعة بالنور المتماوج فوق الخضرة الهادئة الساكنة.

لم يكن الفجر، في ذلك الصباح، مختلفًا أو مُمَيَّزًا؛ بل كان طلوع نهار آخر، وفجر عادي، بدأ تثاؤبًا رماديًّا، أزرق، فضيًّا، ثم راح يتحوّل ويذرّ أسرار النور الورديّ، في عباب الشجر، وحنايا الأودية. حتى إذا ما بلغ الجورة وبيوتها وأزقتها، سُمِعَت لذُرَيرَاتِه أصداء نواقيس وأجراس، تترجّع في اللاوعي الجماعيّ، قبل أن تطرق الآذان وتوقِظَ النفوس من رقادها.

150

لم تنتظر نزهة بزوغ الفجر، أو صياح الديك، لتنهض من النوم، فهي لم تنم. بل قضت ليلها ساهرة، تُطالِع خريطةً رَسمَتها قبل أن تُقدم على الزيارة. وهي الآن تراجع حساب الحقل والبيدر. وتستعد للعودة... تريد أن تعرف بالتأكيد: أين نجحت خطتها؟ وأين أخفقت؟

بدأت بِليَّا. وكانت راضية عن النتيجة. زيارتها أراحت ضميرها، ووضعت حدًّا لذلك الوخز الذي رافقها، طوال سنوات زواجها. ولم تُبال بانتشار السرّ، إِذا قررت ليّا إفشاءَه. المهم أنها وضعت نقطة الختام لتلك «الحكاية»، وارتاح ضميرها، وهي الآن راحلة، ولن تطاولها الألسن. وعبدالله في ذمّة خالقه، ولن يتأثر بما يشغل الأحياء.

ردّت النافذة، فوق تلك الشرفة، منتقلة صوب جبران.

جاءته، بكل الأمل والعزم. وكان قلبها ممتلئًا حبًّا ورجاء... ظلّت سنين، تنعش ذلك الحب، وتحييه. بَنَت عليه قصورًا من الأحلام والآمال، ولم تحسب أنّ الحبّ مخلوق حيّ، فإذا طال زمن الجفاء، تجفّ التربة، ويذوي الغرس.

كيف لم تفكر في ذلك؟ أم أنها مكابرة وعنيدة قررت أن تبلغ غايتها ما دامت مصرّة على القرار وعازمة على التنفيذ.

كم كانت غبيَّة، حين تصوَّرت أنّ عودة جبران إلى الجورة، كانت هربًا من عذاب الحب... وأنّ بقاءه عازبًا هو بسببها!

غبيّة، ورومانسية، هي...

طَوَت تلك الصفحة من الذكريات مثلما تردّ يدٌ غطاء نعش، قبل دفنه نهائيًّا في أعماق النسيان.

لكن، لماذا لا تشعر بالراحة؟ هي التي تتصدّى، بواقعيّة، للحياة وللمشاكل... وقلقها الآن، صاعدٌ من تساؤل يطرق جدار الوعي: أتراها تَسَرَّعَت؟...

وما الذي جرى نهار أمس، في بيت المختار؟ وهل يُعقل أنها رضيت؟ وهي ماضية في تحقيق الفكرة؟ أوَليس القبول، بتلك السرعة، هو ردّ فعل على الخيبة التي مُنِيَت بها؟ هل هكذا يتم الزواج، وفي هذه المرحلة من عمرها، بالذات؟

لم تكن لديها أجوبة تردّ بها.

إنّها، الآن، تقف أمام باب فتحته برضاها. وسوف تمضي، في ولوجه مهما كان الثمن.

وتساءلت عمَّا إذا كان هذا زواج مصلحة، ومن قِبَلِ الطرفين. أجابت بسؤال: «ولِمَ لا؟... الكون، بأسره، قائم على تبادل المصالح والخدمات. حتى سلوك الطبيعة، والبشر. لا شيء يدور، ما لم تكن هناك مصلحة لأحد الأطراف»...

ومثلما هي تبحث عن صالحها، كذلك يفعل ديب. فإِذا تلاقيا، يكون ذلك غاية الانسجام.

لم تتوقّف طويلًا عند رفض سلمى فكرة التبنّي. هذا الأَمر لم يكن في خطتها الأُولى بل هو طارئ لم تحسب له حسابًا.

لم تندم على إثارة الموضوع... ولم تحزن على الجواب الرافض من سلمى. طرحت سؤالها، فقط، وفي وسعها أن تنتظر سنة... سنتين... المهم أنّ رمزية تحبّ السفر، ولن يُرضيها، في الغد، عيش الفاقة في جورة السنديان.

سمعت هدير السيارة، يقترب من الدار، فهبّت بنشاط ومضت إلى الحمام، تغسل بقية التساؤل والشك، في المياه الدافئة.

وحين فرغت من ارتداء ملابسها و«توضيب» حقيبتها، كانت ألماظ قد أعدّت القهوة والشاي... تناولت فنجان القهوة من يدها، وهي تصغي إلى همس السكينة، لا يُعكّرها صوت، سوى حفيف أوراق الكرمة، عند حافة النافذة المفتوحة.

لم تسمع حسًّا داخل البيت وقدّرت أن جبران إمَّا أنَّه لا يزال غافيًا، أو أنّه يتعمّد الغياب في تلك اللحظات الحرجة، ولذلك ودّعها، مساء الليلة البارحة، الوداع الأخير...

ودّعت ألماظ وخرجت، تلاحقها عبارات تقليدية، تُشعر ألماظ بأَنّ تردادها يخفف ثقل اللحظات: «شرّفتِ يا نزهة. توصلي بالسلامة... ولا تطوّلي الغيبة»...

كانت تردّد الكلمات، واقفة بالباب، تتأمّل الضيفة تستوي على المقعد الخلفي من سيارة «البويك» الزرقاء الفخمة، ثم تمدّ يدها، وهي تردّد:

– بايْ، بايْ، يا هنَي... دياركم عامرة...

ما كادت السيارة تقلع، ثم تتوارى عند أول منعطف، حتى أغلقت ألماظ الباب وعادت إلى الفراش، تُراجع، بصمت، ذكريات الأيام الماضية.

151

زوبعة الغبار التي أثارها انطلاق السيارة، فوق الطريق الذي يشقّ الجورة إلى نصفين، سَوف تبقى ذرّاتها عالقة في النفوس، معششة في خلايا المساكن، إلى أن يحلّ الشتاء، وينهمر المطر، ويغسل وجه الأرض. ويمحو ذكريات الصيف...

مضت السيارة تجتاز الخط المرسوم لعودتها، متّئدة وبعيدة عن مواكبة العيون التي أحاطت بها لدى قدومها.

كانت الجورة لا تزال غافية، ما عدا بعض الفلاحين الذين ينطلقون باكرًا إلى الحقول، فوق ظهور دوابهم، وقد تلفّعوا بالكوفيات، تغطي رؤوسهم، وتلتفّ حول الأعناق، في استعداد باكر لمواجهة حرّ النهار.

152

تلك المناسبة الصباحية، فاتت أم هاني، برغم كل الجهد الذي بذلته كي لا يفوتها الخبر.

كانت تظن أَن نزهة باقية، لتعلن خطبتها على الأقل... لكنّها خَيَّبَتها. وقد فعلت ذلك بناءً على نصائح المختار.

بالطبع لم يكن هذا شعور المختار. كان صاحيًا، واقفًا فوق شرفة داره المطلة على الكروم حين سمع حسّ السيارة تغادر الجورة، فشعر براحة عارمة تغمر كيانه: الخطة تسير حسب تصميمه، وبدقّة متناهية. ها نزهة تسافر اليوم، وغدًا يلحق بها ديب على بركات الله. وبزواجهما، يسجّلان شهادة جديدة لقدرته على جمع الناس... وحده، باقٍ، صاحب السلطة السرمدية في جورة السنديان.

وديب لم يعرف طعم النوم. قضى ليله ساهرًا، على الشرفة. وحين أحسّ بالتعب، تمدّد على المقعد الحجري، تحت العريشة، إلى أن سمع هدير السيارة، آتية من المطلّ. أحس قلبه يخفق بشدة ولم يفهم ما إذا كان هذا بدافع القلق، أم لأَن شمس نهار جديد تعده بالشروق؟...

لم يحاول الإجابة عن التساؤل. وبقي الردّ معلَّقًا في الفراغ، وحتى أمد بعيد.

153

من خلف الأبواب المقفلة، سمعت ليّا هدير سيارة يخضّ الهدوء، بل يقطعه مثل حد السكين. ومن دون أَن تفكر طويلًا، قدَّرت أنّ نزهة مسافرة. تساءلت لحظات، عمَّا إذا كانت تبادل، بحياتها وحاضرها، حياة نزهة، ولم تبحث عن جواب...

كان فارس يستعد للخروج إلى الكرم، فنهضت تعدّ له «الزوَّادة» وتُردّد صلاتها الصامتة من الأعماق؛ وفي عينيها تشرق شموس، هي وجوه الأولاد الذين يملأون قلبها هناء.

وحين تسلل الهدير إلى كوخ سلمى، تقلَّبت سلمى في فراشها من جانب إلى جانب، وشكرت ربّها على أنّ رمزية غافية، وأنّها لا تزال معها. إنّما، في نقطة عميقة من ضميرها، كان بعض الشك يتململ وينذرها بأنّ ابنتها لن تعود إلى ما كانت عليه قبل زيارة نزهة.

154

نهضت الجورة تواجه رفيق زمانها، جبل حرمون، مثلما تعوَّدت، منذ أول حجر نصب في عمرانها: هادئة، واثقة بحضورها وديمومتها...

البشر يأتون، ويرحلون...

من كل مكان، وإلى أيّ اتجاه... وهي باقية في صبر انتظارها.

وعلى الجبهة الشرقية ارتفعت نجمة الصباح، تواجه موجات النور، تتدافع، مثل طلق يسبق ولادة جديدة... تفاجئها، تتآلف معها إلى حين، ثم تمحوها، بينما توسّع رقعة انتشارها في تموجات دائرية طاغية، لا تلبث أن تتحوَّل إلى نور يبهر الأنظار...